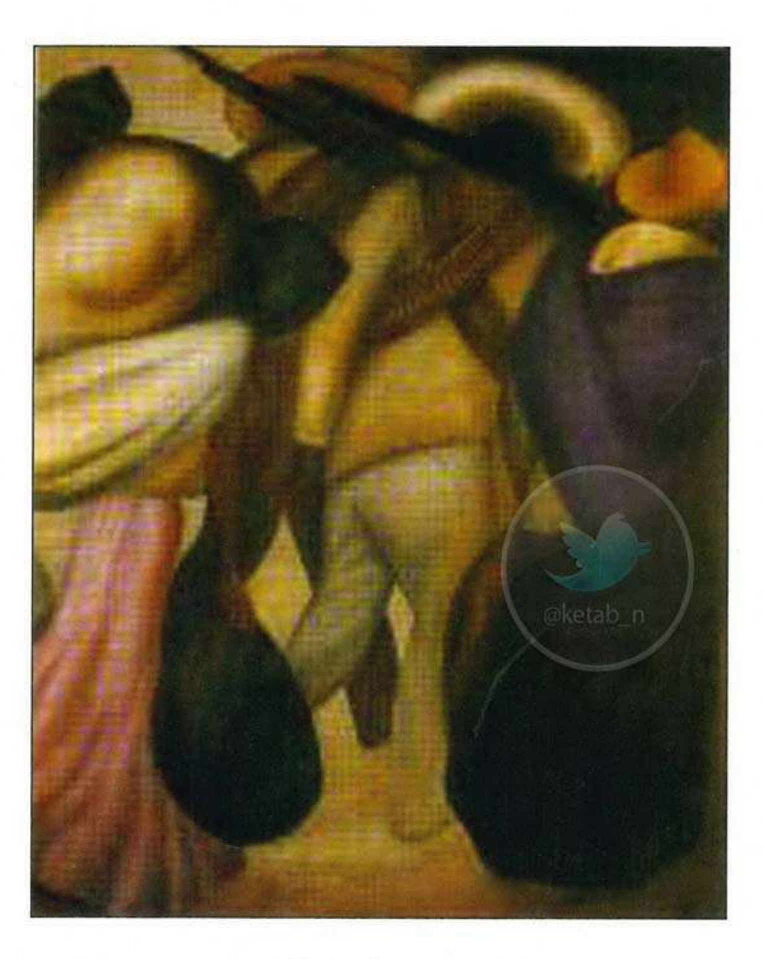
ميجال أنجل أستورياس

السيّد الرئيس



ترجمة جمال الجلاصي

منشورات الجمل

رواية

ميجال أنجل أستورياس

السيّد الرئيس

ترجمة

جمال الجلاصي

منشورات الجمل



ميجال أنجل أستورياس: السيّد الرئيس

ميجال أنجل أستورياس، السيّد الرئيس، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Miguel Ángel Asturias: El señor presidente,
México D.F.: Costa-Amic, 1946

Postfach 1127. 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الجزء الأول

٢١، ٢٢، ٢٣ أفريل

«وهكذا، قُدّمت كل القبائل
قربانا لوجهه»

بوبول ـ فوه.

(١)

باب الرّحمان

وميض، ضوء جليّ، بروق الشيطان! مثل طنين الآذان الذي يظلّ إثر رنين نواقيس الكنيسة لصلاة التبشير، كينونة مضاعفة متألّمة: الظل في الضوء، والضوء في الظل.

وميض، ضوء جليّ، بروق الشيطان، كلها حرمان! وميض، ضوء جليّ، برق الشيطان! وميض، وميض، برق، ضوء خطاف.. برق الضوء، خاطف البرق..

المتسوّلون يتسكّعون بين ردهات السوق. تائهين في الظل المتجمّد للكاتدرائية، في اتجاه ساحة السلاح، عبر الطرق العريضة كالبحار، في المدينة التي تتعوّد عزلتها شيئًا فشيئًا.

يجمّعهم الليل عندما يجمّع النجوم. يتجمّعون للنوم عند باب الرّحمان، دون أيّ رابطة سوى البؤس. يتبادلون اللعنات، يطلقون الشتائم بشراسة الأعداء الذين يفتشون عن الخصومات، يتضاربون بالمرافق وأحيانًا يقذفون بعضهم بالطين المخلوط بالبصاق والسباب. الوسائد والثقة، أشياء لم تنتمِ أبدًا لعائلة المزبلة هذه. ينامون بكامل ملابسهم متباعدين، ينامون كلصوص متوسدين كنوزهم: بقايا لحم، حذاء قديم، أعقاب شمع، حفنة أرز مطبوخ ملفوفة في صحيفة قديمة، برتقال وموز متعفن.

تراهم عند درجات باب الرحمان وجوههم صوب الجدار، يحصون ملاليمهم، يتثبّتون من سلامتها، يحادثون أنفسهم، يحصون ذخائر معدتهم وحربهم لأنهم يمشون في الشارع كأنهم يستعدون لحرب دائمة، متسلحين بالحجارة، يمضغون خفية قطعة خبز جاف. لن تراهم أبدًا يتعاونون، بخلاء ببقاياهم مثل كل المتسولين، يفضلون إعطاءها للكلاب عوض رفاق بؤسهم.

بعد أن يأكلوا ويضعوا نقودهم في منديل ويعقدونه سبع عقد، ويربطونه قرب سرّتهم، يتمدّدون أرضًا ويغطسون في أحلام حزينة ومضطربة. كوابيس يرون خلالها خنازير جائعة ونساء نحيلات، وكلابًا مشوّهة، عجلات سيارات وأشباح رهبان يطوفون بالكنيسة كأنهم بانتظار موكب الدفن، تسبقهم دودة شريطية مصلوبة على ساق متجمدة. أحيانًا يفيقون من عمق النوم على صرخة معتوه اعتقد أنه تاه في ساحة السلاح. أحيانًا يوقظهم بكاء عمياء رأت في حلمها أن الذباب يغطيها وأنها معلّقة مثل ذبيحة أمام دكان جزار. وأحيانًا الخطى الرتيبة لدوريّة تجرجر سجينا تحت ضرباتها القاسية تتبعها نسوة تحاول بمناديل تغرق بالدموع مسح آثار دمائه. أحيانًا الشخير المفزع لأقرع معتلّ، أو تنفس صمّاء بكماء حامل تبكي خوفًا لأنها تحسّ طفلا في أحشائها.. لكن صراخ المعتوه كان الأكثر وحشة، كان يمزّق السماء، صراخ طويل مرتجّ دون أي نبرة إنسانية.

يوم الأحد حلّ مخمور بين هذه المجموعة الغريبة، عندما نام بدأ ينادي أمّه باكيا مثل طفل. عندما سمع المعتوه كلمة «أمّاه» التي بدت من فم المخمور كأنها لعنة أو شكوى، نهض ونظر في كل الاتجاهات من أول الباب إلى آخره، ثم، بعد أن استفاق جيّدًا وأيقظ رفاقه بصرخاته، بدأ يبكي رعبًا، مصاحبًا المخمور في نحيبه.

كانت الكلاب تنبح، والصرخات تعلو، وأقدر الجماعة على الصراخ يقف لينادي بأعلى صوتة ليلزم الجميع الهدوء، ليلزم الجميع الهدوء.. أو الشرطة. لكن الشرطة تمتنع عن الاقتراب. لا أحد هنا يمكنه دفع الخطيئة. «تعيش فرنسا»!.. يبعبع الأعرج مع صرخات المعتوه وحركاته وقد غدا سخرية المتسوّلين نتيجة هذا الوغد الأعرج الذي يقلّد أحيانًا المخمور وأحيانًا أخرى الدّمية، هكذا كانوا يلقبون المعتوه، الذي يبدو في نومه كميِّت يُبعث مع كل صرخة، دون أن يهتمّ بالظّلال المتكدسة أرضًا، الملفوفة بخرق بالية، الذين يرمونه عند رؤية نوبة الجنون، بسخريات وضحكات عالية. بنظرات تائهة أعلى من الوجوه الموحشة لرفاقه، دون أن يرى شيئًا أو يسمع صوتًا، يعود للنوم مرهقا من كثرة البكاء. لكنه لا يكاد يغفو حتى تعود صرخة الأعرج «أمّاه»، ليفيق من جديد.

يفتح الدّمية عينيه فجأة، كنائم يرى نفسه يركض في الفراغ. حدقتاه تتسعان شيئاً فشيئا، ينكمش من جديد، يصل الألم إلى أحشائه والدموع تنهمر من عينيه، ثم يعود تدريجيا للنوم وجسمه مرتخ، والبؤس يغلّف بقايا يقظته المتحلّلة. ولكن بالكاد يتذوّق الرّاحة حتى يوقظه صوت خبيث آخر «أماه»!.

أنه صوت «الأرملة»، خلاسيّ هرم، بين ضحكة وأخرى يواصل: «أمّاااااه، أيتها الرحيمة، أملنا، نرجوك نحن المنفيين! آه! ارفعي عنّا المظلمة»!

يفيق المعتوه ضاحكا، كأنه يسخر أيضاً من قدره، جوعان، تجري دموعه وقلبه من بين أسنانه، بينما يفتكّ المتسوّلون من الهواء قهقهقهقهقهقهقهات على الهواء، على الهواء. قهقهقهقهقهقهات. وامرأة بدينة شواربها ملطخة بالمرق تكاد تختنق من كثرة الضحك،

ومن كثرة الضحك بال أعور وهو يضرب رأسه بالجدار، كتيس. والعميان يتذمرون لأنهم لا يستطيعون النوم في هذه الفوضى. والناموسة، أعمى بلا ساقين، يحتجّ لأن المخنّثين فقط، حسب رأيه، يمكنهم الضحك بهذه الطريقة.

كان العميان، مقارنة بالآخرين، كأنهم يغنّون، والناموسة الذي ما زال يتحدث، لا أحد يسمعه. من يمكنه أن يأخذ ادعاءاته على محمل الجدّ؟: «أنا، من قضى طفولته في ثكنة للمدفعية، حيث جعلت مني ركلات البغال والقادة رجلاً ـ حصانا، ممّا مكّنني وأنا شاب من جرّ أرغني الضخم في كل الشوارع. أنا الذي فقدت عينيّ خلال معركة دون أن أدري كيف، ثم رجلي اليمنى في معركة ثانية دون أن أعرف متى، ثم اليسرى في معركة ثالثة، تحت عجلات سيارة دون أن أعرف أين»!

أشاع المتسولون أن الدّمية أصبح معتوهًا نتيجة حديث الناس عن أمه. أصبح التّعيس يجول في الأسواق والشوارع والساحات كي يفرّ من الهمج الذين يلاحقونه هنا وهناك مثل لعنة سماوية بكلمة «أماه»! يبحث عن مأوى في المنازل لكن الكلاب والخدم يلقونه خارجًا، يطردونه من الكنائس والمغازات، من كل مكان، دون أن يعيروا انتباها لتعبه الحيواني ولا لتعبيرات عينيه اللتين توحيان بالشفقة دون وعي.

المدينة كبيرة، كبيرة جداً، نظرا لكسله، أصبحت أصغر شيئًا فشيئا، بالنسبة لرعبه: ليالي الرعب تليها نهارات القهر، مُلاحَق من الناس الذين لا يكتفون بالهتاف: «أيها الدمية يوم الأحد ستتزوج أمك.. الأغنية العجوز.. الأغنية العجوز.. العجوز الغانيـة..» بل يضربونه ويمزقون ملابسه. ملاحقًا من الأطفال، يلتجئ إلى الأحياء

الفقيرة، حيث يكون حظّه أتعس، هناك حيث الكل يعاني البؤس، بالكاد يرونه يركض حتى يشتمونه ويرمونه بالحجارة والفئران الميتة والعلب الفارغة.

عند خروجه من أحد تلك الأحياء، عندما بدأت النواقيس دقّة التبشير، صعد نحو باب الرحمان، مجروح الجبهة، دون قبّعة يجر وراءه بقايا طائرة ورقية علقت في ظهره للسخرية، كل شيء يخيفه: ظلال الجدران، خطوات الكلاب، الأوراق المتساقطة من الأشجار، زعيق السيارات المسرعة.. عندما وصل إلى الباب كاد الظلام يخيّم. المتسولون يديرون وجوههم باتجاه الجدار، يحصون ويعيدون إحصاء أرباحهم. الأعرج يتخاصم مع الناموسة، الخرساء الصماء تتلمس بطنها الضخمة دون سبب حسب رأيها، والأعمى يتأرجح في حلمه مغطى بالذباب مثل لحم معلّق أمام دكان جزار.

سقط الدمية نصف ميّت، لم يُرح ساقيه منذ ليال طويلة. يحكّ المتسولون لحمهم في صمت دون أن يستطيعوا النوم، منتبهين لخطوات العساكر تروح وتجيء في الساحة قليلة الإضاءة، ولقعقعة سلاح الحرس، أشباح ملفوفة في برانيس مخططة، يسهرون في أتم استعداد، من شبابيك الثكنات القريبة، على سلامة رئيس الجمهورية الذي لا يعرف أحد مسكنه لأنه يبيت خارج المدينة في بيوت عديدة في نفس الليلة، ولا كيف ينام؟ لأن الناس تقول أنه ينام واقفًا، قرب هاتف والسوط في يده، ولا متى ينام؟ لأن أصدقاءه يؤكدون أنه لا ينام أبدًا.

من باب الرحمان يمر جسم مظلم، يتقوقع المتسولون مثل ديدان. يعلو مع صرير الأحذية العسكرية نعيب طائر مشؤوم في الليل المظلم العميق دون قاع..

يفتح الأعرج جفونه، تستشعر في الج ونهاية العالم، صاح في البوم: «هويا لي، هويا لي، يمكنك أن تأخذ الملح والبهار.. لا أريد لك خيرًا أو شرًا، لكن صدفة ألعنك». يبحث الناموسة عن وجهه، الهواء ثقيل كأن الأرض تنتظر زلزالا. يرسم الأرملة إشارة الصليب قرب العميان. الدمية وحده نائم وهو يشخر.

يتوقف الجسم المظلم، الضحكة تنير وجهه، يقترب من الدمية، بهدوء، وبسخرية يصرخ: «أمّاه»!

لم يقل أي كلمة أخرى. مرعوبا من الصرخة، انتفض المعتوه وارتمى عليه، دون أن يترك له الوقت لاستعمال أسلحته، يغرس أصابعه في عينيه، يمزق أنفه بأسنانه، ويضرب أسفل بطنه بركبته، إلى أن سقط بلا حراك. أغمض المتسولون أعينهم من الرعب، والبومة مرّت من جديد، والدمية فرّ عبر الطرقات المظلمة تهزّه نوبة من الهلع.

قوة عمياء سلبت حياة العقيد خوزي باراليس سوريانتي الملقّب *بالرجل ذي البغلة الصغيرة*.

الفجر لاح.

(٢)

موت الناموسة

تشي الشمس بالشرفات البارزة للدائرة الثانية للشرطة ـ من هنا وهناك يعبر أحدهم الشارع ـ الكنيسة البروتستانتية ـ نرى هنا وهناك بابٌ يُفتح ـ بناء من الآجر بناه الماسونيّون. في دائرة الشرطة جمع من النسوة ينتظرن السجناء، جالسات في الساحة، حيث نحسّ دائماً بقرب نزول المطر، وعلى المصاطب في الممرات المعتمة، يجلسن حافيات، في حجر كل واحدة منهن سلّة طعام، محاطات بمجموعة من الأطفال الصغار ملتصقين بأثداء أمهاتهم المتدلية، والكبار يهدّدون بتثاؤبهم الخبز في السلة. يروين محنهن بصوت منخفض، دون أن يكففن عن البكاء، يمسحن دموعهن بطرف الشال. بصمت.. يغرق وجه عجوز في الدموع وكأنها تريد القول إن محنتها كأم هي الأمرّ. الألم دون دواء في هذه الحياة وفي هذا المكان الكئيب، قرب شجرتين أو ثلاث مهملة ونافورة جافة ورجال شرطة شاحبي الوجوه يلمعون في أوقات عملهم أزرارهم ببصاقهم، ليس أمام هؤلاء النسوة سوى التوجّه إلى الله.

يمرّ عسكري هندي قرب النسوة، وهو يجرجر «الناموسة». لقد قبض عليه في ركن مدرسة الأطفال، العسكري يمسكه من يده، يؤرجحه كقرد، لكنهن لا ينتبهن إلى ما في الوضعية من هزل، لأنهن مهتمات بمراقبة السجّانين، الذين سيبدؤون بين لحظة وأخرى توزيع الغداء ويأتونهن بأخبار السجناء.

قال إن.. يجب ألا تهتمّوا لأمره، وإن حالته تحسنت! قال إن.. إن تجلبوا له بأربعة ريالات دهان الجنود عند فتح الصيدلية! قال إن.. يجب أن تبحثوا عن محام، أن تجدوا متدربًا لأنه يقبض أقل من المحامي! قال إن.. قلت لكم ألّا تكونوا هكذا، ليس معهم نساء، لا يحق لك أن تحسي بالغيرة، وأن في ذلك اليوم جلبوا واحداً من هؤلاء ولكنه سريعًا وجد حذاء على مقاسه! قال إن.. أرسلوا له بريالين مرهم من أجل الالتهاب، لأنه لا يستطيع الذهاب إلى المرحاض! قال إن.. يؤلمه أن تبيعوا الخزانة!

اسمع أنت: قال الناموسة، عندما لاحظ سوء معاملة الشرطي، الأمر لا يعنيك، أليس كذلك؟ بالطبع لأنني فقير! فقير ولكني شريف.. ثم أني لست ابنك، هل تسمعني؟ لست دميتك ولا مخاطك ولا أي شيء يتبعك كي تحملني بهذه الطريقة. لقد انتهى الأمر وأنتجوا الفكرة العبقرية لأخذنا لمأوى المتسولين لنكون في علاقة طيبة مع اليانكي! لقد مللنا! فليذهبوا إلى الجحيم، دائماً الديك الرومي المحشو! هذا إذا عوملت بطريقة حسنة!.. عوضًا عن هذا، في المرة التي زارنا السيد الذي يهتم بالأمور التي لا تخصّه، بقينا ثلاثة أيام دون أكل، متطلعين من حواف الشبابيك نرتدي الأغطية مثل المجانين..

المتسوّلون الذين قبض عليهم وضعوا في واحدة من ثلاث غرف، زنزانة ضيقة ومظلمة، يزحف الناموسة مثل سرطان بحري. تضخّم صوته الذي خنقه صوت السلاسل التي تغلق الأبواب والبذاءات التي يطلقها السجانون، داخل الكهف المقبّب.

آه يا ملهمتي! كل هؤلاء البوليس! عذراء الدائرة الملعونة، كل هؤلاء الأبالسة! يسوع الرائع كن محل ثقتي!..

يتباكى رفاقه كحيوانات موبوءة، تعذبهم الظلمة فيحسّون أنهم لن يستطيعوا أبداً نزعها من أعينهم من شدة الخوف. أنهم هنا حيث عانى الكثيرون من الجوع والعطش حتى الموت، وكانوا مرعوبين من فكرة أن يصنعوا منهم صابونا أسود مثلما يفعلون بالكلاب، أو يذبحونهم لإطعام الشرطة. تتقدم وجوه آكلي لحم البشر مضيئة كمصابيح، خدودهم تبدو كمؤخرات وشواربهم بمحلول الشوكولاتة.

تواجد طالب وخادم كنيسة في نفس الزنزانة.

سيدي، أظنّ أنك جئت قبلي إلى هنا، أنت ثم أنا، أليس كذلك؟ تكلّم الطالب ليقول أي كلام كي يتخلص من كتلة رعب يحس أنها تسدّ حلقه.

أعتقد، أنك على صواب، أجاب خادم الكنيسة وهو يبحث في العتمة عن وجه محدثه.

و.. حسنا.. كنت سأسألك لأي سبب أنت مسجون؟

فلنقل من أجل أسباب سياسية..

أحس الطالب الرّعب يغزوه من رأسه حتى قدميه وبالكاد نطق:

أنا أيضا..

يفتش المتسولون عن كيس المؤونة الذي لا يفارقهم، لكن في مكتب مدير الشرطة سرقوا منهم كل شيء بما في ذلك ما كان في جيوبهم، بحيث لا يدخل أيّ شيء إلى السجن، ولو علبة كبريت. كانت الأوامر واضحة.

ومحاكمتك؟: واصل الطالب.

ولكن لا توجد محاكمة كما قلت. أنا هنا حسب أوامر عليا! قال خادم الكنيسة وهو يحكّ ظهره على الجدار حتى يسحق القمل.

كنت..

لا شيء.. قطع الخادم بعنف، لم أكن شيئا!

في تلك اللحظة صرّت السلاسل وفتح الباب كأنه يتمزق كي يُدخل متسول آخر.

تعيش فرنسا! صاح الأعرج وهو يدخل.

إنني في السجن.. صرّح الخادم.

تعيش فرنسا!

.. من أجل جرم ارتكبته خطأ. تخيّل أني عوض أن أنزع إعلانا يخصّ عذراء «الأم» نزعت من باب الكنيسة حيث أخدم إعلان يوبيل أمّ السيّد الرئيس.

ولكن كيف عرفوا ذلك؟ همس الطالب، بينما يمسح الخادم دموعه بأطراف أصابعه، ساحقا دمعه في عينيه.

الحقيقة.. لا أعلم السرّ.. المؤكد أنهم أوقفوني وجلبوني لمكتب السيد مدير الشرطة الذي أمر، بعد أن ضربني بعنف، بوضعي في هذه الزنزانة سرّا باعتباري ثوريا.

يبكي المتسولون خوفًا، وجوعًا وبردًا، منغمسين في الظلمة. لا يرون حتى أياديهم. يسقطون أحيانا في سبات، فيسري بينهم تنفّس الصماء البكماء الحبلى كمن يبحث عن مخرج.

لا أحد يعلم الساعة، ربما منتصف الليل، أخرجوهم من قبوهم، يجب التحقيق في جريمة سياسية، حسب ما قال لهم رجل قصير وسمين بوجه بلون الزعفران وشوارب مرتبة على شفاه غليظة وأنف أفطس وعينين غائرتين. سألهم جميعاً، ثم واحدًا فواحدًا إن كانوا

يعرفون مرتكب أو مرتكبي جريمة اغتيال عقيد في الجيش عند باب الرحمان.

الغرفة مضاءة بسراج مدخّن، ضوؤه الضعيف يوحي أنه عبر طحالب.. أين الأشياء؟ أين الجدار؟ أين ذلك المشاط الأحدّ من فكّ النمر وذلك الحزام البوليسي المليء بالرصاص؟

إجابة المتسولين غير المنتظرة جعلت رئيس المحكمة الخاصة الذي يستجوبهم يقفز من كرسيّه.

هل ستقولون لي الحقيقة؟ صرخ بعد أن ضرب بعنف الطاولة التي يستعملها كمكتب وهو حسير يفتح عيونًا من رصاص خلف نظاراته.

كرّر الجميع أن المجرم هو الدمية، راوين بأصوات متألمة تفاصيل الجريمة التي وقعت أمام أعينهم.. بعد إشارة من الرئيس، بدأ رجال البوليس المنتظرين أمام الباب بضرب المتسولين ودفعهم نحو قاعة خربة، حيث يتدلى من السقف حبل.

أنه المعتوه! صاح أوّل المعذبين، وهو يحاول التخلص من ألمه بقول الحقيقة، أنه المعتوه يا سيدي! أنه المعتوه! أقسم بالله، أنه المعتوه أقسم! أنه الدمية المعتوه! الدمية! المعتوه! الدمية! أنه هو! أنه هو!

هذا ما نصحوكم بقوله، ولكن لا يمكن أن تنطلي عليّ الأكاذيب: الحقيقة أو الموت.. اعلموا إذا إن كنتم لا تعلمون.. ضاع صوت الرئيس كتدفق الدماء بالنسبة للتعيس المعلق بالحبل من أصابعه دون أن يتمكن من وضع قدميه على الأرض وظل يصرخ:

أنه المعتوه! أنه المعتوه! أقسم أنه المعتوه! أنه المعتوه! أنه المعتوه!

أكاذيب! صاح الرئيس بعد صمت، أكاذيب! كاذب! سأقول لكم

من اغتال العقيد خوزي باراليس سوريانتي، وسأرى إن كنتم تجرؤن على الإنكار، سأقول لكم بنفسي.. أنه الجنرال أوزبي وكاناليس والأستاذ آبال كارفاخال.

أحدثت كلماته صمتًا رهيبًا، ثم أنّات متتابعة، وفي النهاية، نعم.. عندما تُرِكَ الحبل سقط «الأرملة» على ظهره، مغمى عليه، وجنتاه مغطيتان بالعرق والدموع كفحم مبلل بالمطر. أقرّ رفاقه وهم يرتعشون ككلاب تموت في الشوارع بعد أن سممتها الشرطة، بأن كلام السيد رئيس المحكمة صواب، كلهم باستثناء الناموسة. رُسمت على وجهه تكشيرة ألم وامتعاض. كان معلّقا من أصابعه لأنه يؤكد ونصفه مغروس في الأرض كما يبدو كل الذين لا يملكون أرجلا، أن رفاقه يكذبون حين اتهموا رجالا غرباء عن الجريمة التي يعتبر المعتوه هو الوحيد المسؤول عليها.

مسؤول! التقط القاضي الكلمة. كيف تجرؤ على القول أن معتوها يمكن أن يكون مسؤولا؟ أرأيتم الكذب؟ مسؤول، غير مسؤول!

هذا يُسأل عليه هو فقط.

يجب أن يضرب! اقترح شرطي بصوت أنثى، في حين ضربه آخر على وجهه الدامي بذيل ثور.

قل الحقيقة! صاح القاضي، بينما تنهمر الضربات على وجه العجوز. الحقيقة وإلا ستبقى معلقا طيلة الليل.

ألا ترى أني أعمى؟

لتنكر إذا أنه الدمية..

لا. لأني أقول الحقيقة، ولأن لي خصيتين في مؤخرتي.

ضربتان بالسوط أدمتا شفتيه.

أنت أعمى ولكنك تسمع. قل الحقيقة، اشهد كبقية زملائك.

حاضر، وافق الناموسة بصوت منطفئ، اعتقد الرئيس أنه ربح المعركة، حاضر أيها النذل الأحمق، أنه الدمية..

غبيّ!..

ضاعت شتيمة القاضي في آذان نصف رجل لن يسمع شيئًا مطلقًا. عندما حلوا وثاق جثة الناموسة؛ صدره، لأنه بدون رجلين، سقطت عموديا كبندول مكسّر.

العجوز الكاذب! لم تكن شهادته لتصلح لشيء لأنه أعمى! صاح رئيس المحكمة وهو يمرّ قرب الجثة.

وجرى ليعدّ تقريره للسيد الرئيس حول النتائج الأولية للتحقيق، في عربة يجرها حصانان نحيلان، وعوض مصباح الإضاءة يستعمل عيون الموتى. رمى البوليس جسد الناموسة في عربة الفضلات التي تتجه نحو المقبرة. بدأ الديكة بالصياح. المتسولون الذين أطلق سراحهم ظهروا في الطريق. الصماء البكماء تبكي خوفا لأنها تحس طفلا في أحشائها.

(٣)

هروب الدمية

يفرّ الدّمية عبر الطرق الملتوية، الضيّقة، لضواحي المدينة، دون أن يُقلق بصياحه الجامح تنفّس السماء ولا نوم السكان المتساوين في مرآة الموت بقدر اختلافهم في الصراع الذي يخوضونه عندما تشرق الشمس، بعضهم تنقصهم الضروريات لهذا يضطرون للعمل لكسب خبزهم، بينما الآخرون يكتفون بفوائض صناعة الحظوة: أصدقاء السّيد الرئيس يملكون أربعين منزلا، خمسين منزلا، يقرضون بفوائض تبلغ بين تسعة وعشرة بالمائة شهريًا، موظفون يراكمون سبعة أو ثمانية وظائف عمومية، يستغلون الامتيازات، والمنظمات الخيرية، والرتب الوظيفية، منازل للقمار، ملاعب لصراع الديكة، والهنود، ومصانع للخمور، ودور للدعارة، وخمارات وصحفاً مدعّمة.

حُمرة الفجر تلو ن المثلث الذي تكوّنه الجبال حول المدينة، وتنثرها على الأرياف كغلاف من القاذورات. في الطرق التي تبدو كأنفاق حقيقية، يمرّ أوائل العمال متجهين إلى أعمالهم، أشباحًا في عدم هذا العالم الذي يعاد خلقه كل فجر، يتبعهم بعد سويعات موظفو المكاتب، وبائعو المحلات، الحرفيون والتلاميذ، ثم حوالي الحادية عشرة، عندما تكون الشمس عالية، يخرج الرجال المهندمون في جولة غذائية وفاتحة للشهية في نفس الوقت، أو يخرجون للبحث

عن صديق نافذ بغاية مصاحبته لشراء وصولات المرتبات المتأخرة للمعلمين المتضورين جوعًا، بنصف ثمنها. الطرقات تغرق دائماً في ظلمة القبو، والصمت الذي يقطعه حفيف أوراق الذرة، أو تنانير فتيات الشعب اللواتي يتفنّن لإطعام عائلاتهن، جزارات، بائعات مرطبات أو خضروات، وتلك التي تنهض باكرا لتدبر أمورها، ثم عندما يميل الفجر بين الأبيض والوردي مثل زهرة البغونيا نسمع الخطوات المنتظمة للموظفة النحيلة، التي تنظر إليها من أعلى السيدات الجميلات، اللواتي لا يخرجن من بيوتهن إلا عندما تعلو الشمس لكي يتثاءبن في الأروقة ويروين أحلامهن للخادمات، ويمسّحن على القطط ويقرأن الصحف أو ينظرن في المرايا.

يركض الدمية نصفه في الحقيقة ونصفه في الحلم، ملاحقًا من الكلاب ومسامير المطر الرقيق. يجري أينما اتفق، لاهثًا، فمه مفتوح، لسأنه يتدلى ويداه مرفوعتان في الهواء. أبواب ونوافذ وأبواب، وأبواب ونوافذ، تمر على جانبي الطريق.. توقف فجأة ويده على وجهه كي يتقي عمود الهاتف، وعندما يكتشف أن العمود غير مؤذ يضحك بقهقهة ويواصل جريه، كمن يفر من سجن حيث تبتعد جدران الضباب كلما اقترب منها.

في الضواحي حيث تنتهي المدينة، يستلقي، كمن وصل أخيرًا إلى سريره، على المزبلة وينام. بيت عنكبوت هائل يمتد في المزبلة، بين أغصان يابسة تتربص الغربان وطيور الجيف، ودون أن تغفل عن الدمية بعيونها الزرق تحطّ أرضًا حين تراه فاقد الحركة، وتحاصره بقفزات صغيرة، قفزة هنا وقفزة هناك في رقصة جنائزية للطيور الجارحة. تنظر دون توقف في كل النواحي، تتمدّد مستعدة للطيران عند أقل حركة للأوراق أو الفضلات، قفزة هنا وقفزة هناك، ضيّقت الدائرة حتى أصبحت الضحيّة على مرمى مناقيرها. نعيب وحشي

أعطى إشارة الهجوم، وقف الدمية، وبدأ في الدفاع، أقوى الطيور غرس منقاره في الشفة العليا كحربة حتى لامست الأسنان، بينما يتخاصم الآخرون حول العينين والقلب بالمناقير، دون أن يهتموا بأن الطريدة ما زالت على قيد الحياة، وكادوا أن ينجحوا لو لم يرتم الدمية على ظهره وسط المزبلة بين سحابات الغبار والفضلات التي تساقطت كالقشور.

حل المساء. سماء خضراء وريف أخضر. في الثكنات تدق أبواق السادسة، في الزنازين يبدأ سبات السجناء الذين يقتلون بطلقات السنين. تدخل الآفاق رؤوسها الصغيرة في طرقات المدينة كحلزون بألف رأس. يعودون من المقابلات الرئاسية بحظوة أو بنكبة. أنوار البيوت المشبوهة تطعن في الظل.

يناضل الدمية ضد شبح طائر الجيف الذي يحسّه فوقه، وضدّ ألم الساق التي كسرت وهو يسقط، ألم غير محتمل، أسود، ينزع منه الحياة.

طيلة الليل يئنّ بهدوء، وبقوة، بهدوء وبقوّة، مثل كلب مجروح.

.. خر خر خر خر، خرّ، خرّ.. خرّ..

.. خرخر خرخر خر.. خ خ خ ررر..

بين النباتات الغابية التي تحول قاذورات المدينة إلى زهور جميلة، قرب عين ماء عذبة، يحوّل عقل المعتوه العالم الصغير في رأسه إلى عاصفة.

.. خرخر.. خرخرخرخر.. خرخر

أظافر الحمى الفولاذية تجرّح جبينه. انفصال الأفكار. تمطط

العالم في المرايا. تباين خارق في الأحجام، إعصار مجنون. هروب مدوّخ، أفقي عمودي مائل، رضيع وميّت لولبيّا.

.. خرخر. خرخر.. خر.. خ. ر. رخخ..

قوس القوس قوس القوس قوس القوس قوس القوس قوس القوس زوجة لوط (التي اخترعت اليانصيب؟) تتحوّل البغال التي تجر قطارًا إلى زوجة لوط، ثباتهم أقلق السائقين، الذين لم يكتفوا بتكسير سياطهم على ظهورها وضربها بالحجارة، بل دعوا الرجال ليستعملوا أسلحتهم ضدها. الأكثر شرفا يحملون خناجر، وبالطعنات يجعلون البغال تتقدم.

خرخر.. خرخر.. خرّ..

إر. غبيّ.. إر غبيّ..

الشحاذ يشحذ أسنانه ليضحك، شحّاذ الضحك!

أمّاه!

صرخة المخمور تهزّه.

أمّاه!

القمر بين الغمام ينير دون بهجة ويصبح بياضه فوق الأوراق الندية لامعًا كالخزف الصيني.

ها هم يحملون!..

ها هم يحملون!..

ها هم يحملون القديسيين إلى الكنيسة، وسيدفنونهم!

آه! يا للفرح، آه! سيدفنونهم، آه! يا للفرح، آه!

المقبرة أكثر سعادة من المدينة، أكثر نظافة من المدينة! آه! سيدفنونهم!

تارا تارا را! تاراري!

تيت تيت!

تارا را! تارا ري!

دم دم تاكا دوم! دم دم تاكا دوم!

تيت تيت!

دم دم تاكا دوم!

واصل وهو يدفع كل شيء بقفزات كبيرة، وهو يمرّ من بركان لآخر، من نجم لنجم، من سماء لسماء، نصف يقظ ونصف نائم، بين الأفواه الصغيرة والكبيرة، بأسنان وبدون أسنان، بشفاه وبدون شفاه، بشفاه مضاعفة وبألسنة مضاعفة، بثلاثة ألسنة تصرخ به: أماه! أماه! أماه!

توت توت! يركب قطار الحرس ليبتعد سريعا عن المدينة، نحو الجبال التي تصنع سلالم صغيرة نحو البراكين، هناك أبعد من أبراج الإذاعة أبعد من سوق البراغيث، أبعد من برج المدفعية، طيران هوائي بمعجون الجنود.

يعود القطار إلى نقطة انطلاقه كلعبة مشدودة بخيط! وعند وصوله، تراك! تراك! يجد في انتظاره بائعة خضروات خنّاء بشعر أشدّ صلابة من سعف قفّتها لتصيح به: «خبز للمعتوه، ببغاء! ماء للمعتوه! ماء للمعتوه!

يجري مُلاحقا ببائعة الخضروات التي تهدده بسطل ماء، نحو باب الرحمان. لكن عند وصوله.. أماه! صيحة.. قفزة.. رجل.. ليل..

صراع.. موت.. دماء.. هروب.. المعتوه.. «ماء للمعتوه ببغاء! ماء للمعتوه!..»

استفاق ألم ساقه. فأحس في عظامه متاهة. تحزن حدقاته لضوء النهار. نباتات متسلقة نائمة، ملطخة بزهور بديعة، تدعوه للنوم تحت ظلالها، قرب برودة النبع الذي يحرك ذيله، كأن بين الزبد ونباتات السرخس يختبئ سنجاب فضّي.

لا أحد. لا أحد.

ينغمس الدمية من جديد في ليل عينيه، حتى يتمكن من مصارعة الألم، باحثًا عن وضع غير مؤلم لساقه المكسورة، ماسكاً بيده شفته الممزقة. لكنه عندما ترك جفنيه المحمومين، مرّت عليه سماوات ودماء، وخلال البروق تفرّ الديدان التي تحولت إلى فراشات.

ملقى على ظهره بدأ بالهذيان محرّكًا جرسًا. ثلج للمحتضرين! بائع الثلج يبيع الزاد الأخير! الخوري يبيع الثلج للمحتضرين! يمرّ الزاد الأخير! تيك تيك! ثلج للمحتضرين! بائع الثلج! انزع قبعتك أيها الأخرس، الغبي! ثلج للمحتضرين!..

(٤)

وجه الملاك

مغطى بالأوراق، بقطع الجلد، بالخرق، ببقايا المطريات، بحواف مظلات القشّ، بأواني مطبخ قديمة، بقطع من الخزف وعلب الكرتون، بأغلفة الكتب، بالبلور المكسر، بأحذية هرأتها الشمس، بقشور البيض، بنتف من القطن، ببقايا طعام، يواصل الدمية أحلامه. يرى الآن نفسه في ساحة كبيرة، محاطا بالأقنعة. فهم أنها وجوه مهتمة بصراع للديوك. المعركة قصيرة كنار في القش. أحد المتخاصمين مات دون احتضار تحت النظرات الكئيبة للمتفرجين، سعيدًا برؤية السكاكين المعقوفة ملطخة بالدم. جو الخمر، بصاق بلون التبغ، أحشاء، تعب وحشي. خدر. رخاوة. جنوبي استوائي. أحدهم مرّ في حلمه على أطراف أصابعه حتى لا يوقظه..

أمُّ الدمية كانت هنا، عشيقة مربي ديوك يعزف على قيثارة بأظافر من صوّان، ضحية غيرتها وشهواتها. حكاية آلامها لا تنتهي: أنثى لهذا الطالع وشهيدة الطفل الذي ولد، حسب العجائز اللاتي يعرفن كل شيء، تحت التأثير المباشر للقمر الثائر، في غيبوبته اختلط عليها الرأس الضخم لطفلها، بقرنين مثل القمر، وكل وجوه المرضى في المستشفى وانكماش المرض، والتقزز والسعال والغثيان، والقيء المتدفق من مربي الديوك السكران.

التقط الدمية حفيف تنورتها، هواء وأوراقًا، ولحقها باكيًا. هدأ

فوق الثدي الأمومي، أحشاء التي أخرجته إلى الحياة امتصت كورق نشّاف كل آلام جراحه. مأوى عميق وهادئ! حنان مغذّي! زنبقتي الصغيرة الجميلة! زنبقتي الكبيرة الجميلة! مداعبة، مداعبات!

في أعمق أذنه، يدندن مربي الديوك:

كيف ذلك..

كيف ذلك..

كيف ذلك يا معجو.. جون.. جون

لأني ديك بك مفتو.. تون.. تون

لأكسر لك الساق في الصبا.. باح

وفي المساء أقطع لك الجنا.. ناح

يرفع الدمية رأسه ودون أن يقول قال لها:

سامحيني، يا أمي الصغيرة، سامحيني!

والظل الذي يمرّر يده على وجهه ويداعبه يردّ على أنّته:

سامحني، يا بنيّ، سامحني!

ويسمع صوت أبيه، عن بعد، هابطًا مباشرة من كأس الشراب:

ألصقت جسمي

ألصقت جسمي ببيضاء

وحين تكون الزنابق رائقة

نقطف فقط باقة!

حلم الدمية أنه وشوش:

يا أمي الصغيرة، بي ألم في روحي!

والظل الذي يمرّر يده على وجهه مداعبا ردّ على أنّته:

أي بنيّ، بي ألم في روحي!

السعادة ليس لها طعم اللحم. قربهما، ينزل ظل الصنوبرة ليقبّل الأرض الندية كجدول. وفوق الصنوبرة عصفور، وهو في نفس الوقت عصفور وجرس ذهبيّ، يغني:

أنا التفاحة وردة عصفور الجنة، أنا الحياة، نصف جسمي كذب ونصفه حقيقة، أنا زهرة وتفاحة، أعطي للجميع عينًا بلورية وعينا حقيقية، الذين ينظرون بعيني البلورية يرون لأنهم يحلمون، الذين ينظرون بعيني الحقيقية يرون لأنهم ينظرون! أنا الحياة، التفاحة وردة عصفور الجنة، أنا كذبة كل الأشياء الحقيقية، وحقيقة كل الخيالات!

فجأة، يترك الدمية حضن أمه ليتفرّج على المهرجين: أحصنة بألجمة طويلة مثل الصفصاف المستحي، تركبها نساء يرتدين ملابس بلورية. عربات، مزينة بورود ولافتات من ورق حريري، تجري على بلاط الشارع غير المستوي بتمايل المخمور. فرقة موسيقية قذرة، بنافخي أبواق، وعازفي كمنجات وقارعي طبول. المهرجون يوزعون برامج مزينة تعلن عن تقديم سهرة على شرف رئيس الجمهورية، مصلح الوطن، رئيس الحزب اللبرالي الكبير وحامي الشباب المجتهد.

يهيم نظره على امتداد قبة شديدة العلو. تركه المهرجون، تائها فوق صرح شاهق يشرف على هوة سحيقة دون قاع بلون أخضر رمادي. الكراسي الوثيرة تعلّق ستائر كجسور معلّقة. قضاة الأرواح يصعدون وينزلون بين السماء والأرض، مرقاة الأرواح التي يشغلها الملاك ذو الرأس الذهبية والشيطان ذو الألف قرن. تخرج عذراء الكرمل من الكنيسة الصغيرة، كما يعبر الضوء من البلور، وتسأل

الدمية عما يريد وعمّن يسأل، وقف معها، هي صاحبة هذا المكان، عسل الملائكة، حكمة القديسين وحلوى الفقراء، وقف معها سعيدا ليحكي، هذه المرأة العظيمة لا يصل طولها مترا، ولكن حين تتكلم تعطي انطباعا أنها تعرف كل شيء مثل الرجال العظماء. بواسطة الإشارات حكى لها الدمية كم يحب مضغ الشمع، فقالت له، نصف باسمة نصف جدية، أن يأخذ شمعة مضيئة من مذبحها. ثم وهي ترفع طيّات معطفها الفضي الطويل، قادته من يده لحقل مليء بأسماك حمر وأعطته قوس قزح ليمصّه كقصب السكر. السعادة الكاملة. يحس نفسه سعيدا من طرف لسانه إلى طرف قدميه. ما لم يحصل عليه طوال حياته: قطعة شمع ليمضغها، قصب السكر بالنعناع، بيت ماء مليء بالأسماك الحمر، وأمّ لتدلّك قدمه المكسورة وهي تغني «نم، أيتها النغمة الطفل» كل هذا حصل عليه نائما على قاذورات الآخرين.

لكن السعادة تدوم قدر زخّة من المطر في طقس جميل. في طريق ترابي بلون الحليب يمرّ عبر المزبلة، ينزل حطاب يتبعه كلبه، على ظهره حزمة حطب، فوقها سترته، وبين ذراعيه فأسه يحملها كطفل. المستنقع غير عميق لكن الغروب يغرقه في الظلال التي تغطّي بوشاحها الأوساخ المكدسة في العمق، بقايا الحياة الإنسانية التي يحول الليل القادم خوفها اطمئنانًا. التفت الحطاب، وقد أوقفه الإحساس بوجود شخص. نبح الكلب، أوقف شعره كأنه رأى شيطانا. نفخة هواء أطارت الأوراق الوسخة، كأنها ملطّخة بدماء امرأة أو بعصير الشمندر. تبدو السماء شديدة البعد، شديدة الزرقة، مغلقة كقبر عظيم تتوّجه الأشواك التي تتطاير ناعسة. فجأة بدأ الكلب بالركض نحو الجهة التي يوجد فيها الدمية. هزّت قشعريرة رعب جسم الحطاب. اقترب خطوة، خطوة خلف الكلب ليرى من الميّت.

يخشى أن يجرح قدميه بقطع الزجاج الجارح، أو علب السردين الفارغة ويجب أن يقفز فوق الأوساخ وبقع الظلال. تطفو القدور المهملة مثل سفن على بحر الأوساخ.

دون أن يلقي حمله خوفه، هو الحمل الأثقل، سحب من الساق ما كان يظنه جثة، ولكنه كان رجلاً حيّا تكوّن اختلاجاته مشهدًا يضاعف الرعب بصيحاته ونباح الكلاب. مثل الريح الذي يضاعف المطر! خطوات شخص يمشي في غيضة قريبة أوصلت رعب الحطّاب إلى أقصاه.. لو كان شرطيا.. آه، حقا لا ينقصني إلا هذا!.. يكفي! صاح في الكلب، ولكن الكلب واصل نباحه فضربه برجله صائحاً: أغرب عن وجهي أيها الكلب القذر! فكر في مواصلة طريقه لكن هربه سيجعله مذنبًا.. والأسوأ أن يكون القادم شرطيا. وملتفتا نحو المصاب:

أسرع، سأساعدك.. يا إلهي! كان يمكن أن يقتلوك! أسرع، لا تخف، لا تصرخ، لا أريد بك شرا، كنت أمرّ من هنا ورأيتك ممدّدا و..

رأيتك تخرجه من تحت الأنقاض، قال فجأة صوت وراء ظهره، وعدت على أعقابي لأرى إن كان شخصاً أعرفه. فلنخرجه من هنا.

أدار الحطّاب رأسه ليرى المتكلم فكاد يسقط من المفاجأة، كاد يختنق ولو لم يكن يمسك المصاب الذي يقف بصعوبة، لهرب مسرعا. كان الذي يكلمه ملاكا: سحنة من الرخام المذهّب، شعر أشقر، فم صغير ومظهر أنثوي يتناقض مع الأسود الفاحم لعينيه ذات النظرات الرجولية. يرتدي الرمادي. كانت كسوته في ضوء الغروب تبدو كغيمة. يمسك في يده قضيب خيزران رقيق، وقبّعة عريضة تشبه حمامة.

ملاك! لم يحوّل الحطّاب نظره، وظلّ يكرّر، ملاك، ملاك!

يبد ومن ملابسه أنه شيطان فقير، قال القادم الجديد، كم هو محزن أن يكون المرء فقيرا..

مسألة فيها نظر، كل شيء في هذا العالم له وجه سيئ ووجه حسن. أنا مثلا فقير، عملي وكوخي وزوجتي، وأحسّ أني لست سيئ الحظ، قال الحطّاب وكأنه في حلم حتى يستجلب حسنات الملاك الذي قد يحوّله من حطّاب إلى ملِك، ليجازي خضوعه لقدر الربّ. ورأى نفسه للحظة مرتديا الذهب، مغطى بمعطف أحمر، وعلى رأسه تاج مرصّع وبيده صولجان مغلّف بالياقوت. ابتعدت المزبلة كثيرا..

غريب! قال القادم الجديد الذي غطّت صوته أنّات الدمية.

ما الغريب؟.. في نهاية الأمر، نحن الفقراء الأكثر خضوعا للمشيئة، ولكن ما العمل؟.. إن الأشياء التي يعلمونها في المدارس تجعل المتعلمين يفكّرون بأشياء غريبة. حتى زوجتي، تحزن أحيانا لأنها تريد أجنحة ليوم الأحد.

أغمي على المصاب مرتين أو ثلاث. الأشجار تصعد وتنزل في عيني المحتضر، مثل أصابع الراقصين في المسرح الصيني. كلمات الذين يمسكونه تعبر أذنيه ملتوية مثل خطوات المخمورين في حقل زلق. وتغمر وجهه لطخة سوداء كبيرة، وارتعاش مريع يهزّ جسمه مثل رماد الصور المحترقة.

إذن فزوجتك تريد أجنحة ليوم الأحد: قال التجلّي، أن تكون لها أجنحة! وحين تملكها لن تصنع بها شيئا؟!.

هكذا! تقول أنها تريدها لتتجول، وحين تغضب مني تطلبها من الرياح. مسح الحطاب عرقه بكمّه وصاح: رغم أنها ثقيلة!

لهذا فإن قدميها كافية جداً، حتى وإن كان لها أجنحة فأنها لن تستعملها للهروب.

بالطبع، وليس لطيبتها، ولكن لأن المرأة عصفور لا يمكنه العيش دون قفص، ولأني لا أملك ما يكفي من العصيّ لأكسرها على ظهرها، ولما تذكّر أنه يتحدث لملاك أسرع ليلمّع الكذبة، أضربها بعصا رقيقة، ألا تعتقد أن هذا مفيد؟ ولما لاحظ صمت الغريب واصل كي يغيّر الموضوع، من يمكنه ضرب هذا الرجل المسكين؟

ليس هذا ما ينقص..

هذا صحيح، هناك أناس قادرون على فعل كل شيء.. بالنسبة لهذه المسألة سهلة، طعنة سكّين في الوجه وإلى المزبلة مباشرة.

مؤكّد توجد إصابات أخرى.

في رأيي أن الإصابة في شفته كانت بواسطة شفرة حلاقة، وألقي هنا كي يخفوا الجريمة.

ولكن بين السماء والأرض..

هذا ما كنت سأقول.

الأشجار مغطاة بطيور الجيف المستعدة للخروج من الدغل، والخوف الأقوى من الألم هو الذي يسكت الدمية، بين الفظ والمنقذ آثر صمت الأموات.

الهواء يجري في السهل خفيفا، يهبّ من المدينة نحو الريف لطيفا مألوفا. نظر التجلّي إلى ساعته ومضى بعد أن وضع بعض القطع النقدية في جيب المصاب وودع الحطّاب بلطف.

دون أي غيمة، تلمع السماء بروعة. تتقدم ضواحي المدينة حتى

الريف بأضواء كهربائية تنير كأعواد كبريت فوق مسرح مظلم. الأضواء المتموجة ظهرت من العتمة مع المساكن الأولى: أكواخ الطين برائحة القشّ، بيوت حقيرة برائحة الهنود، بيوت كبيرة بإسطبلات رديئة برائحة البقر. فنادق تبيع العلف..

ترك الحطاب المصاب عند أول المنازل، بعد أن أرشده لطريق المستشفى. فتح الدمية جفونه بحثا عن أيّة راحة، عن أي شيء ينزع الرعشة، ولكن نظره المحتضر وقع على الأبواب المغلقة والطريق المقفر..

على البعد تسمع الأبواق، خضوع الشعب الهائم على وجهه، والنواقيس التي تقول للمؤمنين الميتين، بعد ثلاث قرعات: الرحمة! الرحمة! الرحمة!

أرعبه طائر الجيف الذي خرج من الظلام، الأنة الرهيبة للطائر ذي الجناح المكسور، بدت له كتهديد. ابتعد شيئاً فشيئا عن هناك، مستندا على الجدران، على الارتعاش الثّابت للجدران، أنّة بعد أنّة، دون أن يدري أين يتجه، والريح تنفخ في وجهه، الريح التي تمضغ الثلج لتنفخه ليلا.. عادت الرعشة لتسكن جسمه من جديد..

(٥)

الأبله الآخر

سكرتير الرئيس يستمع إلى الدكتور برّينو.

كنت أقول، سيدي السكرتير، إني منذ عشر سنوات أذهب لثكنة باعتباري جرّاحا عسكرياً. كنت أقول إني كنت ضحية ظلم كبير، إني أُوقفت، إيقافا أدين به لـ.. سأقول لك: في المستشفى العسكري، ورد علينا مرض غريب، كل يوم يموت عشرة أو اثنا عشر جنديا صباحًا، عشرة أو اثنا عشر جنديا مساء ومثلهم ليلا. كلفني مدير الصحة العمومية والعديد من الزملاء بدراسة الحالة والبحث عن الأسباب التي تميت أشخاصا دخلوا قبل ليلة واحدة إلى المستشفى في صحة جيدة تقريبا. سأقول لك أني بعد تشريح خمس حالات استنتجت أنّ المساكين ماتوا نتيجة ثقب في المعدة في حجم قطعة نقدية كبيرة، ناتج عن سمّ لم أكن أعرفه وهو حامض الصوديوم الذي يتناولونه كمسهل، حامض الصوديوم اشتري من معمل المشروبات الغازية، وبالتالي من نوعية سيئة. زملائي لم يقوموا بنفس التشخيص، وأظن أنه لم يقع إيقافهم لهذا السبب، حسب رأيهم هذا مرض جديد جدير بدراسات معمّقة. قلت إن ١٤٢ جنديا ماتوا وبقي برميلان من الحامض. قلت إن مدير الصحّة العمومية كي يسرق بعض البيزوس ضحّى بمائة وأربعين رجلاً وبمن سيلحق بهم.. قلت..

دكتور لويس برينو! صاح ضابط ملحق بالمسكن العسكري للرئيس.

.. سأقول لك، سيدي، ما سيقول لي؟

مشى السكرتير خطوات رفقة الدكتور، الذي يشدّ الانتباه بسمته الإنسانية وحديثه الفوضوي المتقطّع، الرتيب، رمادي، متّسق مع شعره الأشيب ووجع العالم الشبيه بشريحة لحم مجفّفة.

استقبل رئيس الجمهورية الدكتور واقفا، رأسه شامخة، وبيد متدلية طبيعيا وأخرى وراء ظهره، ودون أن يترك له الوقت ليلقي التحية، صاح:

كنت أقول لك، دون لويس، أني لست مستعدا للسماح بأن تسيء ثرثرة متطبّب ـ ولو قليلا ـ لسمعة حكومتي. أعدائي يعرفون ذلك جيّدا وهم يحرصون على تجنّب ذلك لأني في أول مناسبة سأطيّر رؤوسهم! انسحب! اخرج! وناد الأبله الآخر!

خرج الدكتور متقهقرا، وقبعته بيده، وتجاعيد مأساوية على جبهته، شاحبًا كما سيكون يوم دفنه.

انتهيت! سيدي السكرتير لقد انتهيت!.. كل ما سمعته هو: انسحب، اخرج، ناد الأبله الآخر!..

أنا «الأبله الآخر»!

من طاولة في الركن قال أحد الكتبة هذه الكلمات، ثم نهض ودخل المكتب الرئاسي من الباب الذي خرج منه الدكتور برينو.

اعتقدت أنه سيضربني.. لو رأيت.. لو رأيت.. همس الدكتور وهو يمسح العرق الذي يسيل على وجهه، لو رأيت! ولكني أعطّلك سيدي السكرتير، وأنت مشغول جدّا. سأذهب. هل تسمعني؟ وشكرا جزيلا..

إلى اللقاء، عزيزي الدكتور، لا شكر على واجب، وحظا سعيدا.
أكمل السكرتير البريد الذي سيوقّعه السيد الرئيس بعد حين.

تشرب المدينة عصير برتقال الغروب، مرتديا سحابات رقيقة وعلى رأسها نجوم كملاك المذبح. وأجراس لامعة ترمي على الطريق طوافات السلام الملائكي المنقذة.

يعود برّينو إلى بيته منهكًا، من منا في مأمن من طعنة خنجر في الظهر؟ يقفل الباب ناظرا للسقف حيث يمكن أن تختبئ يد غادرة لخنقه، واختبأ في غرفته خلف خزانة.

الملابس معلقة بجدية رسمية مثل مشنوقين محفوظين بالنفتالين تحت صليب موتهم. تذكّر اغتيال أبيه الذي حدث ليلا، في طريق فرعي، منذ زمن بعيد. اضطرّت العائلة للاكتفاء بتحقيق عدلي دون نتيجة، النكتة التي توّجت الفضيحة هي الرسالة من مجهول كتب فيها تقريبا ما يلي:

«كنا عائدين، أنا وعديلي، من الطريق الرابطة بين *فولتا غراندي* و*لاكانويا* عند الحادية عشر ليلا، عندما سمعنا انفجارا عن بعد، ثم آخر، فآخر، ثم واحداً آخر.. استطعنا عدّ خمسة انفجارات. التجأنا إلى غابة صغيرة قريبة وسمعنا ركض خيول تتجه نحونا. رجال وخيول مرّوا بقربنا وكادوا أن يلمسونا أحيانا. واصلنا طريقنا بعد أن هدأ كل شيء. لكن خيولنا نفرت بعد حين، وحرنت وهي تصهل، نزلنا وتقدمنا وسلاحنا بأيدينا لنرى ما يجري. وجدنا جثة رجل وجهه في التراب، وعلى مقربة منه بغلة جريحة أراحها عديلي بطلقة. عدنا دون تردّد إلى *فولتا غراندي* لنعلم السلطة. في مركز الشرطة العسكرية وجدنا العقيد خوزي باراليس، الرجل ذو البغلة الصغيرة، جالسا مع مجموعة من الأصدقاء، حول طاولة مليئة بالكؤوس، ناديناه بعيداً

ورويْنا له كل ما رأيناه. أولاً الطلقات ثم... عند سماعنا هزّ كتفيه ونظر إلى الشمعة المدخّنة وأجاب هادئا:

عودا مباشرة إلى المنزل، أعرف ما أقول، ولا تتحدثا أبداً بهذا..

لويس!.. لويس!..

سقط في الخزانة معطف ثقيل كطائر جارح.

لويس!

قفز برّينو وبدأ في تقليب كتاب قرب مكتبته. كانت زوجته سترعب إذا وجدته مختبئا خلف الخزانة!

لست مضحكا! هل تعلم ذلك!؟ ستقتل نفسك من كثرة القراءة، أو ستجنّ. تذكّر أني كثيراً ما حذرتك! لا تريد أن تفهم أن الثرثرة أهم من العلم كي تنجح في هذه الحياة. فيما أفادتك الدراسة والمعرفة؟ ماذا أفادتك؟ لاشيء! لا يمكنها أن توفّر لك حتى زوجًا حقيرا من الجوارب، لا شيء! هذه هي الحقيقة! هذه هي الحقيقة!..

الضوء وصوت زوجته أرجعا له الطمأنينة.

هذه هي الحقيقة! الدراسة.. ولكن لماذا؟ لكي يقال بعد موتك كما يقال للجميع إنك كنت عالما.. ها ها! دع رجال المخابر يدرسون.. ولكن أنت ليس ضروريا أن تدرس، لديك دبلومك، لهذا يصلح أن تعرف دون دراسة.. ولا تعاندني! عوض مكتبة يجب أن يكون لديك حرفاء، لو كان لديك عوض كل كتاب لا يصلح لشيء مريض، لكناً في صحة جيدة في هذا المنزل. أريد أن أرى العيادة ملآنة، أن أسمع الهاتف دائم الرنين، أن تدعى للكشف على المرضى، أن تتمكن من أن تصبح شيئا.

تريدينني أن أكون...

أن تكون شيئاً حقيقيا.. ولا تقل أنك لتحقيق ذلك عليك أن تفقد

أهدابك فوق الكتب كما تفعل. الأطباء الآخرون يتمنون أن يعرفوا نصف ما تعرف. يكفي أن تكون لك علاقات بأشخاص لديهم وزنهم.. طبيب السيد الرئيس هنا، طبيب السيد الرئيس هناك، هذا إذا ما صرت شيئا.

إذن، أطال برينو الكلمة لديه ثقب في ذاكرته إذن يا بنيّتي، لقد خابت كل أمالك، ستسقطين على قفاك لو قلت لك إني قابلت الرئيس. نعم، الرئيس.

آه! اللعنة! ماذا قال لك؟ كيف استقبلك؟

بسوء! تفجير الرأس! هذا كل ما سمعته يقول. لقد خفت، والأسوأ أني لم أعد أعرف الباب لأخرج.

توبيخ؟ لن تكون أول ولا آخر من يمسكه، بعضهم يضربهم!.. وواصلت بعد صمت طويل، الخوف هو دائماً من يجعلك تخسر..

ولكن أيتها العجوز، أرني شخصاً يكون شجاعا أمام وحش.

لا يا زوجي، أنا لا أتحدث عن هذا، أنا أتحدث عن الجراحة، لأنك لم تستطع أن تصبح طبيب الرئيس. المهم بالنسبة للجرّاح هو الشجاعة. صدقني الشجاعة وأخذ القرار لغرس المشرط. الخياطة التي لا تفسد قماشا لا يمكنها أبداً أن تفصّل فستانا جميلا. الأطباء يمكنهم التدرّب على الهنود الحمر في المستشفى. وبالنسبة لما حدث مع الرئيس، لا تغتم، تعال لنأكل! المسكين، مؤكد أنه في حالة سيئة، بعد الجريمة البشعة بباب الرحمان.

اسمعي، اخرسي! سأفعل ما لم أفعله أبداً، سأصفعك! إنها ليست جريمة، وهي ليست بشعة لأنها أراحت الناس من ذلك السفاح الذي اغتال أبي العجوز دون قوة في طريق مهجورة.

حسب رسالة من مجهول! كأنك لست رجلاً، من يهتم بالرسائل مجهولة المصدر؟

إن كنت أهتم بالرسائل المجهولة...

سيقال أنك لست رجلا..

دعيني أتكلم! لو كنت أهتم بالرسائل مجهولة المصدر، لما كنت هنا في منزلي.. فتّش برّينو جيوبه بيد مرتعشة وبوجه دون تعبير، لما كنت هنا في منزلي، خذي، اقرئي..

أخذت الورقة، شاحبة دون لون سوى القرمز الاصطناعي الذي صبغت به شفتيها وفي ثانية قرأت:

«دكتور، فرّحنا، بمواساة زوجتك، الآن بعد أن انتقل الرجل ذو البغلة الصغيرة إلى عالم أفضل. نصيحة من أصدقاء وصديقات يريدون لك الخير».

أعادت الورقة لزوجها بقهقهة أليمة، شظايا ضحكة مثل ضحكات المخابر.. جاءت خادمة عند الباب لتعلن:

العشاء جاهز..

في القصر يمضي الرئيس على البريد، يعينه الشيخ القصير، الذي دخل عند خروج الدكتور برّينو، عندما سمع النداء على الأبله الآخر.

الأبله الآخر رجل سيئ الهندام، ببشرة وردية كجلد فأر صغير، وبشعر أصفر رديء، وعينين زرقاوين مكدرتين، ضائعتين وراء نظّارات صفر.

الرئيس يضع إمضاءه الأخير والعجوز القصير يسرع بالختم حتى أراق الحبر على الورقة الأخيرة التي أمضاها الرئيس.

أبله!

سيّـ.. ـدي!

أبله!

ختم.. آخر.. آخر.. خطوات وضابط يظهر بالباب:

جنرال، فليضرب، هذا الغبيّ، فورا، مائتي عصا، انتهى! صاح الرئيس وانسحب فورا إلى القصر الرئاسي. العشاء جاهز.

عينا *الأبله الآخر* تمتلئ بالدموع. لم يقل كلمة لأنه لا يستطيع ولأنه يعلم أن لا فائدة من طلب الصفح. السيد الرئيس يكاد يجنّ غضبًا منذ اغتيال باراليس سوريانتي. تجسّدت في عينيه، كي يوحي بالمسكنة، صورة زوجته وأطفاله: عجوز فانية وثمانية أطفال هزيلين. بيده التي تيبّست يبحث في جيوبه عن منديل ويبكي بحرقة. لأنه لا يستطيع الصراخ لينفس عن نفسه، معتقدا أنّ هذه العقوبة عادلة وأنه يستحق الضرب، لكي يتعلم أن يكون أكثر مهارة، لا يستطيع الصراخ لينفّس عن نفسه، أن يقوم بالأمور بأكثر دقّة، أن لا يلطّخ الورقة بالحبر، لأنه لا يستطيع الصراخ لينفس عن نفسه..

بين شفتيه المطبقتين تدقّ أسنانه كمشط كبير، وتساهم مع وجنتيه المحفورتين ورعبه في إعطائه هيئة محكوم عليه بالإعدام. العرق في ظهره يلصق قميصه على جلده ويملؤه بخجل غريب. لم يعرق هكذا قطّ!.. لا يستطيع الصراخ لينفّس عن نفسه.. غثيان الخوف جعله يرتعش.

يسحبه المعاون من يده مثل أبله، غارق في خدر جنائزي، عيناه

ثابتتان، وفي أذنيه إحساس رهيب بالفراغ، الجلد ثقيل جداً جدّا، يحس انكسارا على المستوى الكلي، وضعف شديد.. شديد..

بعد دقائق في صالة الأكل:

هل تسمح سيدي الرئيس؟

ادخل جنرال.

سيدي، جئت لأعلمك أنّ الأبله الآخر لم يتحمّل المائتي ضربة.

بدأت الخادمة التي تمسك طبق البطاطا المقلية الذي يتناول منه الرئيس الآن بالارتعاش.

وأنت، لماذا ترتعشين؟ غمغم سيدها، وملتفتا نحو الجنرال الذي يقف في استعداد وقبعته بيده دون أن تطرف عينه، «حسنا، انصرف»!

دون أن تترك الطبق ركضت الخادمة لتلحق بالجنرال، لتسأله لماذا الآخر لم يحتمل المائتي ضربة.

كيف، لماذا؟ لأنه مات!

عادت لصالة الأكل والطبق ما زال في يدها:

سيدي، قالت وهي تكاد تبكي للرئيس الذي يأكل بهدوء، قال إنه لم يستطع التحمل لأنه مات!

وماذا في ذلك؟ أحضري بقية الأكل.

(٦)

رأس جنرال

دخل ميجال وجه الملاك ـ الرجل الثقة لدى الرئيس ـ وبيده الأجاص والجبن.

ألف معذرة، سيدي الرئيس، لأني وصلت متأخرا، قال وهو يعبر صالة الأكل. ـ كان جميلا وشرّيرا مثل شيطان. ـ ألف معذرة، سيدي الرئيس، لكن اضطررت لتقديم يد المساعدة إلى حطاب وجدته مصابا في مزبلة، ولم أستطع الحضور قبل الآن! اعلم، سيدي الرئيس أنه ليس شخصاً أعرفه لكنه مجرّد مجهول بائس.

يرتدي الرئيس، كعادته، ملابس الحداد، حذاء أسود، كسوة سوداء، ربطة عنق سوداء، قبعة سوداء لا ينزعها أبداً. بين شواربه الرمادية التي تصل إلى شفتيه يخفي لثة درداء، وجنتاه رخوتان وجفونه شبه مغمضة

وهل أوصلته إلى المكان الصحيح؟ سأل وهو يرفع حاجبه.

سيدي..

ماذا تريد أن تقول؟ شخص يتفاخر بكونه صديقا لرئيس الجمهورية لا يترك على قارعة الطريق مسكينا جريحا، ضحية يد مجهولة! والتفت عندما أحس حركة خفيفة عند باب الغرفة، وقال: «ادخل، جنرال».

بعد إذنك، سيدي الرئيس.

كل شيء جاهز، جنرال.

نعم سيدي الرئيس.

اذهب بنفسك، جنرال، قدّم للأرملة تعازيّ، وأوصل لها هذه الثلاث مائة بيزوس باسم رئيس الجمهورية حتى تساعدها في مصاريف الدفن.

الجنرال الذي ظل واقفا في استعداد تام دون أن تطرف عينه، تقريبا دون أن يتنفس، انحنى وأخذ النقود من على الطاولة، واستدار على عقبيه، وبعد بضع دقائق ذهب بسيارة مع نعش يحوي جسد *الأبله الآخر*.

أسرع وجه الملاك ليفسّر:

فكّرت أولاً في اصطحاب المصاب إلى المستشفى، ولكني قلت إن أمرا من السيد الرئيس سيجعلهم يعتنون به أكثر، وبما أني مضطر للحضور هنا حسب دعوتكم.. وأتمسّك بأن أعبّر لكم مرّة أخرى عن تألمي من الطريقة الغادرة التي وقع بها اغتيال صديقنا باراليس سوريانتي..

سأعطي الأمر..

لا ننتظر شيئاً آخر ممن يقال إن عليه ألّا يحكم هذا البلد..

من يقول هذا الكلام؟ صاح الرئيس وهو يكاد يقفز من مكأنه.

أنا أول من يقول ذلك، سيدي الرئيس، أنا من الذين يعتقدون أن رجلاً مثلك يجب أن يحكم بلدانا مثل فرنسا، سويسرا الحرة، بلجيكا الصناعية، أو الدانمرك الرائعة! ولكن فرنسا.. فرنسا خاصة،

ستكون الرجل المثالي الذي يقود مصير شعب عظيم، شعب قامباطا وفيكتور هوغو!

رسمت ابتسامة بالكاد ترى على شفاه الرئيس، الذي يمسح نظّاراته بمنديل من الحرير الأبيض دون أن يحوّل عينيه عن وجه الملاك.. بعد صمت قصير حوَّل الحديث إلى موضوع آخر:

لقد، طلبتك اليوم من أجل مسألة يهمّني أن تسوّى هذه الليلة بالذات. السلطات المختصّة أصدرت أمرا بإيقاف النذل أوزبيو كاناليس، الجنرال الذي تعرفه، وسيقبض عليه غدا، في منزله، منذ الساعات الأولى. لأسباب خاصة، ورغم أنه من الأشخاص الذين ساهموا في اغتيال باراليس سوريانتي، الحكومة لا ترى مصلحة في ذهابه إلى السجن، وأحتاج أن يهرب الآن. اذهب لملاقاته، ارو له ما تعلم وانصحه، كأن الفكرة لك، أن يفرّ هذه الليلة. عليك أن تدفعه لذلك لأنه يؤمن، ككل عسكري قديم، بالشرف، سيحاول المراوغة، وإذا أوقفوه غدا سأقطع رأسه. يجب ألّا يشكّ بأني من أرسلك.. احذر من أن يعلم البوليس أنك ستذهب إليه يجب ألّا تثير الشكوك وأن يهرب هذا النذل. يمكنك الانصراف.

خرج المحظيّ ونصف وجهه مغطّى بشال أسود ـ كان جميلا وشريرًا مثل إبليس ـ حيّاه الضباط الذين يحرسون صالة الأكل عسكرياً. أحسّوا، أو ربما سمعوا، أن مصير جنرال متعلّق به. ستّون يائسا يتثاءبون في قاعة الاجتماعات ينتظرون أن يتفرغ لهم السيد الرئيس. الشوارع القريبة من القصر ومن مقرّ الإقامة الرئاسية مزدانة بالورد، وبأمر من آمر السلاح تزيّن مجموعة من الجنود واجهات الثكنات القريبة بالمصابيح، وبأعلام صغيرة وشرائط من الورق الملون بالأزرق والأبيض.

لا يحفل وجه الملاك بتحضيرات الاحتفال. عليه أن يقابل الجنرال، وأن يضع خطّة لتسهيل فراره. كل شيء بدا له سهلا، إلى أن نبحت عليه الكلاب في الغابة الرهيبة التي تفصل السيد الرئيس عن أعدائه، غابة أشجارها بآذان يكفي أقل ضجيج حتى تلتوي كأن إعصارًا يهزّها. أقل حفيف على بعد أميال من محيطها، لا يمكن أن يفلت من ملايين الغضاريف. تواصل الكلاب نباحها، شبكة من الخيوط الرقيقة، أرقّ من أسلاك التلغراف تصل كل ورقة بالسيد الرئيس، المنتبه لما يحدث في أكثر الأعضاء الباطنية سرّية لسكان المدينة.

لو كان من الممكن عقد صفقة مع الشيطان، أن يبيعه روحه بشرط أن تغفل أعين الحراسة للسماح بهروب الجنرال! لكن الشيطان لا يقوم بالأعمال الخيرية، بالإضافة إلى عدم تأكدنا أين ستقف هذه الحالات الخاصة.. رأس الجنرال، وشيء آخر.. يقول هذه الكلمات كأنه يمسك بالفعل رأس الجنرال بين يديه، وشيئا آخر..

وصل إلى منزل كاناليس، الواقع في حي *الشكر*. منزل كبير في زاوية الشارع، بُني منذ حوالي مائة سنة، مع نبالة الميداليات العتيقة على شرفاته الثمانية التي تطل على الشارع الرئيسي. الباب الجانبي الذي يفتح على الشارع الآخر. فكر المحظيّ أولاً بالوقوف أمامه، لأنه يسمع أصواتا داخله، وأن يطرق ليُسمح له بالدخول، لكن وجود دورية المراقبة على الجانب الآخر من الطريق، جعلته يتخلى عن الفكرة. حث الخطى ناظرا إلى النوافذ علّه يرى شخصاً يمكنه أن يشير إليه. لم ير أي شخص. لا يمكنك الوقوف على الرصيف دون أن تلاحظ. لكن في زاوية الطريق مباشرة أمام المنزل توجد حانة صغيرة يمكن البقاء فيها دون أن يلاحظك أحد، الأفضل الدخول

وشرب أي شيء. زجاجة بيرة. تبادل بعض الكلمات مع المرأة التي تعمل هناك، ثمّ أدار رأسه وكأسه في يده، ليرى من يجلس قرب الحائط، لمح وهو يدخل شخصاً في الزاوية يرتدي قبعة كبيرة تصل حتى عينيه، ومنديلا حول رقبته، وسروالا فضفاضا وحذاء طويلا بكعب عال.

شاردا، يرفع المحظيّ نظره نحو الزجاجات المصفّفة على رفوف المحلّ، حرف «س» المضاء بمصباح كهربائي للإعلان عن خمر إسبانية: باخوس يركب دنّا محاطًا بالرهبان السمان ونساء عاريات، وصورة للسيد الرئيس، وقد عاد إليه شبابه، مع سكك حديدية على أكتافه، وملاك صغير يضع على رأسه إكليلا من الغار. صورة تنمّ على ذوق عال! من حين لآخر يلقي نظرة على منزل الجنرال. سيكون مقلقا أن تكون صاحبة الحانة ورجل الزاوية عاشقين، وهو يعكر صفوهما بجلوسه. فكّ أزار سترته وهو يضع ساقا فوق أخرى، مستندا على البار كمن لا ينتظر شيئا. ماذا لو يطلب بيرة أخرى؟ طلبها، ولكي يكسب وقتا، دفع بورقة ذات مائة بيزوس. ربما لا تملك عملة لترجع له الباقي. فتحت الدرج بعنف وفتّشت بين الأوراق الوسخة ثمّ أغلقت الدرج. لا تملك عملة. دائماً نفس الحكاية! أضطرّ للخروج والبحث عن العملة! رمت فوطتها على زندها العاري وخرجت بعد أن نظرت إلى رجل الزاوية ليراقب الزبون. سأنتبه، هذا مؤكّد، احتياط غير ضروري، لأنه في نفس اللحظة خرجت آنسة من منزل الجنرال كأنها نزلت من السماء، ووجه الملاك لا ينتظر أكثر.

ـ آنسة، قال وهو يمشي بجانبها، أعلمي صاحب هذه الدار أن لديّ أمرا هاما جداً لأخبره به.

أبي؟

أنت ابنة الجنرال كناليس؟

نعم، سيدي..

إذن.. لا تتوقّفي.. لا، لا، تابعي، فلنتابع، فلنتابع طريقنا.. هذه بطاقتي، قولي له ـ رجاء ـ إني أنتظره في منزلي في أقرب وقت ممكن، إني عائد الآن، إن حياته في خطر، نعم، نعم في منزلي..

اضطرّ للعودة إلى الوراء ليلتقط قبعته التي طيّرتها الرياح، تركها تفلت مرّتين أو ثلاث. في النهاية أمسكها، مثل من يطارد دجاجة في القنّ.

عاد إلى الحانة بحجّة استرجاع نقوده، ليرى ما أثاره خروجه المفاجئ عند رجل الزاوية. وجده يصارع صاحبة البار التي حشرها في الجدار، وشفتيه تبحث، يائسة، عن الشفتين الأخريين لتطبع قبلة.

أيها الشرطي التعس، تستحق فعلا اسم (باسكاس) غثيان! قالت السيدة بعد أن تركها رجل الزاوية عند سماعه خطوات وجه الملاك.

تدخل وجه الملاك بالحسنى ليجمّل صورته، أخذ القارورة التي أمسكتها صاحبة البار ونظر إلى الرجل نظرات مجاملة.

اهدأ، اهدئي، سيدتي، غريب! احتفظي بالباقي وتصالحا! لن تربحا شيئاً بإحداث فضيحة، وقد تأتي الشرطة، بالإضافة إلى أن الصديق..

لوشيو فاسكاز، لخدمتكم.

شكرا..

لوشيو فاسكاز؟ سوشيو (قذارة) باسكاس، نعم! الشرطة! تدخل القذارة كل لحظة، مع الشرطة. فليحاولوا! فليحاولوا الدخول هنا!

لا أخشى أحدا، لست من الهنود الحمر حتى يخيفني أحد بالبيت الجديد!

يمكنني أن أضعك في دار للدعارة، لو شئت، همس فاسكاز وهو يبصق.

ستهرّبني! حاول!

يكفي من فضلكما، تصالحا!

أنا لن أتكلم سيدي!

كان صوت فاسكاز كريها، يتكلم كامرأة، بصوت رقيق وحادّ ونشاز. مغرم بصاحبة الحانة، وهو يلاحقها ليلا نهارا لتمنحه قبلة بمحض إرادتها، لا يطلب أي شيء أكثر. لكنها لم تقتنع، مصرّحة أن من تعطي بيضة تعطي ثورا. تصطدم التوسلات والتهديدات والهدايا الصغيرة، والبكاء الحقيقي والمصطنع، والغناء الليلي تحت النافذة، والكذب.. كلها تصطدم بالرفض المطلق، فهي لم تسلّم قط، ولم يستطع أحد أن يغشّها. «على من يحبني أن يعلم أن الحب عندي صراع يومي، صراع بالذراع، والجسد».

الآن وقد تصالحتما، قال وجه الملاك وكأنه يكلم نفسه، وهو يدعك بإبهامه قطعة معدنية ترصّع البار، سأروي لكم حكايتي مع آنسة المنزل المقابل.

وأراد أن يروي أن صديقا كلّفه بأن يسألها إن كانت تلقّت رسالة، عندما قاطعته صاحبة البار:

أيها المحظوظ! لقد شاهدناك وأنت تغازلها!

ألهمته صاحبة البار.. يغازلها.. يقول إن عائلتها تعارض، يصطنع اختطافا.. مازال يدعك القطعة المعدنية، ولكن بسرعة أكثر الآن.

نعم، قال وجه الملاك، ولكن ما يقلقني هو أن أباها يرفض أن نتزوّج..

لا تحدثني عن هذا العجوز! تدخّل فاسكاز، عليك أن ترى وجه الدّائن الشرير الذي يقابلنا به، كأنّنا من أصدرنا أمر مراقبته أينما يذهب.

هكذا هم الأغنياء! قالت صاحبة البار، بصوت عدواني.

لهذا، فكرت، قال وجه الملاك، أن أختطف الفتاة. وهي موافقة. اتفقنا وسننفّذ هذه الليلة.

ابتسم فاسكاز وصاحبة البار.

اشرب كأسا، بصحبتنا! قال فاسكاز، أصبح الأمر جدّيا، ثم استدار ليقدم سيجارة لوجه الملاك، تدخّن سيدي؟

لا شكرا.. هاتها، كي لا أردّها عليك..

صبّت صاحبة البار ثلاثة كؤوس صغيرة، بينما يشعلان السجائر. وعندما كفّت الكحول عن حرق حنجرته قال وجه الملاك:

بالطبع، أنا معتمد عليكما! مهما تكن النتيجة، ولكن عليكما مساعدتي. ولكن بشرط أن تتمّ العملية الليلة!

ابتداء من الحادية عشر أنا أبدأ العمل، لاحظ فاسكاز، أمّا هذه..

هذه!.. ألم تتعلّم أن تكون مهذّبا!

هي، أقصد الأفعى، ونظر من جديد لصاحبة البار، أنها بقدرة اثنين.. إلا إذا أردت أن أرسل لك مساعدة: لديّ صديق أعتمد عليه في كل الحالات!

أيجب أن تحضر دائماً جينار ورودس، قارورة شراب اللوز!

ماذا تقصدين بقارورة شراب اللوز؟ سأل وجه الملاك.

أردت القول أنه يبدو كميّت من كثرة شبو.. ها أني بدأت أخلط الكلمات.. شـ.. حـوبه.. نعم!..

إذن؟

ليس هناك أي مانع.

لكن، أعتقد أن هناك مانعًا، وأعتذر عن قطع حديثك، زوجة جينار ورودس، واسمها فدينا، تتحدث في كل مكان أن ابنة الجنرال ستكون إشبينة ابنها، ولهذا فإن صديقك لا ينفع فيما ينوي السيد القيام به لأنه غير حائض!

لسانك!..

تريدني دائمة الصمت...

شكر وجه الملاك فاسكاز بلطف، مفهما إياه أن لا فائدة من الاعتماد على قارورة شراب اللوز لأنه غير محايد.

خسارة، صديقي فاسكاز، ألّا تستطيع مساعدتي في هذه الظروف..

أنا أيضاً، آسف لأني لا أستطيع مصاحبتكم. لو كنت أعلم مسبقا لطلبت رخصة.

لو نستطيع تدبير الأمر بالنقود..

لا. لست من ذلك النوع. لا، لا يمكننا حقا فعل أي شيء! ورفع يده يائسا.

لا يهم، مادام الأمر مستحيلا، سأعود قبل الفجر، حوالي الثانية إلّا ربع، أو الواحدة والنصف، لأن في الحبّ يجب أن تطرق الحديد وهو ساخن.

استأذن في الخروج عند الباب، ورفع ساعته اليدوية إلى أذنيه ليتأكّد أنها تعمل، أي رعشات قدريّة هذه الخفقات الموقوته! وأسرع مبتعدا ووجهه مخفي بشاله الأسود. أنه يمسك بين يديه رأس جنرال وشيئاً آخر اضافياً.

(٧)

غفران أسقفيّ

وقف جينار ورودس بجانب الجدار ليشعل سيجارة. ظهر لوشيو فاسكاز عندما كان الآخر يقدح عود الكبريت على العلبة، بينما كلب يتقيّأ على جدار المعبد.

يا لهذه الريح الملعونة! غمغم رودس عند رؤية صديقه.

كيف الحال؟ سأل فاسكاز، وهما يواصلان السير.

أيّة جهة تقصد؟

كيف أيّة جهة؟ أنت مضحك! ألم نتفق على اللقاء هنا؟

اعتقدت أنّك نسيت. سأحدّثك عن عمليتك. هيا لنشرب كأسا. لست أدري لماذا، ولكن بي رغبة جامحة للشراب. لنمرّ من الباب، لنرى إن كان هناك جديد.

لا أعتقد. ولكن لنمرّ إذا كنت تريد. منذ منعوا المتسوّلين من النوم هناك، لم نعد نرى ليلا ولو قطة.

هذا أحسن. فلنعبر رواق الكاتدرائية إذا أردت، يا لها من ريح!..

منذ اغتيال العقيد باراليس سوريانتي، أصبحت الشرطة السرية لا تفارق باب الرحمان لحظة: تسند الحراسة للرجال أكثر جدارة. عبر فاسكاز وصديقه الباب من أوله إلى آخره، صعدا الدرجات بجانب

قصر الأسقفيّة وخرجا من *الأبواب المائة*. ظلال الأعمدة على الأرض احتلّت مكان المتسولين. عدد من السلالم الموضوعة على الجدران تشير إلى أنّ رسّاما مختصّا سيجدّد دهن المعبد. بالفعل، فمن بين القرارات التي اتخذتها البلدية المحترمة، لتبيّن مدى ولائها للسيّد رئيس الجمهورية تعهدت أولاً بتحسين المعبد الذي شهد الجريمة النكراء على نفقة الأتراك الذين تعبق دكاكينهم المنتصبة هناك برائحة الخرق المحروقة. دع الأتراك يدفعون، فلأنهم يسكنون في مسرح الجريمة فأنهم مسؤولون بصورة ما عن موت العقيد باراليس سوريانتي: حسب كلمات القاضي البلدي في قراره الشديد. وكان يمكن للأتراك الخاضعين لهذه الخطية الانتقامية أن يصبحوا أفقر من المتسولين الذين كانوا ينامون على عتبات منازلهم لو لا تدخل بعض الأصدقاء الذين يمكنهم نفوذهم من دفع تكاليف الدهن والإضاءة وتبليط باب الرحمان بمخالصات الخزينة العامة التي اشتروها بنصف قيمتها.

لكن وجود البوليس السري نكّد فرحتهم. كانوا يتساءلون همسا عن سرّ هذا التواجد. ألم تنحلّ المخالصات في براميل الجير؟ ألم نشتر بها فراشي أكبر من لحىّ أنبياء بني إسرائيل؟ ضاعفوا بحذر عدد الأقفال والمزاليج على أبواب دكاكينهم.

غادر فاسكاز ورودس من ناحية الأبواب المائة. الصمت يجلب صدى خطواتهم. دخلا بعد قليل إلى حانة «يقظة الأسد». حيّا فاسكاز صاحب الحانة، وطلب كأسين صغيرين، وجلسا حول طاولة صغيرة يحجبها ستار.

احك، أين وصلت مسألتي؟ سأل رودس.

في صحّتك. رفع فاسكاز كأس شرابه الأبيض.

في صحّتك، صديقي.

في صحّتكما. أضاف صاحب الحانة الذي جاء ليخدمهما.

أفرغ الاثنان كأسيهما دفعة واحدة.

بالنسبة لمسألتك، صفر.. بصق فاسكاز هذه الكلمات مع قطرات أخيرة بقيت مع رغوة في الكأس، نائب المدير مكن قريبه من العمل، وعندما تكلّمت في شأنك كان الغبيّ الآخر قد استلم الوظيفة.

أحقًا؟

أنه صاحب القرار!.. ولقد تكلمت معه بشأنك ولكنه قال إن قريبه قد تسلّم الوظيفة، وانتهى الأمر.

وأنت ماذا قلت؟

ماذا سأقول، أنه صاحب القرار، كما قلت لك.

استقبل رودس كلمات صديقه بهزّة كتف وغمغمة غير مفهومة. لقد جاء بأمل أن يحصل على عمل.

اسمع يا صديقي، لا تقلق، ما إن تتوفر فرصة عمل أخرى سأحصل لك عليها. لا تقلق. أقسم بحياة أمي أني سأحصل عليها! بالإضافة إلى أن الحالة بدأت بالتعفن ومؤكداً سنكون بحاجة إلى رجال آخرين. لا أدري إن كنت رويت لك.. هذا سرّ، ينظر فاسكاز حوله، من الأفضل ألّا أخبرك!

إذن لا تخبرني شيئا. لا أهتم!

المسالة على ما يرام!

اسمع، لا ترو أي شيء، أرجوك، اسكت، أنت كتوم!

لا ، ولكن قلبك ضعيف!

اسكت رجاءً! لا أحبّ هذا الارتياب. كأنك امرأة. من طلب منك شيئاً لتطيل الحكاية بهذا الشكل؟

نهض فاسكاز، ليرى إن كان هناك من يستمع لحديثهما، ثم اقترب من رودس الذي يستمع إليه مغضبا من شكّه:

لا أدري إن كنت قد حدّثتك سابقا، ولكن المتسولين الذين كانوا ينامون عند باب الرحمان ليلة الجريمة قد تكلموا، ونعلم الآن كل شيء عن قاتلي العقيد، ورافعا صوته، هل تعلم من هم؟ ثم خافضا صوته على درجة أسرار الدولة، الجنرال كناليس، مع الأستاذ كارفجال..

ألست تروي لي الأكاذيب؟

لقد صدرت فيهما بطاقات إيقاف، لن أقول أكثر!

آه! هذا العقيد، قال رودس وقد هدأ قليلا، الذي يمكنه إصابة ذبابة على بعد مائة متر بطلقة من مسدسه، مات كدجاجة كسّر عنقها. في هذه الحياة الأهم هو أن تقرّر شيئا! يا لهم من رجال هؤلاء الذين قاموا بقتله!

دون لوشيو، اعطنا صاروخين صغيرين! قال فاسكاز.

صبّ دون لوشيو وكأسين وقدّمهما بنفسه، وهو يستعرض سترته الحريرية.

هيّا فلنشرب بسرعة، قال فاسكاز، وبعد أن بصق أضاف، أكره أن أرى الكؤوس ملآنة، وأنت تطير مع أول كأس. في صحّتك!

ولكن، هل قاتلو العقيد أغبياء حتى يعودوا إلى الباب من جديد؟ قال رودس بعد أن أفرغ كأسه.

ومن قال لك أنهم سيعودون؟

كيف ذلك؟

شكـــ. را على الاستنتاج، سنرى ذلك! ها، ها، ها! يكفي لقد أضحك.. حك.. حكتني!

ماذا أصابك؟ قصدت أنكم لو كنتم تعرفون قاتل العقيد فلماذا تنتظرون بباب الرحمان لتقبضوا عليه.. أم أنكم تخافون على سلامة الأتراك؟..

تحاول أن تستدرجني!

وأنت تحاول أن تستغفلني!

البوليس السري في باب الرحمان لأمر لا علاقة له بجريمة العقيد باراليس. أنها الحقيقة أقسم لك. تخيّل أننا ننتظر رجلاً مريضا بالكلب.

لا تحاول إخافتي!

هل تذكر ذلك الأخرس الذي يصرخ قربه الناس «أمّاه» في كل مكان؟ ذلك الرجل الطويل ذو العظام البارزة من صدره حتى قدميه، الذي يركض في الشوارع كالمجنون.. هل تذكرته؟ مؤكّد أنّك تتذكره. أنه هو الذي ننتظر عند باب الرحمان، حيث اختفى منذ ثلاثة أيام. سنقضي عليه! قال فاسكاز وهو يضع يده على مسدسه.

دغدغني، كي أضحك!

لا يا صديقي، أنا لا أكذب عليك، أنها الحقيقة، صدّقني لقد عضّ كثيراً من الناس والأطباء أمروا أن نحقنه ببعض الرصاص، فهمت؟

أنت تريد أن تجعلني حمارا لتضحك! ولكن، لم يولد بعد من يستطيع ذلك! ما تنتظره الشرطة عند باب الرحمان هو عودة من قتل العقيد..

يا لرأسك اليابسة! إننا ننتظر عودة الأخرس المصاب بالكلب والذي عضّ العديد من الناس. هل أعيدها لك مرّة أخرى؟

....

تغزو صيحات الدمية الشارع، الألم يعضّ كامل جسمه وهو يزحف أحيانا على مؤخّرته وأخرى على يديه وبطنه مستندا على أصابع قدميه، الحجارة تحتكّ ببطنه وصدره، أحيانا أخرى يستند على فخذ قدمه السليمة وهو يدفع جسمه بمرفقه. ظهرت الساحة أخيرا. الهواء مشبع بأصوات طيور الجيف فوق أشجار الحديقة المهملة. خاف الدمية، وظلّ طويلا شاردا، تركّز رعب بقاياه الحيّة في لسانه الممدود كسمكة ميّتة فوق الرماد.. درجة فأخرى يصعد نحو باب الرحمان مثل قطّة تحتضر، ثم تقوقع في ركن مظلم، الفم مفتوح، العينان بلوريتان، الخرق التي يرتديها يابسة من الدم المتجمّد والتراب. الصمت يذيب خطوات آخر المارّة، طقطقة سلاح الحرس، ركض الكلاب السائبة التي تلصق وجوهها بالأرض بحثا عن عظم، أو أيّ شيء يؤكل.

....

ملأ دون لوشيو مرّة أخرى صواريخ كبيرة.

لماذا لا تريد أن تصدّقني؟ قال فاسكاز بين بصقتين، وصوته أحدّ من المعتاد. لم أحدّثك عبثا إني كنت حوالي التاسعة أو التاسعة والنصف عند الأفعى أحاول مغازلتها عندما جاء شخص ليشرب

بيرة، أعطته إياها بسرعة لكنه طلب أخرى ودفع بورقة ذات مائة بيزوس، خرجت الأفعى لتبحث عن العملة لترجع له الباقي. بقيت لأراقبه لأني أحسست أن وراءه سرّا. وبالفعل خرجت فتاة من المنزل المقابل وما إن رآها الرجل حتى جرى نحو ها مسرعا، ولكنّي لم أر شيئاً بعد ذلك. عادت الأفعى، وكما تعرفني كنت أحاول جسّها..

والمائة بيزوس..

لا، سترى، كنّا بصدد التلامس، عندما عاد الرجل لأخذ الباقي. وجدنا نتبادل القبل، هذا أعطاه الثقة ليحكي لنا أنه مجنون بابنة الجنرال كاناليس وأنه سيختطفها هذه الليلة بالذات، أنها الفتاة التي خرجت للاتفاق معه. ولقد ترجّاني طويلا لأساعده في خطف الفتاة لكن كيف يمكنني ذلك مع الحراسة في الباب؟ ثمّ، يخيّل إليّ أني أراه دائماً قرب المنزل الرئاسي..

طبعا، لعلّه من العائلة.

لا. ما أثار استغرابي أنه مصمم على اختطاف الفتاة هذه الليلة بالذات، فمن المؤكد أنه يعلم ما سيحدث، ويريد استغلال الفوضى لحظة يعتقل البوليس العجوز ليختطف الفتاة.

ها قد قلتها أيها المنتفخ!

هيا، فلنعبّ كأسا أخيرة ثم نمضي.

ملأ دون لوشيو الكأسين، ولم يتأخر الصديقان في إفراغهما. بصقا فوق بصقات وأعقاب سجائر رخيصة.

بكم ندين لك، دون لوشيو؟

ستة عشر وأربعة..

لكل واحد؟ سأل رودس.

لا. كلاكما. أجاب صاحب الحانة بينما يعدّ فاسكاز بعض الورقات النقدية والقطع المعدنية في يديه.

إلى اللقاء دون لوشيو.

دون لو شيتو، إلى اللقاء، قريبا.

اختلطت أصواتهما مع صوت صاحب الحانة الذي خرج حتى الباب لتوديعهما.

اللعنة! ما أشدّ البرد! قال رودس عندما صارا في الشارع ثم أخفى يديه في جيوبه.

خطوة فخطوة، وصلا إلى الدكاكين القريبة من السجن في ركن باب الرحمان. وبطلب من فاسكاز، الذي يحسّ نفسه سعيدا ويتمطّط كقطّ، توقّفا هناك.

هذا ما أسمّيه يقظة الأسد بلبدة لولبية، قال وهو يتمطّط من جديد، على الأسد أن يشدّ لبدته جيّدا لأنه أسد! وأنت عليك أن تكون مرحا، فهمت! عليك أن تكون مرحا لأن الليلة ليلة حبوري، أنا قلت لك، أنها ليلة حبوري!

ومن كثرة التكرار، وبصوته الحادّ، ثم الأكثر حدّة صيّر الليل طبلة سوداء بجلجل ذهبيّ تحرّكهما أيادي صديقة. ثمّ أحضر محرّك الدمى والمهرّجين كي يساهموا في إضحاكه، وكان يضحك، يضحك، متنقّلا بخطوات راقصة ويداه في جيوبه، وحين يغصّ بضحكته، أو ينقطع عن التنفس ينثني حتى يمنع نفسه من التقيّؤ. فجأة ساد الصمت. تجمّدت الضحكة في فمه مثل الجبس الذي يضعه أطباء الأسنان كي يحصلوا على بصمة السّنّ. رأى الدمية.

خطواته تخدش صمت باب الرحمان. والبناء العتيق يضاعف صدى الخطوات البطيئة. يئنّ الدمية بهدوء وبقوّة مثل كلب مجروح. شقّت صيحة قوية جسد الليل. جرجر فاسكاز الدمية من قدمه المكسورة على درجات القصر الأسقفي وبيده الأخرى يشهر مسدسه. يتابع رودس المشهد لاهثا مبلّلا بالعرق دون أيّ حركة. تدحرج الدمية في الطلقة الأولى على الدرجات الحجرية. الطلقة الثانية جعلته بلا حراك. انكمش الأتراك بين الطلقتين. لا أحد رأى أي شيء. لكن من إحدى نوافذ القصر الأسقفي كانت عيون قديس تساعد المسكين ليموت براحة. وبينما يتدحرج على الدرجات الحجرية امتدّت يد بخاتم كريم لتمنح له الغفران وتفتح له باب مملكة الله.

(٨)

محرّك العرائس في باب الرحمان

مع الطلقات وصرخات الدمية وفرار فاسكاز وصديقه ملتحفين بستار الليل، ركض سكان الطريق في الطرقات، والأشجار ـ في الساحة ـ فقدت أصابعها من الرعب لأنها لم تستطع أن تنقل عبر أسلاك الهاتف ما حدث، وظهر السكان في كل الأركان يتساءلون عن مكان الحادث، وحين لم يعرفوا الاتجاه، اتجه بعضهم إلى الأحياء وسط المدينة والآخرون إلى الضّواحي. لا، لم تكن في زقاق اليهود، المتعرّج المتموّج كأنّ مخمورا خطّه! ليست في زقاق الكتيبة الذي كان مشهورا بالأعمال البطولية لتلاميذ المدرسة العسكرية الذين أطلقوا سيوفهم في شحوم قطاع الطرق من الشرطة، معيدين إلى الأذهان حكايات الفرسان والنبلاء! وليست في زقاق الملك، المفضّل عند المقامرين؛ حيث لا يمرّ أحد دون أن يحيّي الملك! وليست في زقاق *القديسة تريز* حيث السكان قليلو التهذيب وكثيرو النزوات! وليست في زقاق الأرانب ولا قرب *نافورة لهافانا*، ولا قرب *الطرقات الخمسة* ولا قرب المرتكنين!..

لقد وقعت في الساحة الرئيسة، هناك حيث الماء حمما لأغسل المبولة بما لا أدري من الدموع، حيث الحرس يضربون، لأضرب الأرض بأعقاب البنادق، حيث الليل يدور لأدور في القبّة الثلجية للسماء مع الكاتدرائية والسماء.

كان للريح خفقان مضطرب في الصدغ المجروح من أثر الطلقات، بحيث لم تستطع أنفاسها أن تذهب من رأس الأشجار فكرة الأوراق الثابتة.

فجأة، فُتح باب، انفتح قرب باب الرحمان، ومثل فأر ظهر محرّك العرائس. تدفعه زوجته إلى الطريق بفضول طفلة في الخمسين، حتى يرى ما يحدث في الشارع ثم يروي لها.

ما الذي يحدث؟ ما تلكما الطلقتان القريبتان؟ ليس من اللائق بالنسبة لمحرك الدمى أن يخرج للشارع بملابسه الداخلية ليلبي رغبات السيدة *فخذ الخنزير*، مثلما تلقّب زوجته دون أي اعتراض منه الملقب *بنصف برتقالة* ويرى أنه من قلّة الذوق أن تغرس رماحها العشرة في ضلوعه لأنها تريد أن تعرف إن أحد الأتراك قد مات.

ولكني قلت لك أني لا أرى شيئا! ماذا تريدين أن أحكي لك؟ لماذا تسألين كل هذه الأسئلة في نفس الو قت؟

ماذا قلت؟.. عند الأتراك؟

قلت لك إنني لا أرى شيئا، ولماذا كل هذه الأسئلة؟

تكلّم بوضوح، بحق السماء!

آه! أرى شيئا، انتظري، أرى الآن ما يحدث.. عندما ينزع محرك الدمى طقم أسنانه يتكلّم وهو يمتصّ الكلمات.

ولكني، لم أفهم ما قلت! هل فهمت أني لم أفهم أية كلمة ممّا قلت؟

فهمت، فهمت! هناك في زاوية القصر الأسقفي أناس متجمعون!

اسمع، اخرج من هذا الباب، لأنك إضافة إلى أنك لا ترى شيئا، أنت لا تصلح لأي شيء، لا أفهم كلمة ممّا تقول!

أفسح الدون الطريق لتمرّ زوجته بشعرها الأشعث وثديها يتدلّى على قميص النوم الهندي والآخر محشور في برنس عذراء الكرمل.

هناك.. النقالة التي يحضرونها!

آه! آه! كانت هناك ببساطة.. عند الأتراك كما اعتقدت! لماذا لم تقل أنها هناك؟ بالتأكيد، لهذا سمعنا الطلقات قريبة!

كما قلت لك، حتى أني رأيتهم يحضرون النقالة.. بدا صوت محرك العرائس خارجًا من تحت الأرض حينما تكلم خلف زوجته.

حتى أنّ ماذا؟

حتى أني رأيتهم يحضرون النقالة!

اسكت، ومن الأحسن أن تذهب لتضع أسنانك، حينما تنزعها فكأنك تتكلم الإنكليزية!

قلت لك إني رأيت أيضا..

لا لقد أحضروها الآن!

لا يا طفلتي، كانت هناك من قبل!

قلت لك أنهم أحضروها الآن، ولست غبية في نهاية الأمر!

لا أدري ولكني أقول إني رأيتها!..

إنّك ماذا؟.. النقالة؟ قلت لك لا..

لا يتجاوز طول نصف البرتقالة المتر، كان نحيفا وكثيف الشعر كخفّاش. لم يستطع الخروج من الخندق لرؤية ما يفعل الجندرمة ومجموعة من الناس هناك. كان محشورا وراء السيدة فخذ الخنزير، امرأة من الوزن الثقيل، كرسيان في المترو: كرسي لكل فخذ، وثمانية أذرع من القماش لفستان واحد.

أنت فقط، لك الحق في الفرجة.. قال محرّك العرائس، آملا أن يخرج من هذا الخسوف الكلي.

كأنه قال «افتح يا سمسم»! استدارت فخد الخنزير مثلما يدور جبل، وارتمت عليه.

يا مسيح! أيتها العذراء! تعالى يا غيري كي أحملك بين ذراعيّ! قالت ونفّذت في نفس اللحظة. خرجت أمام الباب وهي تحمله بين ذراعيها، وهو يسب ويلعن من شدة الغضب! على البعد بينما يرفس محرك العرائس بطن زوجته، يعبر أربعة سكارى الساحة وهم يحملون جسد الدمية. (رسمت السيدة فخذ الخنزير إشارة الصليب). بكت المبولات الفقيد، والريح مازالت تصنع صيحات طيور الجيف على أشجار الساحة التي بلون برانيس السفر.

كان على الكاهن أن يقول لي يوم زفافنا، أمنحك مرضعة وليس أَمَة، قال محرك العرائس عندما نزل على الأرض.

نصفه العزيز تركته يقول ما يشاء، نصفه بطريقة لا يصدق لأنه إن كان يمثل بالفعل نصف برتقالة، فأنها تتجاوز بكثير فخذ الخنزير. تركته يقول ما يشاء لأنها من جهة لا تفهم ما يقول عندما يكون بلا طقم أسنان، ومن جهة أخرى كي تقلل من الاحترام الذي يفرضه عليها واجبه الوطني.

بعد ربع ساعة كانت السيدة فخذ الخنزير تشخر كأن جهازها التنفسي يصارع كي لا يفنى، تحت هذه الكومة من اللحم. والسيد نصف البرتقالة، بقلب مليء بالضغينة يواصل لعن زواجه.

لكن مسرح العرائس كسب من هذا الحدث الفريد. يدخل العرائس إلى المسرح التراجيدي والدموع تنزل من عيونها قطرة

فقطرة نتيجة نظام من الأنابيب الصغيرة مرتبطة بحقنة شرجية غاطسة في إناء مليء بالماء، حتى ذلك اليوم لم تفعل العرائس إلا الضحك، أو البكاء أحيانا، بتكشيرة هزليّة، ودون أناقة الدموع التي تسيل أنهارا حقيقية تغرق مسرح نكاتها المضحكة. اعتقد السيد نصف برتقالة أن الأطفال سيبكون من الكوميديا التي أضاف لها القليل من الدراما، وكم كانت دهشته كبيرة حينما رأى الأطفال يضحكون حدّ الاختناق، بأكثر سعادة، بأكثر مرح. كان الأطفال يضحكون حين يرون البكاء.. الأطفال يضحكون حين يرون الضرب.

غير منطقي! غير منطقي! استنتج السيد نصف برتقالة.

منطقي! منطقي جدّا! عارضته السيدة فخذ الخنزير.

غير منطقي! غير منطقي!

منطقي جدّا! منطقي جدّا! منطقي جدّا!

لن نبدأ بالنقاش! اقترح نصف البرتقالة.

لن نبدأ بالنقاش! قبلت.

ولكنه غير منطقي..

منطقي جدّا، هل فهمت؟ منطقيّ جدّا جدّا!

عندما تتخاصم السيدة فخذ الخنزير مع زوجها، تعمد إلى إضافة مقاطع للكلمات مثل أنابيب تهوئة، كي لا تنفجر.

غير منطق.. طق.. طقطقي! صاح نصف البرتقالة وهو يكاد يقلع شعره من شدّة الغضب.

منطقيّ جدا! منطقي جدا! منطقيّ جدّا جدّا جدا!

على كل حال استغل مسرح محرّك العرائس طويلا طريقة الحقنة الشرجية لإبكاء العرائس وإضحاك الأطفال.

(٩)

العين البلورية

يغلق تجّار المدينة الصغار حوانيتهم مع غروب الشمس، بعد تدقيق الحسابات والحصول على الصحيفة وخدمة آخر الزبائن. بعض الصبية يلعبون في ركن من الطريق مع الجعلان التي يجلبها ضوء الفوانيس الكهربائية. كل جُعل يقبض عليه يخضع لحصص من التعذيب، بعض هذه الحصص تطول لأن لا أحد فكّر في سحق الجعل وأنهاء اللعبة. من الشبابيك، ترى بعض العشاق منغمسين في سكرات عشقهم، دورية شرطة مسلّحة بالحراب أو بالعصيّ تجوب الشوارع بهدوء، بينما الرجال وأحد وراء الآخر، يوقّعون خطواتهم وفق إيقاع قائدهم. ولكن قد يتغيّر كل شيء في بعض الليالي. المسالمون، الذين يتقرّبون بأضاحي الجعلان، يلعبون الحرب، وينظمون أنفسهم لخوض معارك تتحدّد مدّتها بوجود القذائف. لأن المحاربين لا ينسحبون ما دام هناك حجر في الشارع.

تأتي أم المعشوقة لتقطع مشاهد الحبّ، وليفرّ العاشق، وقبعته بيده، كأنه رأى الشيطان ذاته. والدورية تقوم، لمجرّد الترفيه، بتفتيش أي عابر من قدميه حتى رأسه ثم يأخذونه إلى السجن، عندما لا يجدون عنده سلاحا باعتباره مشتبها فيه، متسكعا، متآمرا، أو كما يقول القائد، لأنني لا أتذكّره.

في هذه الساعة من الليل توحي أحياء الفقراء بعزلة قاتلة، وببؤس

قذر مع بقايا استسلام شرقي، وقدرية دينية تنبع من الإرادة الإلهية ذاتها. تحمل المجاري النيلوفر، والماء الصالح للشرب في الأنابيب يحصي الساعات اللاأنهائية لشعب يعتقد أنه محكوم بالعبودية والرّذيلة.

في إحد تلك الأحياء الفقيرة افترق فاسكاز وصديقه.

إلى اللقاء جينارو، قال الأول موصيًا صديقه بإشارة من عينه أن يحفظ السر، سأغادر لأني أظن أن الوقت يسمح بمساعدة عاشق ابنة الجنرال.

توقف جينارو في هيئة متردّد، كأنه يريد أن يقول كلمة أخيرة لصديقه المغادر، ثم اقترب من منزل، كان يسكن دكّانا، وطرق الباب بإصبعه.

من؟ من هناك؟ سأل صوت من الداخل.

أنا، قال جينارو، وهو ينحني على الباب كمن يتكلم في أذن شخص قصير.

من هذا أنا؟ قالت امرأة وهي تفتح الباب.

مرتدية قميص نوم وبشعر غير مرتب، رفعت زوجته، فدينا، يدها لتقرّب الشمعة من وجهه.

عندما دخل جينارو أنزلت الشمعة وأنزلت المزلاج بقوة، ثم اتجهت إلى الفراش دون أن تنبس بكلمة. وضعت الشمعة أمام الساعة المنبهة حتى يرى هذا الفاجر في أيّة ساعة يعود. وقف ليداعب القطة التي تنام على الطاولة وهو يحاول أن يصفّر لحنا مرحا.

ما الجديد الذي يجعلك سعيدا لهذه الدرجة؟ صاحت فدينا وهي تمسح قدميها قبل الرجوع إلى الفراش.

لاشيء! أسرع جينار وبالإجابة، وهو يبدو في ظلمة الدكان كشبح، خائفا أن تلحظ زوجته الهم الذي يعانيه.

لقد قويت صداقتك بهذا الشرطي الذي له صوت امرأة!

لا! قطع جينارو وهو يدخل إلى الغرفة الخلفية من الدكان التي يستعملونها كغرفة نوم، وقبعته تغطي عينيه.

كاذب! لقد افترقتما الآن! آه! أنا أعرف هؤلاء الرجال الذين يتكلمون مثل صديقك، بصوت نصف دجاجة ونصف ديك، أنهم لا يصلحون لشيء. أعلم أنك تصادقه كي تعمل في البوليس السري. مهنة الكسالى! يجب أن تخجل من سلوكك!

وهذا؟ سأل جينارو كي يغيّر الحوار، وهو يخرج فستانا صغيراً من علبة.

أخذت فدينا الفستان من يد زوجها، كشعار للسلام، وجلست على الفراش وبدأت تحكي له أنها هدية من ابنة الجنرال التي طلبت منها أن تكون إشبينة ابنها. يغطي رودس وجهه في الظلام الذي يغمر مهد ابنه، وكان يحاول حجب ضوء الشمعة بيده ويستمع بغير انتباه لزوجته التي تقصّ علية تراتيب تعميد ابنها. لكنه سرعان ما أبعدها وهو ينفضها ليتخلص من بريق الدماء التي تلتصق بأصابعه. نهض شبح الموت من مهد طفله كأنه خارج من نعش. علينا أن نهدهد الموتى كالأطفال. أنه شبح أبيض، بغيمة على العينين، دون شعر، دون حاجبين، دون أسنان يقفز كلو لب، مثل دخان المبخرة أثناء مراسم الدفن. على البعد يسمع جينارو صوت زوجته كانت تتحدث عن ابنها عن التعميد وعن ابنة الجنرال، عن دعوة الجارة القريبة والجار السمين الذي يقطن أمام منزلهم، وجار الزاوية وصاحب المطعم، والجزار والخباز.

كم سنفرح!.. ثم سألت فجأة: جينارو، ماذا أصابك؟

أنا؟ لا شيء! أجاب وهو ينتفض.

ثقب صوت المرأة شبح الموت بثقوب سود صغيرة رسمت على الهيكل العظمي في ركن مظلم. أنه هيكل امرأة، امرأة ليس لها من المرأة إلا الثديان، رخوة يغطيها الشعر كالفئران، متدليان على القفص الصدري.

ما بك، جينارو؟

أنا؟ لا شيء!

لهذا تعود متأخّرا، مخدرا، وذيلك يتدلى بين ساقيك! لا بدّ أن الشيطان الذي يسكنك يمنعك من البقاء في المنزل!

يغلّف صوت زوجته الهيكل العظمي.

لا. أنا لا أشكو شيئا!

عينه على أصابع اليد اليمنى مثل حلقة ضوء تشعّ من مصباح كهربائي صغير. من الخنصر إلى البنصر، من البنصر إلى الوسطى، من الوسطى إلى السبابة، من السبابة إلى الإبهام. عين!.. عين واحدة.. انخفضت دقات قلبه حتى خاله توقّف. أغلق قبضته كي يسحقها، بقوة لدرجة غرس أظافره في اللحم. مستحيل، عندما فتح يده ظهرت العين من جديد ليست أكبر من قلب عصفور، لكنها فضيعة كالجحيم. ماء مغلي يغمر صدغيه. من يمكنه أن ينظر إليه من خلال العين التي في أصابعه، والتي تقفز ككرة الروليت بإيقاع جرس الحزن؟

جينارو، ما الذي أصابك؟ سألت فدينا وهي تبتعد عن مهد طفلها.

لا شيء! ثم أضاف بعد تأوهات، لا شيء، أنها عين تلاحقني! أنظر إلى عيني.. لا، لا، مستحيل! أنهما عيناي، أنها عين.

ادع الله! نصحته زوجته بهمس دون أن تفهم شيئاً من هذيانه.

عين.. نعم، عين دائرية، سوداء، بأهداب، مثل عين بلورية!

إنك سكران، هذا ما هناك!

كيف تريدين أن أكون سكرانا، ولم أشرب شيئا؟

لم تشرب شيئا؟ وفمك النتن من الخمر!..

يحسّ رودس نفسه في نصف الغرفة ـ النصف الآخر مخصص للدكان ـ ضائعا في كهف عميق، بعيداً عن أي مواساة، بين الوطاويط والعناكب، والأفاعي والسرطانات.

لقد فعلت شيئا! أنها عين الله تراقبك!

ارتمى جينار وبقفزة على السرير، بحذائه، وملابسه. اختبأ تحت الأغطية. قرب جسم زوجته، جسم جميل لامرأة شابة. قفزت العين. أطفأت فدينا الضوء، ولكن الأمر ازداد سوء، كبرت العين في ثانية حتى غمرت الجدران والسقف والأرضيّة والبيت وحياته وابنه..

لا ـ أجاب جينارو عن سؤال سابق لزوجته، التي أشعلت الضوء تحت إلحاح صرخاته المرعبة، ثم بدأت تمسح بخرقة العرق المتصبب منه ـ ليست عين الله، أنها عين الشيطان..

رسمت فدينا إشارة الصليب. أمرها جينارو أن تطفئ الضوء من جديد. تحوّلت العين إلى ثمانية في المرور بين الضياء والظلمة، ثم تفرقع كأنه على وشك الاصطدام بشيء ما، ولم يتأخر في الاصطدام في الخطوات التي ترنّ في الطرق..

الباب! الباب! صاح جينارو. نعم! نعم! نور! كبريت! بحق الحياة! بحق الحياة!

مدّت يدها لتجلب الكبريت. على البعد يسمع صوت عربة. وجينارو، أصابعه في فمه، يتكلّم كأنه يختنق. يرفض البقاء وحده ولا يكفّ عن مناداة زوجته التي ذهبت لتعدّ له قهوة علّه يهدأ. عادت فدينا بسبب صرخات زوجها مرعوبة: «هل يهذي.. أم ماذا؟ تساءلت وهي تتابع بعينيها الجميلتين تراقص الشعلة، بدأت تفكّر بالديدان التي وجدت في معدة الصغيرة هنريات التي تعمل في فندق المسرح، وبالخليط الذي وجد مكان دماغ هندي في المستشفى، والكاديج وذلك الحيوان الخرافي الذي يمنع من النوم. مثل دجاجة تفتح جناحيها لتحمي فراخها قامت لتضع عقداً به صورة القديس بلاز فوق صدر الطفل الصغير، وهي تتلو بصوت مرتفع صلاة للثالوث المقدس.

زعزعت الصلاة جينارو، كأنه يتلقى ضربات موجعة. خرج من الفراش وعيناه مغمضتان ليصل إلى زوجته القريبة من المهد، وعلى ركبتيه، وهو يحيط ساقيها بيديه، ثم روى لها كل ما رآه.

على الدرجات، تدحرج، تدحرج إلى الأسفل، سال منه الدم من الطلقة الأولى، ولم يغلق عينيه. الساقان منفرجان، والعينان مفتوحتان والنظرة ثابتة، نظرة جاحدة، لزجة، لم أعد أذكر!.. بؤبؤ، كبرق يلفّ كل شيء تجمّد علينا! بؤبؤ بأهداب غليظة لا تغادرني، لا تترك أصابعي، هنا، يا إلهي! هنا..

أسكته بكاء الطفل. أخذت فدينا الطفل المقمّط بلفافات صوفية من السلة، وأعطته ثديها، دون أن تستطيع التخلص من زوجها الذي يبعث فيها القرف والذي لم يترك قدميها ولم يكفّ عن التأوّه.

الأخطر أن لوشيو..

الذي يتكلم بصوت امرأة اسمه لوشيو.

نعم. لوشيو فاسكاز.

الذي يدعونه «قطيفة»؟

نعم..

ولماذا قتله بحق الشيطان؟

أنه أمر، الآخر مصاب بالكلَب. لكن الأخطر هو ما أخبرني لو شيو: هناك أمر إيقاف ضدّ الجنرال كاناليس، وسيختطف شخص ابنته هذه الليلة.

الآنسة كاميليا؟ إشبينتي؟

نعم.

بكت فدينا، عندما سمعت هذه الأخبار اللامعقولة، بكت ببساطة الناس البسطاء الذين يتألمون لمصائب الآخرين. تنزل قطرات الدموع على رأسها طفلها الذي تهدهده، دموع دافئة مثل المياة التي تحملها الجدات إلى الكنيسة لتضيفها إلى الماء البارد المقدس في جرن العماد. نام الطفل. انقضت الليلة، وكانوا تحت تأثير فتنة ما، عندما رسم الفجر خطّه الذهبي تحت الباب، الذي تلقّى الضربات الهادئة لبائعة الخبز.

خبز! خبز! خبز!

(١٠)

أمراء الميليشيا

خرج الجنرال أوزيبي وكاناليس، الملقّب بالانقلابي من منزل وجه الملاك، بهيبته العسكرية، كأنه سيقود جيشا، ولكن ما إن أصبح وحيدا في الشارع، حتى تحوّلت خطواته العسكرية إلى خبب هندي يسرع إلى السوق ليبيع دجاجاته. خلفه دائما، مجموعة الجواسيس. يحاول بإصبعه أن يضغط على فتق الحالب الذي يشعره بالغثيان. وهو يتنفس، تخرج رغما عنه بقايا كلمات وتأوّهات ممزقة وإحساس قلب يتقافز، ينكمش، يتوقّف أحيانا، لدرجة أنه يضغط على صدره بيده، وعيناه زائغتان وذهنه فارغ، يحاول التشبث بقلبه الذي رغم القفص الصدري، يبدو مثل عضو مكسور تحت الجبس، حتى يواصل النشاط. دار مع زاوية الشارع التي رآها بعيدة قبل حين، والآن التي تليها، رغم أنها.. بعيدة، من خلال ضعفه وتعبه!.. بصق. كاد يسقط قشرة في آخر الشارع انزلقت سيارة. هو الذي سينزلق. لكنه لم ير إلا السيارة، الأضواء والمنازل.. من حسن الحظ أنه دار في ركن الشارع، رغم أنه.. يبدو بعيداً من خلال تعبه!.. يعضّ شفتيه ليتغلب على ركبتيه. بالكاد يتقدّم. ركبتان متيبّستان، وحكّة مرضيّة في عظم مؤخرته، وفي طرف لسانه. الركبتان. يجب أن يجرّ نفسه كي يصل إلى منزله زاحفا، مستعينا بيديه، بمرفقيه، بكل شيء فيه قادر على الفرار من الموت.

أبطأ من مشيته. المفترقات مقفرة. بل نكاد نجزم أنها تتوالد في الليل، دون راحة، مثل الواجهات الشفافة. أصبح سخيفا أمام نفسه وأمام الآخرين، الذين يرونه مثل الذين لا يرونه. الوعي بأنه رجل مراقب تفسّر العبثية البيّنة لهذه الفكرة: لأنه حتى في عزلته مغلفا بظلام الليل، يحسّ نظرات المواطنين تتجمع عليه.

«مهما يحصل، قال لنفسه، واجبي يحتّم عليّ أن أبقى في منزلي، وخاصّة إذا كان ما قاله ذلك اللئيم وجه الملاك صحيحا». ثمّ بعد قليل: «أن أفرّ، يعني أني مذنب!» ردّد الصدى خطواته. «أن أفرّ، يعني أن أقرّ أني مذنب، أنّ!.. ولكن حين أفرّ!..» ردّد الصدى خطواته. «أن أقرّ أني مذنب!.. ولكن حين لا أفرّ!.. ردّد الصدى صوت خطواته.

حمل يده إلى صدره كي ينزع عنه كمادة الخوف التي ألصقها المحظيّ.. يشتاق إلى ميداليّاته العسكريّة..» أن أفرّ، يعني أن أقرّ أني مذنب، ولكن حين لا أفرّ.. «إصبع وجه الملاك تشير إلى جهة المنفى مثل السبيل الوحيد للنجاة». يجب أن تنقذ حياتك، جنرال! مازال لديك الوقت».

وكل ما كان، كل ما كان يساوي، كل ما كان يحبّ بحنان طفل: وطن، عائلة، ذكريات، عادات، وكاميليا، ابنته، كل شيء يدور حول السبّابة القدرية كأن الكون بأسره تشظّى لحظة تشظّي أفكاره.

لكن بعد بضع خطوات لم يبق من هذه الرؤية المدوّخة سوى دمعة حائرة في العينين.. «الجنرالات أمراء الميليشيا! «قلت في خطاب.. أنها جملة كلّفتني غاليا! الرئيس لن يغفر لي» أمراء الميليشيا»، ولأنه لا يحبّني، فهو يتخلص مني بإلصاق تهمة قتل

عقيد يكنّ عميق الاحترام لشعري الأبيض. رسمت ابتسامة رقيقة ومُرّة تحت شاربه الرّمادي. من عمقه، برز جنرال كناليس آخر، جنرال كناليس يتقدم كسلحفاة، يجرّ قدميه كراهب بعد الطواف المقدس، الصامت، المظلم، الحزين، برائحة الأموات. من الانقلابي الحقيقي، من كناليس الخارج من منزل وجه الملاك المتكبر، في قمّة مجده المهني، مبرزا كتفي الجبّار فوق أرضية حروب مظفّرة شنّها ألكسندر، جول سيزار، نابليون، وبوليفار، من كل هذا ينتج فجأة كاريكاتير جنرال، دون نياشين مزركشة، دون القبعة المقنزعة، دون سجف حمر متوهجة، دون حذاء عسكري، دون مهماز ذهبي. يبدو، الآخر، الأصلي، الانقلابي بجانب هذا الدخيل، المرتدي لملابس سود، المشعّر، الفارغ، بجانب جنازة هذا الفقير، دون غطرسة من جهته، موكب جنائزي من أعلى طراز، بالشرائط، والمخمل، والغار، والرياش، والتحيات الرسمية. جنرال كناليس مسلوخ يتقدم ساعة هزيمة لن يذكرها التاريخ، يمرّ أمام الحقيقي، الذي بقي في المؤخرة، مثل دمية متحرّكة في حمّام من الذهب واللّازورد، وعلى عينيه القبعة مثلثة القرون، وسيفه مكسور، أكمامه متدلية، وعلى صدره ميدالياته وصلبانه صدئة.

دون أن يبطئ سيره، ينزع كناليس نظره عن توأمه في لباسه الاحتفالي، يحسّ نفسه مهزوما. يرعبه أن يرى نفسه في المنفى مرتديا سروال بوّاب وسترة طويلة أو أقصر ممّا يجب، ضيّقة أو أوسع ممّا يجب، لكن لن تكون على مقاسه أبداً. يمشي على خرائبه، يدوس نياشينه طوال الطريق.

لكني بريء! ثم يكرّر بصوت قلبه الأكثر إقناعا: «لماذا أخاف وأنا بريء؟»

بالضبط! يجيبه ضميره بلسان وجه الملاك، بالضبط!.. لو كنت

مذنبا لتغيّرت الأغنية. الجريمة غالية لأنها تضمن للحكومة التحام الشعب وتضامنه. الوطن؟.. انج بنفسك، أيها الجنرال! أعلم ما تفكر، ليس هناك وطن يصمد.. القوانين. يا لها من نكتة! انج بنفسك، أيها الجنرال لأن الموت ينتظرك.

ولكنني بريء!

لا تتساءل إن كنت مذنبا أو بريئا، تساءل إن كنت ستحصل على دعم السّيّد، لأن بريئا، مغضوبا عليه من الحكومة، في وضع أسوء من المذنب!

لم يعد يستمع لصوت وجه الملاك، وهو يغمغم بكلمات انتقامية يخنقها في قلبه. بعد حين فكّر في ابنته. مؤكّد أنها تنتظره، والقلق يملأ روحها. تدق ساعة كنيسة الرحمة، السماء صافية مسمّرة بالنجوم، دون غيمة واحدة. عندما وصل إلى زاوية منزله رأى النوافذ مضاءة. كانت أضواؤها، التي تصل إلى منتصف الشارع، انتظارا.

«سأترك كاميليا عند أخي خوان، في انتظار أن أبعث أحدا لإحضارها. تعهّد وجه الملاك أن يوصلها هذه الليلة أو غدا صباحا.»

لم يستعمل المفتاح الذي يمسكه في يده، لأن الباب انفتح مباشرة عند وصوله.

اسكتي.. تعالي.. سأشرح لك.. يجب أن نسرع.. سأشرح لك.. فليحضّر الجندي دابّة في الإسطبل.. المال.. مسدّسي.. فيما بعد سأرسل من يجلب لي ملابسي.. لن أحتاج إلا للضروري في حقيبة صغيرة، لا أدري ما أقول لك، ولن تفهمي. فليعدّوا البغلة الرمادية، وأنت حضّري أغراضي، في هذه الأثناء عليّ أن استعدّ وأكتب رسالة لأخوتي. ستبقين عند خوان بضعة أيام.

لو صادفها مجنون فإنّ كاميليا لن يرعبها أكثر من رؤيتها لوالدها

يدخل، وهو الرجل الهادئ عادة، في هذه الحالة العصبيّة. لكنها لم تخرج صوتا. ولون وجهها ممتقع يتقلب. لم تره أبداً على هذه الحالة. مدفوعا بالعجلة، منكسرا بالألم، لم تستطع أن تفعل أو تقول شيئاً إلا «آه! يا إلهي! آه! يا إلهي!»، جرت توقظ الجندي من نومه، حتى يعدّ الركوبة، بغلة رائعة بعينين من نار، وعادت لتعدّ الحقيبة (.. مناشف، جوارب، قطع من الخبز.. نعم، زبدة، لكنها نسيت الملح..) ثم تذهب إلى المطبخ، لتوقظ مربّيتها التي تعوّدت أن تقضي فترة نومها الأولى جالسة على صندوق خشبي، عند المدفئة، قرب النار التي غدت الآن رمادا، مع القطة التي تحرّك أذنيها من وقت لآخر كأنها تبعد عنهما الأصوات.

كان الجنرال يكتب بعجلة، حينما أغلقت المربية النوافذ، سيطر الصمت على المنزل، ولكن ليس ذلك الصمت الحريري لليالي الهادئة الرقيقة، ذلك الصمت الكربوني الذي ينسخ أحلاما سعيدة، أخفّ من أفكار الورود، أقل غموضا من الماء.. الصمت الذي سيطر الآن على المنزل، والذي يعكّره سعال الجنرال، والتنقلات العجلة لابنته، ودموع الخادمة والصوت الغريب للخزائن، والصّوان، التي تغلق وتفتح.. كان صمتا متصلّبا، مقيّدا، مقلقا كلباس غريب.

رجل قصير، رقيق، بوجه ماكر، وبجسم راقص، يكتب دون أن يرفع ريشته، أو يصدر أي ضجيج، يبدو كأنه يخيط نسيج عنكبوت:

«إلى فخامة، السيد الرئيس الدستوري للجمهورية،

فخامتكم،

طبقا للتعليمات التي تلقيناها، تتبعنا الجنرال كناليس. لنا شرف إعلامكم بأنّا رأيناه عند صديق فخامته السيد الرئيس، عند السيد

ميجال وجه الملاك. أخبرتنا الطباخة التي تراقب سيدها والخادمة، وكذلك الخادمة التي تراقب الطباخة وسيدها، أن وجه الملاك اختلى في غرفته بالجنرال، كناليس قرابة ساعة إلا ربع. أضافتا أن الجنرال كناليس انصرف شديد الاضطراب. طبقا للتعليمات ضاعفنا الحراسة حول منزل كناليس، مؤكدين أمر القتل عند أيّة محاولة هرب.

قالت لي الخادمة عن طريق الهاتف، وهذا الأمر لا تعلمه الطباخة، أن سيّدها أفهمها أن الجنرال جاء يهديه ابنته مقابل تدخل ناجع لدى الرئيس.

كانت الطباخة، وهذا الأمر لا تعلمه الخادمة، أكثر تصريحا حيث قالت أن سيدها كان فرحا بعد انصراف الجنرال وكلّفها أن تشتري عند فتح المغازات، معلبات، وكحولا رفيعة، وحلويات وشوكولاتة، لأن آنسة من عائلة كبيرة ستأتي لتسكن عنده.

هذا ما يشرّفني إعلام السيد الرئيس به..»

كتب التاريخ وأمضى، خربشة في شكل ثعبان، ثم كأنه يغطي ثقبا في ذاكرته، أضاف قبل أن يترك الرّيشة، رغم أن أنفه يقرصه: «ملحق: إضافة للرسالة التي أرسلت صباحا. ثلاث أشخاص زاروا الدكتور *لويس برّان* وهذا المساء، منهم زيارتان ضروريتان. أول الليل خرج مع زوجته في الحديقة. الأستاذ *أبال كارجفال* ذهب هذا المساء إلى البنك الأمريكي، ثم إلى صيدلية قبالة المقهى الكبير، وإلى النادي الألماني، حيث تحدّث برهة مع السيد رومست الذي تراقبه الشرطة أيضاً. وعاد إلى منزله عند السابعة والنصف. لم نره يخرج، وطبقا للتعليمات ضاعفنا المراقبة حول منزله.

الممضي أول التقرير، نفس التاريخ فال

(١١)

الاختطاف

بعد أن غادر رودس، أسرع لوشيو فاسكاز إلى الأفعى، ليرى إن بقي وقت ليقدم معونة في اختطاف الفتاة، ومرّ مرعوبا من ساحة الرّحمة مكان ظهور الأشباح والجرائم حسب ما يقول الناس، وحيث تلتقي النساء لثلب الناس وهن يملأن جرارهن. «اختطاف، هذا عمل جميل، فكّر قاتل الدمية دون أن يبطئ خطوه، أكملت، بمعونة الله، عملي مبكرا عند الباب، استطيع أن أتمتّع بذلك الآن، نتمتّع بسرقة دجاجة فكيف تكون الحالة عند الفرار بفتاة!» لاحت له أخيراً حانة الأفعى. لكن العرق غطى جسمه حين رأى الساعة في برج الكنيسة.. أو أنه لم ير جيّدا.. حيّا أفراد الشرطة الذين يراقبون منزل كناليس، وبخطوة واحدة، تلك الخطوة التي تفرّ من القدم مثل أرنب، وصل أمام باب الحانة.

كانت الأفعى متمدّدة في انتظار الثانية صباحا، وأعصابها مشدودة، تحكّ ساقا بأخرى، وتضع يديها في وضعيات غير مريحة وتنفخ نارا من كل مسامّها، وتدفن رأسها تحت المخدّة دون أن تتمكّن من إغماض عينيها.

عندما طرق فاسكاز الباب قفزت من الفراش حتى الباب، ثائرة، وتنفّسها خشن كمشط الخيول.

من هناك؟

أنا، فاسكاز، افتحي!

لم أكن أنتظر مجيئك!

كم الساعة؟ سأل وهو يدخل.

الواحدة والربع! أجابت صاحبة الحانة دون أن تنظر إلى الساعة وهي متأكدة لأنها، في انتظارها للساعة الثانية، تعدّ الدقائق، الخمس دقائق، العشر دقائق، ربع الساعة، العشرين دقيقة..

كيف إذن رأيت الثانية إلا ربع في ساعة الرحمة؟

مستحيل! ساعة الرهبان مخطئة، كعادتها!

قولي، هل عاد رجل الورقة النقدية؟

لا.

أخذ فاسكاز صاحبة الحانة في أحضانه، وهو مستعدّ لتلقي صفعة مقابل حنانه، لكن الأفعى تركته، برقة الحمامة، يواصل عناقها، وحين توحدت شفاههما تواعدا برقّة المحبين ألّا يرفض أحد للآخر أي طلب الليلة. ينير الضوء الوحيد الموجود في الغرفة أيقونة العذراء بقربها باقة أزهار من الورق. أطفأ فاسكاز شمعة النذر بنفخة، وبضربة مقصية قلب صاحبة الحانة، وغابت صورة العذراء في العتمة، في حين تدحرج الاثنان على الأرض مجدولين كأوراق الثوم.

ظهر وجه الملاك قرب المسرح مسرعا مصحوبا، بعدد من الصعاليك. قال لهم: «حين تصبح الفتاة بحوزتي يمكنكم نهب المنزل، وأعدكم أنكم لن تعودوا فارغي الأيدي. ولذلك عليكم الآن

أن تفتحوا أعينكم، وبعد ذلك تغلقون أفواهكم: إذا كنتم ستعطلونني فمن الأحسن ألّا تعينونني».

أوقفتهم دورية في منعطف. فاوض المحظيّ قائدهم في حين يحاصرهم الجنود.

سنغني تحت شبّاك محبوبتي، أيها العقيد..

أين؟ هل يمكن أن نعرف أين؟ سأل هذا الأخير وهو يضرب الأرض بسيفه.

هناك، قرب زقاق المسيح..

وأين القيثارات وبقيّة الآلات؟ يا له من غناء صامت.

يدسّ وجه الملاك، خفية، ورقة ذات مائة بيزوس إلى الضابط الذي ألغى الصعوبات بسرعة.

ظهرت بناية كنيسة الرحمة في آخر الطريق. كنيسة بشكل سلحفاة بعينين صغيرتين، شباكين في القبة. أمر المحظيّ أن لا يصلوا جماعة لحانة الأفعى: «مقهى «توتاب» تذكروا! تذكروا جيّدا مقهى «توتاب». صاح فيهم المحظيّ عندما كادوا يفترقون. «لا تذهبوا لأي مكان آخر، مقهى «توتاب» قرب دكان صانع الحشايا»!

انطفأت خطوات المجموعة متّخذين اتجاهات شتّى. مخطّط الهروب كالتالي: عندما تدق ساعة الرحمة الساعة الثانية، يصعد اثنان أو أكثر من الذين أرسلهم وجه الملاك فوق سطح منزل الجنرال كناليس، وحين يبدؤون المشي تفتح الطفلة شبّاكا من شبابيك المنزل كي تستغيث من اللصوص فتنادي الجند الذين يراقبون البيت، فيستفيد الجنرال من الفوضى ويفرّ من الباب الخلفي.

لا يمكن حتى لغبي وطفل ومجنون أن يضبطوا خطة بهذه البساطة

والتفاهة. ليس لها رأس أو ذنب. علم الجنرال والمحظيّ بذلك لكنهما تبنياه لأنهما رأيا فيه فخّا مضاعفا. يعتبر كناليس أن حماية المحظيّ تضمن هروبه أكثر من أيّ خطّة. بالنسبة لوجه الملاك لا يرتبط نجاح الخطة بكناليس بل بالسيد الرئيس الذي أخبره بتفاصيلها مباشرة بعد مغادرة الجنرال.

ليالي ابريل المدارية هي يتامى نهارات مارس الساخنة، باردة، مُعتمة، عنيفة حزينة. ظهر وجه الملاك في ركن الحانة الصغيرة قرب منزل الجنرال، يعدّ ظلال الشرطيين بلون الغار، دار بالبيوت خطوة فأخرى، وانزلق في طريق العودة إلى مقهى «توتاب» من الباب الفرعي، كان هناك شرطي واقف أمام كل منزل مجاور، ولا يمكن معرفة عدد الشرطة السرية الذين يجولون بعصبية على الأرصفة.

كانت نفسيته تزداد سوء، وهو يفكر «إني أشارك في جريمة قتل، هذا الرجل سيقتل بالكاد يخرج من منزله» وفي هذا المسار الذي يزيد قتامة كل ما فكر فيه يرى أن اختطاف ابنة هذا المحتضر عملاً شنيعا، مقرفا، بقدر ما هو لطيف، ومفرح، وكذلك رقيق، في صورة نجاح الاختطاف. بالنسبة لرجل دون عاطفة مثله، ليست الطيبة هي التي جعلته في حالة سيئة في مواجهة كمين ينصب في قلب المدينة، لرجل اعزل ومطمئنّ، لحظة هروبه، لحماية ظل صديق لسيادة الرئيس، حماية، ليست في حقيقة الأمر إلّا فخّا بشعا، منغّما، يهدف إلى ملء الضحية بمرارة الخيبة في آخر لحظة، حين يرى نفسه مخدوعا، مخذولا، محاصرا، وإضافة إلى ذلك، خطة جهنمية، لتعطي القتل صبغة شرعية لأنها تمكن من الإثبات أن قوات الأمن أجبرت على التدخل في آخر لحظة لمنع مجرم من الهرب، صدر أمر إيقافه غدا صباحا. سبب آخر تماما هو الذي يجعل وجه الملاك رافضا، يعضّ شفتيه ندما، أنها مؤامرة أخرى لا تقل دناءة

وشيطنة. بحسن نيّة، وصل إلى اعتبار نفسه حامي الجنرال، وبالتالي أعطى نفسه الحق في نيل بعض الحقوق على ابنته، حقًّا رأى أنه سيضحّي به، حين وجد نفسه، في دوره الأصلي، كجلّاد، عوض دور الحامي الذي أعطاه لنفسه. ريح غريبة تهبّ على سهل صمته، عطش الصبّار الشائك، العطش الذي لا ترويه مياة السماء. لماذا تكون الرغبة هكذا؟ لماذا تعطش الأشجار تحت المطر؟

كبرق ومضت فكرة التخلي وراء جبينه: يدق جرس منزل كناليس ثم يخبره بكل شيء.. (يتخيّل الفتاة تبتسم له بعرفان). لكنّه في الأثناء يدخل المقهى الصغير. أرجع له فاسكاز ورجاله الثقة، الأوّل بكلامه والآخرون بحضورهم.

هيا بنا، فيما يخصّني أنا طوع أمرك، أنا جاهز لإعانتك في كل شيء. أنا من الذين يملكون سبع أرواح، جريء لا أهاب الموت. يحاول فاسكاز أن يفخّم صوت المرأة الذي يخرج منه دون إرادة منه، كي يعطيه صبغة رجولية. وواصل بهمس: لو لم أتفاءل بوجهك لما حدّثتك بصدق مثلما أفعل الآن. هذا مؤكد. لكنّك سهّلت لي الأمور مع الأفعى، التي أصبحت الآن طوع أمري.

أمر مفرح أن تكون هنا، وبهذا الحماس. أحبّ الرجال! قال وجه الملاك وهو يشدّ على يد قاتل الدمية. لقد أرجعت كلماتك يا صديقي فاسكاز الشجاعة التي نزعتها مني الشرطة: يوجد شرطي في كل باب!

تعالى اشرب كأسا حتى تطرد الخوف!

آه! صدّق أني لست خائفا من أجلي، لقد تنازعت معهم على أشياء ضئيلة، إني خائف من أجلها، لأنك تفهم أني لا أريد أن يقبضوا علينا ونحن نخرج من المنزل.

لكن من سيقبض عليكم، لن يبقى شرطيّ واحد في الشارع حين يرون أن البيت يتعرّض للنهب؟ أراهنك على قطع رأسي أن الجميع سيركضون للحصول على جزء من الغنيمة.

أليس من الأسلم أن تذهب وتكلّمهم، بعد أن جئت لتقدم ليَ يد المساعدة، وهم يعلمون أنّك..

ليس هناك أيّ داع لذلك. لاشيء! عندما يرون الباب مفتوحا سيقولون: «الوليمة من هنا».. وسيدخلون ولعابهم يسيل. وزيادة على ذلك هم يعلمون أني في الجوار، وسمعتي بينهم طيبة منذ دخلت مع أنطوان أيلول إلى بيت الراهب الذي ما إن رآنا ننزل من العلّيّة حتى أعطانا مفاتيح الخزانة دون أن ينطق بأية كلمة. ووجدنا المال هناك، ملفوفا في منديل حتى لا ترنّ عند السقوط. كم ضحكنا يومها! بعد ذلك تناوم، نعم فليس لنا ما نقول. ثم هؤلاء الرجال هنا، مستعدّون لفعل أي شيء»، واصل فاسكاز وهو يشير إلى مجموعة الرجال العصبيين الذين يشربون الكؤوس تباعا، وهم يلقون الشراب في حلوقهم، وبالكاد يفرغ الكأس حتى يملؤون آخر.. «صدّقني أنهم رجال مصمّمون على تنفيذ ما أمرتهم به».

رفع وجه الملاك كأسه ودعا فاسكاز ليشربا نخب الحب. انضمّت إليهم الأفعى وهي تمسك كأسا من الباستيس. وشرب الثلاثة.

في الظلّ، كان وجه الملاك، حذرا، فأمر ألّا يشعلوا نورا سوى شمعة النذر أمام صورة العذراء، تعكس أجساد الرجال عراة الصدر ظلالا غريبة، متمددة على الجدران التي بلون الحقول الجرد كغزلان، وبدت القوارير على الرفوف كنيران من الألوان. الكل يتابع عقارب الساعة، والبصاق يضرب الأرض كالرّصاص. ينتظر وجه الملاك منعزلا، ظهره متكئ على الجدار، قرب صورة العذراء،

تتابع عيناه المتيقّظتان، من أثاث إلى آخر الفكرة التي تلحّ عليه في المواقف الصعبة: أن تكون لديه زوجة وأطفال. ابتسم داخليًا وهو يتذكر حكاية ذلك السجين السياسي المحكوم بالإعدام الذي زاره المحقّق قبل نصف يوم من إعدامه، وقد أرسلته السلطة لمنحه فرصة، وربما عفوا عنه إذا رجع عن أقواله. «إذن! العطف الذي أريده هو أن أترك طفلا»! قال السجين بغتة. «لك ذلك»! قال المحقق، وأرسل لجلب مومس، وهو يعتقد أنه يقوم بعمل روحي. أعاد المحكوم الفتاة دون أن يلمسها. وعندما عاد الآخر قال له: «يكفينا العدد الموجود من أبناء المومسات!..» ابتسامة صغيرة أخرى غضّنت وجنتيه، فكّر: «كنت مدير مدرسة، ثمّ مدير جريدة، ثم دبلوماسياً، عضوا في مجلس النواب، رئيس بلدية، والآن لست أي شيء أكثر من رئيس عصابة من الأشرار!.. اللعنة، على هذه الحياة!

«That is life in the tropic!»

دقّتا ناقوس انطلقتا من حجر الرحمة.

الجميع إلى الخارج! صاح وجه الملاك، وهو يرفع مسدسه، ثم متوجّها إلى الأفعى: «سأعود مع كنزي بعد قليل».

هيّا إلى العمل! صاح فاسكاز، وهو يتسلق كزاحفة، نحو إحدى نوافذ منزل الجنرال، يتبعه اثنان من الشركاء، والويل للجبناء!

مازالت أصداء الدقتين ترنّ في منزل الجنرال.

كاميليا، هل ستأتين؟

نعم، أبتي.

يلبس كناليس، سروال فارس وسترة خالية من النياشين والأوسمة، تعلوها رأسه البيضاء دون أي سواد. ارتمت كاميليا بين

أحضانه دون دمعة، دون كلمة. لا تفهم الروح الفرح أو التعاسة، إذا لم تتهجاها من قبل. يجب أن نعض بشدة المناديل المالحة بالدموع، وأن نمزقها قطعا بأسناننا. بالنسبة لكاميليا، كل هذا ليس أكثر من لعبة أو كابوس، الواقع، لا يمكن أن يكون هذا هو الواقع. شيء يصيبها أو يصيب، هذا مستحيل. احتضنها الجنرال كناليس ليودعها: «هكذا قبّلت أمك آخر مرّة قبل الذهاب إلى الحرب لأدافع على الوطن. المسكينة اعتقدت أني لن أعود، ولكنها هي التي لم تنتظرني».

أبعد العسكري العجوز ابنته حينما سمع خطوات فوق السطح، وشق صحن الدار بين أصص الزهور والأشجار متّجها نحو الباب الخلفي. روائح كل شجرة كل نبتة كلوردة تقول له وداعا. رائحة الفخار تقول له وداعا، والضوء المنبعث من النوافذ. انقطع النور الكهربائي فجأة على كل المنزل. الهروب ليس لائقا بجنديّ.. لكن فكرة الرجوع إلى الوطن على رأس ثورة تحريرية..

كما توقّع المخطط، وقفت كاميليا في الشبّاك وبدأت في الصراخ:

اللصوص! اللصوص!

قبل أن يضيع صوتها في ظلمة الليل الرهيب، جرى أوّل رجال الشرطة الذين يراقبون أمام المنزل، وهم ينفخون في أصابع صفّاراتهم الفارغة. صوت ناشز من المعدن والخشب. دخلوا سريعا من الباب الذي يفتح على الشارع الرّئيسي. ظهر عناصر آخرون في المفترقات بملابس مدنية، دون أن يعلموا ما يحدث، لكنهم بقوا على الحياد، لأنهم لا يعرفون سيّد الموت وهو يسنّ رماحه، وجهه مغطّى بقبّعته وياقة المعطف مرفوعة. الباب المفتوح ابتلعهم جميعاً.

نهر تشقّه زوبعة. هناك أشياء كثيرة غير منظمة في نظر أصحابها. قطع فاسكاز الخيط الكهربائي وهو يصعد السطح. أصبحت الممرات والأروقة ظلاما شديدا. بعضهم يقدحون أعواد الثقاب ليجدوا الخزائن، الصوان، والأدراج، ويفتشونها بلا حياء من الأعلى إلى الأسفل بعد كسر الأقفال والبلور بأعقاب المسدسات، أو يطيّرون بضربات الإطارات الخشبية الفخمة. آخرون، تائهين داخل الصالون، في لخبطة الظلام الدامس، يقلبون الكراسي والطاولات والأطر البديعة والصور العائلية، أو يصطدمون ببيان ومذيّل نصف مفتوح، فيصدر أنّات كحيوان مضروب.

على البعد نسمع ضحك الأشواك والسّكاكين والملاعق المشتّتة في المطبخ، وفجأة نسمع صيحة سرعان ما كتمت بضربة. المربية تخفي كاميليا بين الجدار والخزانة في غرفة الطعام. دحرجها المحظيّ بلطمة مفاجئة. نشبت ضفائرها في مقبض باب خزانة الفضيات فتشتّت محتوياتها على الأرض. أسكتها فاسكاز بعصا. ضرب متّبعا الصّوت، حيث لا يمكنه حتى رؤية يده.

الجزء الثاني

٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧ ابريل

(١٢)

كاميليا

كانت تقضي الساعات في غرفتها أمام المرايا. تقول لها مربيتها: «سيخرج لك الشيطان من المرآة من كثرة تهريجك الأخرق!» فتجيبها كاميليا: «أكثر شيطنة مني؟» بشعرها كالنار السوداء، غير المرتب، ووجهها البرونزي اللامع من أثر زبدة الكاكاو ـ تلك طريقتها في تنظيفه ـ وعيناها الخضراوان المشقوقتان بانحناء حتى الصدغ. أنها كناليس الصينية، كما يلقبونها في المعهد، تبدو وهي في ميدعتها المدرسية التي تغطيها حتى أخمص قدميها كامرأة صغيرة، قليلة الجمال، مليئة بالنزوات والفضول.

خمسة عشر عاماً ـ تقول أمام مرآتها ـ ولست سوى أتان صغيرة، بكثير من الأعمام والعمات، وأبناء وبنات الأعمام أسرابا كالحشرات.

كانت تجذب شعرها، وتصرخ، وتقوم بتكشيرات مضحكة. يسوؤها أن تنتمي لهذا السرب من الأشخاص من نفس العائلة، أن تكون الصغرى، أن تذهب معهم إلى الاستعراضات العسكرية، أن تذهب معهم إلى أيّ مكان. إلى القداس الكبير، إلى جبل الكرمل لتركب الحصان الأشقر، لتتجول حول مسرح كولومبس، أن تنزل لتتسلق منحدرات الوديان قرب سول.

كان أعمامها فزاعات بشوارب، بأصوات الخواتم في أصابعهم. أبناء أعمامها خرْق، قليلو التربية، ومقلقون. عماتها نساء لا يعجبن أحد، على الأقل هي تراهم هكذا، ساخطة، لأن بعضهم، أبناء أعمامها، يهدونها حلوى مزيّنة بأعلام صغيرة، كأنها مازالت طفلة. الآخرون ـ الأعمام ـ يداعبونها بأياديهم العطنة برائحة السيجار، يمسكون خديها بين الإبهام والسبابة ليديروا رأسها يمينا وشمالا ـ لا شعوريا تشنج كاميليا رقبتها ـ أو لأن العمات يقبّلنها دون أن ينزعن النقاب عن وجوههن، فيتركن لها إحساس شبكة عنكبوت لاصقة بلحمها مع لعاب.

مساء يوم الأحد، تنام أو تجلس في الصالون قلقة، تعبة من التفرج على الصور القديمة في ألبوم العائلة، دون حساب الصور المعلّقة على الجدران المغلّفة بالأحمر أو الموضوعة على الخزائن الصغيرة أو المناضد الرخامية والطاولات المفضضّة، بينما أبوها يشخر أو ينظر من الشباك، أو يوزّع «صباح الخير» على المارة والجيران والمعارف الذين يحيّونه في طريقهم. يرفعون قبّعاتهم. أنه الجنرال كناليس، والجنرال يردّ بصوته الجهوري: صباح الخير.. إلى اللقاء.. سعيد برؤيتك.. صحّة جيّدة..

الصّور: أمها في لباس العروس الشابة، لا يرى منها سوى أصابعها ووجهها، الباقي كان مواليد الطبيعة الثلاثة، آخر موضة في فستانها الطويل الذي يصل حتى أخمص قدميها، وقفاز حتى المرفق، الجيد مغطى بالفرو، قبّعة مزركشة بالأشرطة والريش، تحت مظلّة بشرائط من الدانتيلا، عمّاتها مخادعات مطرّزات مثل أثاث صالون، الشعور كأنها مبلّطة، وعلى الجبين تيجان صغيرة، صديقات ذلك العصر، واحدة بشال من القنّب وأمشاط في الشعر والمروحة، وأخريات كالهنود بالنعل والزيّ الهندي وأغطية بأباريق على

الكتفين، وخمار بحليّ وجواهر ـ خدّرت الصور شيئاً فشيئا كاميليا المخدّرة بالغروب وأحاسيس وإهداءات ناعمة: «هذه الصورة ستتبعك كظلي». ««معك، في كل لحظة، عربون رقيق عن حناني. ««لو محا النسيان هذه الكلمات، ستنطفئ ذكراي». أسفل صور أخرى نقرأ فقط بين زهرات مجفّفة آيات الحبّ باهتة: «تذكر ١٨٩٨»، «.. الهائمة»، «إلى ما بعد القبر»، «المجهولة..».

يحيّي أبوها المارّة عبر الطريق المقفرة، لكن صوته يرنّ في الصالون كرُدود على الإهداءات. «هذه الصورة ستتبعك كظلّي». «أنا سعيد بذلك، اهتمي بصحّتك!.. ««معك في كل لحظة، هذا عربون رقيق عن حناني»» إلى اللقاء، صحّتك جيّدة!.. ««لو محا النسيان هذه الكلمات، ستنطفئ ذكراي». «في خدمتك، بلغي سلامي لأمك!»

أحيانا يهرب صديق من ألبوم الصور، ويقف ليتكلم مع الجنرال قرب النافذة. تتبعه كاميليا من وراء الستارة. كان ذلك الذي يظهر في الصورة، بشكله المهيب، شابّا، نحيفا، بحاجبين سوداوين، بسروال تزينه مربعات، وسترة طويلة، وقبعة نصف عالية، من الطراز الذي يلبسه متأنقو نهاية القرن الماضي.

ابتسمت كاميليا وهي تقول لنفسها: «كان من الأجدر أن تبقى، سيدي، وفيّا لصورتك، ستبدو عتيقا، سيسخرون من كسوتك المتحفية، لكنّك لن تكون ذا كرش، أصلعا، بأوداج منتفخة كأنك تمتصّ الحلويات».

من خلف ظل الستائر المخمليّة برائحة الغبار، تنظر كاميليا من خلف بلور إلى المساء الربّاني، بعينيها الخضراوين. لا شيء يقطع نظراتها الممتدّة عبر الشارع.

خلف قضبان الشرفة البارزة التي تفصلهما، يجلس أبوها وذراعاه غائصتان في المساند الحريرية، وأكمام قميصه القطنيّ تلمع، وصديق يبدو حميما، يضيّع الوقت. رجل صفراوي، بأنف أعقف، وشوارب صغيرة، وعصا بمقبض ذهبي. الصدفة جعلته يمرّ من الشارع، أوقفه الجنرال بقوله: «منذ زمان لم أتمتع برؤيتك قرب *الرحمة* أنها معجزة حقيقية!» كاميليا وجدته في ألبوم الصور. ليس من السهل التعرّف عليه، بالتثبت جيداً في الصورة، استنتجت أنه كان يملك أنفا مناسبا، ووجها رقيقا، ووجنتان ممتلئتان. حقّا إن الزمن يترك علاماته على الأشخاص الآن، له وجه بارز التقاطيع والخدود بارزة، وقوس الحاجب فارغ، والفكّ متيبّس، وهو يتكلم مع الجنرال بصوت بطيء وأجشّ، كان يقرّب مقبض العصا من أنفه، كأنما يشمّ الذهب.

العظمة في الحركة ما زالت هي نفسها في الحركة. كل ما فيها ثابت، متحرّك. عندما رأت البحر أول مرّة، قفزت عبارة المفاجأة إلى شفتيها، ولكن عندما سألها أعمامها عما يثير المشهد من أحاسيس داخلها، أجابت بنبرة شخص مهمّ: «كنت أعرف كل هذا من الصور!..»

يحرّك الهواء القبّعة ذات الحواف العريضة التي تبدو في يدها، كطوق أو عصفور دائريّ. بينما أبناء أعمامها فاغرو الأفواه يخرسهم الذهول، كما يخرس صوت الأمواج الطاغي كلمات العمّات. ما أروعه! هل هذا ممكن؟ كل هذا الماء! كأنه يعبّر عن غضب مكتوم! انظروا هناك.. أنها الشمس تغرب! ألم ننس شيئاً في القطار ونحن نسرع بالنزول؟.. علينا أن نتثبّت من أن كل شيء على ما يرام.. يجب أن نعدّ الحقائب!..

يبتعد أعمامها في طابور طويل نحو النزل، محمّلين بالحقائب

المعبّأة بالملابس الخفيفة للبحر، تلك الملابس المجعّدة، كعنب مجفّف يعرضه المصطافون، وعناقيد جوز الهند التي تتخطفها النسوة من أيدي الباعة في المحطات فقط لأنها رخيصة الثمن. إضافة إلى حزم منوّعة من البضائع والقفاف.

لقد لاحظت ما قلت، قال أخيراً أحد أبناء عمها، ـ دفق من الدمّ تحت الجلد يضفي على بشرتها البرونزية لونا قرمزيا، عندما يكلمها أي شخص ـ لم آخذ كلامك بحرفيّته. أعتقد أنك أردت القول إنّ البحر يشبه الصور المتحركة في أشرطة الرحلات، ولكن أكبر حجما.

لقد سمعت كاميليا من قبل بهذه الصور المتحرّكة التي تعرض قرب باب الرّحمان، في *الأبواب المائة* لكنها تجهل كيف تكون، وليس لديها أيّة فكرة عنها، لكن اعتمادا على ما قاله ابن عمها، يمكنها تخيّلها عبر النظر إلى المحيط. كل شيء في حركة، لا شيء ثابت. صورة بعد صورة تتطابق، تنتشر في أحزمة لتكوّن منظرا خاطفا دائم التجدّد، في حالة ليست الجماد ولا السّيولة ولا الغازية، لكنها حالة الحياة في البحر: حالة الضّياء. في المناظر مثلما في البحر.

تواصل كاميليا، وأصابعها مضغوطة في النّعل، وعيناها مشدودتان إلى كل شيء في نفس الوقت، تتأمّل ما لا يستطيع نظرها التخلّص من تأمّله. أحسّت في اللحظات الأولى أن أحداقها تفرغ لتتمكّن من استيعاب العظمة، الآن تملأهما العظمة: أنه المدّ المتصاعد، من جديد، نحو العيون.

تنزل، يتبعها ابن عمّها شيئاً فشيئا نحو البحر (ليس من السهل المشي في الرّمال) لكي تكون أقرب إلى الأمواج، ولكن عوض أن

يمدّ لها يدا، رماها المحيط بصفعة ماء أغرقت ساقيها. لم تستطع ـ من المفاجأة ـ أن تتراجع، إلا بعد أن تركت له ذكرى، قبّعتها الوردية، التي تبدو الآن كنقطة صغيرة وسط الأمواج، وبعد صرخة طفلة مدلّلة تهدّد أن تشكو لأبيها: آه!.. وا!..

دون أن تشعر هي ولا ابن عمّها، نطقت كاميليا فعل «أهوى» وهي تهدّد المحيط، كانت السماء بلون التّمر الهندي، وفي المكان الذي تغرب فيه الشمس تجعل الأخضر العميق للماء باهتا.

لماذا تقبّل ذراعها على الشاطئ وهي تشمّ بشرتها المالحة المتوهّجة؟ لماذا تفعل بالمثل مع الثّمار التي يمنعونها من أكلها، وهي تقرّبها من شفاهها المطبقة وتشمّها؟ الحامض يضرّ الفتيات الصغيرات، تقول عمّاتها في النزل، مثل القفز بأرجل مبلّلة. قبّلت كاميليا أباها ومربّيتها دون أن تشمّهما. قبّلت ـ وهي تحبس أنفاسها ـ قدم مسيح الرّحمة كجذر مكسور. عندما لا نشمّ ما نقبّل فإن القبلة لا معنى لها. علّمتها بشرتها المالحة، والسفرجل وكوز الصنوبر، أن تقبّل وهي تفتح منخريها المتلهفين.

ولكن من النظرية إلى الواقع، لا تعلم كاميليا إن كانت تشمّ أو تعضّ، حينما في نهاية الموسم، قبّلها ابن عمها الذي يتحدث عن المناظر المتحركة ويتْقن تصفير التانغ والأرجنتيني، على فمها.

عندما عادت إلى العاصمة، لم تكفّ كاميليا عن الذهاب مع مربّيتها للتّفرج على الصور المتحرّكة. أنها في ركن باب الرحمان عند *الأبواب المائة*. تذهبان خفية عن أبيها، مرتعشتان تعضّان الأصابع، وتتمتمان بالدعوات. تتشبثان بالكراسي قرب الستارة البيضاء حتى لا تفرّان من القاعة التي تغصّ بالناس. يقع تجريب الآلات، العدسات والكشّافات، التي تطقطق كالفحم، وتصدر النور الساطع في الشوارع.

فجأة يسود الظلام في الغرفة. تشعر كاميليا أنها تلعب الغميضة.. على الشاشة، كل شيء متداخل. صور بحركات الجنادب. ظلال أشخاص يبدون كأنهم يمضغون حين يتكلمون، يقفزون وهم يمشون، يتفكّكون حين يحرّكون أياديهم. تعود لها، واضحة، ذكرى اختبائها مع ولد في غرفة يدخلها الضوء، فقط، من نافذة صغيرة. نسيت الصور. قنديل أرواح المطهّر يسيل في الركن الأكثر عتمة، أمام مسيح من السلولويد يكاد يكون شفّافا. اختبآ تحت فراش. تمدّدا على الأرض. الفراش لم يكفّ عن الصّرير. كان أثاثا عتيقا، نخره السّوس، لا يرغب أن يقلقه أحد. «ك وكو!» يسمعان في آخر صحن الدار. «كوكو! كوكو!..» يسمعان عند الباب. حين سمعت كاميليا خطوات الذي يبحث عنهما وهو ينادي بصوت مرتفع: «أنا آت لضربكم على الرأس!» انتابتها رغبة في الضحك. رمقها رفيق المَخْبَإِ بنظرة محذّرة، كي يسكتها. فأخذت النصيحة بجدية، لكنها لم تتمكن من ضبط نفسها حين شمّت رائحة النتانة تخرج من درج طاولة صغيرة، وكادت تطلق ضحكة لو لم تمتلئ عيناها برمل رقيق تحول إلى دموع حين أحسّت بالضربة على الرأس.

وكما كانت تخرج قديما من مخبئها، تخرج من قاعة العارض، وعيناها مغرورقتان بالدموع، مسرعة مثل الذين يغادرون كراسيهم نحو الباب في العتمة. لا يتوقفون إلا عند *باب التّجارة*. هناك تعرف كاميليا أن الجمهور فرّ خوف الحرْم. على الشاشة امرأة بفستان لاصق ورجل تتدلّى خصلة على جبينه يرقصان التانغو الأرجنتيني.

يخرج فاسكاز إلى الشارع بسلاحه، وبالعصا التي أخرس بها المربية شابيلا، بعد إشارة منه، ظهر وجه الملاك بين يديه ابنة الجنرال.

بدأ البوليس بالفرار بمسروقاته حينما اختفوا في «توتاب».

بالنسبة لرجال الشرطة، من لم يخرج بسلحفاة نادرة على ظهره، خرج بساعة حائطية، أو خزانة، تمثال، صليب، دجاج، إوزّ، حمام، كل ما خلق الله، ملابس رجالية، أحذية نسائية، تحف صينية، ورود، تماثيل قديسين، أواني، مصابيح، ثريّا، شمعدان، قناني دواء، صور، كتب، مطريات لمياة السماء ولمياة البشر.

صاحبة حانة «توتاب» تنتظر وقضيب من الحديد بيدها مستعدة لغلق الباب عند دخولهم. لم تفكر كاميليا قط بإمكانية وجود هذا الكوخ القذر برائحة الزرابي العفنة، على بعد خطوتين من منزلها، حيث تعيش محاطة بدلال العسكري العجوز، الذي كان بالأمس سعيدا، من يشكّ، بعناية مربيتها التي ضربت اليوم بشراسة، من يشك، زهور صحن الدار التي كانت بالأمس نديّة زاهية، ها هي اليوم مدمرة، قطّتها هربت، بلبلها سحق مع قفصه. عندما نزع عنها المحظيّ العصابة عن عينيها، التي صنعها من شاله الأسود، اعتقدت أنها بعيدة جداً عن منزلها.. مرّرت يديها، مرتين أو ثلاث، على وجهها، وهي تنظر في كل الجهات لتعرف مكأنها. غاصت أصابعها في صيحة فزع عندما استوعبت مأساتها، أنها لا تحلم.

آنستي.. (حول جسمها المتيبس، الثقيل، صوت الذي أنبأها هذا المساء بالمصيبة).. هنا أنت لا تخشين شيئا، ماذا يمكنك أن نقدّم لك كي نُبعد عنك الفزع؟

فزع الماء وفزع النار! قالت صاحبة الحانة وهي تسرع نحو الكانون الذي تستعمله كموقد، لتبحث عن بعض الجمرات، لحظات استغلها فاسكاز لغزو بارها، وعانق، قنينة خمر فاخرة، وأفرغها دون أن يتذوّقها، كأنها عرق رديء.

جعلت صاحبة الحانة بنفخها القوي للنار عيونا، وهي تكرّر بين

أسنانها: «نارا أريد، أريد نارا!» خلفها على جدار الدكّان ينزلق ظِلّ لوشيو، محمرّا بوهج الجمر، إلى الصحن.

هنا، قال لها.. تكلم لوشيو بصوته المخنّث، من واحد يخرج دائماً مائة.. وأيضاً ألف. من يعش بالعرق الرديء، بالعرق الرديء يموت..

اتّخذ الماء الذي ملأ كأسا لون شخص مرعوب عندما سقطت فيه الجمرة وانطفأت. مثل نواة ثمرة جهنمية طفت الفحمة السوداء التي رمتها الأفعى مشتعلة، وسحبتها بملقط مطفأة. وكانت تردّد: «رعب الماء ورعب النار!» بعد الجرعات الأولى استعادت كاميليا صوتها!

وأبي؟ كانت أولى كلماتها.

اهدئي. لا تقلقي، اشربي بعض الماء المجمّر. لم يحدث شيء للجنرال. أجابها وجه الملاك.

هل أنت متأكد؟

أرجّح ذلك..

لكن المصيبة..

اسكتي، لا تجلبيها!

نظرت كاميليا مرة أخرى لوجه الملاك. تعبير الملامح يقول غالبا أكثر من الكلمات. لكن عينيها تاهتا في حدقتي المحظيّ السوداوين والخاليتين من أي تعبير.

عليك أن تجلسي يا صغيرتي، قالت الأفعى التي عادت، وهي تسحب المقعد الذي كان فاسكاز يجلس عليه، هذا المساء عندما

دخل السيد شارب البيرة صاحب الورقة النقدية الكبيرة الحانة لأول مرة..

هذا المساء، مرّت سنوات على هذا المساء، فقط بضع ساعات؟ ينقل المحظيّ بصره بين ابنة الجنرال وضوء الشمعة المهداة للعذراء. فكرة إطفاء الشمعة والقيام بهجوم مفاجئ يجعل عينيه أكثر سوادا. انفخ، و.. ستكون لك، بالرضا أو بالقوّة.

لكنّه نظر من صورة العذراء إلى كاميليا المنهارة على الكرسي، حين رأى هذا الوجه المغطى بالدموع، الشعر المشوش، وجسم الملاك بالكاد تكوّر، تغيّرت تعابيره، أخذ منها الكأس وقال لنفسه بروح أبوية: «مسكينة هذه الصغيرة!»

تزامنت نحنحة صاحبة الحانة لتفهمهما أنها تتركهما معا، ولعناتها حين اكتشفت فاسكاز ثملا، نائما في الصحن، يعبق برائحة الورود الخمرية التي تغطّي الصحن الخلفي للحانة، بنوبة بكاء جديدة لكاميليا.

أنت، يمكن القول أنّك خنزير رائع ـ تحوّلت الأفعى على عاصفة ـ ثرثار، لا تصلح إلا لتسبب مرض الصفراء! لهم الحق في القول إن معك تكفي طرفة عين كي نخسر اللعبة! تقول إنّك تحبّني! هذا واضح.. هذا واضح!.. بالكاد أدرت ظهري حتى بلعت القنينة! من يراك تشربها يقول أنها لم تكلفني شيئا!.. كأني أخذتها دينا!.. أنها أهديت لي.. أيها اللصّ!.. اخرج من هنا وإلا طردتك بركلات!

الصوت المتمسكن للسكران، ضربات رأسه على الأرض حين أحسّ بالأفعى تسحبه من قدميه.. أغلق الهواء باب الصحن الصغير. لم نعد نسمع شيئا.

انتهى كل شيء، هيّا، انتهى.. يقولها من وقت لآخر وجه الملاك

في أذن كاميليا التي تبكي. انتهى، كفّي عن البكاء، أبوك لا يخشى أي خطر، وأنت، مختبئة هنا، لا يمكنك أن تخشي شيئا. أنا هنا لأدافع عنك!.. يجب ألّا تبكي، هذا يجعلك أكثر عصبيّة. انظري إليّ دون بكاء وسأفسّر لك كيف حدث كل هذا..

شيئا فشيئا، نزفت دموع كاميليا. يداعب وجه الملاك شعرها، أخذ منديلها من يدها ويدأ يجفّف دموعها. لمسة أولى بالجير والدهن الوردي: يطلّ الصباح في الأفق، بين الأشياء وتحت الأبواب، الكائنات تحسّ بالآخرين قبل أن تراهم. الأشجار التي تجنّ بالرّغبة في الزغاريد دون أن تتمكّن من الحكّ. انفتاح وانفتاح، الينابيع.

يجب عليك أن تهدئي، وإلا فإنّك ستفسدين كل شيء ستعرّضين نفسك وأباك للخطر، وستعرّضينني أنا أيضاً للخطر. الليلة سأعود لآخذك عند أعمامك. المهمّ أن نكسب الوقت، يجب الكثير من الصبر لترتيب بعض الأمور.

أنا لا أتألّم من أجلي، بعد الذي قلته، أحسّ أني في أمان. لن أنس جميلك أبداً. أفهم كل شيء، عليّ أن أبقى هنا. ولكني أقلق من أجل مصير أبي. أتمنى أن أتأكّد من سلامته.

أعدك أنّي سأوفيك بأخباره..

اليوم بالذات؟

اليوم بالذات.

قبل أن يخرج، التفت وجه الملاك ليربّت على وجنتها بحنان.

هدو ـ و ـ و ـ ء.

أريد أخبارًا.. أجابت ابنة الجنرال كناليس وعيناها تمتلئان من جديد دموعا.

(١٣)

إيقاف

في لهفتها للخروج بسرعة لم تتوقف زوجة رودس حتى للتزوّد بالخبز ـ إلى الجحيم بائعات الخبز ـ عند تمام الساعة السادسة صباحاً تركت زوجها ممدّدا على الفراش بكامل ملابسه كخرقة، وطفلها نائما في القفة التي تستعملها كمهد.

قُرعت أولى دقات ساعة الرحمة حين طرقت باب منزل الجنرال. فليغفروا لي التشويش، وإيقاظهم في الصباح الباكر، فكّرت ومطرقة الباب بيدها لتعيد الطرق. إذن هل سيفتحون، أم لا؟ يجب أن يعلم الجنرال في أقرب وقت كل ما رواه لوشيو فاسكاز لزوجي المخبول، في حانة تدعى يقظة الأسد.

توقّفت عن الطرق، وفي انتظار أن يفتحوا لها الباب بدأت تحوصل: «المتسولون سيلصقون به جريمة القتل في باب الرحمان، هذا الصباح سيأتون لإلقاء القبض عليه، سيختطفون الآنسة..»

«هذا هو الأدهى! هذه المصيبة، هذا هو الأدهى!» تكرّر لنفسها وهي لا تكف عن الطرق.

ودقّة قلب فوق أخرى. يوضع الجنرال في السجن؟ حسنا، السجن للرجال، فليبق في السجن. ولكن أن يأخذوا الآنسة.. بحق دم المسيح! التدنيس لا يمكن إصلاحه. وأراهن بوضع رأسي تحت

المقصلة، إن لم يكن تدبير بعض التّيوس الذين بلا رجولة ولا حياء، الذين يأتون إلى المدينة بالآلات التي يستعملونها في الغابات.

تطرق مرّة أخرى. المنزل، الطريق، كل شيء كما في الطبل. أنه أمر مؤسف جدّا ألّا يفتحوا لها. بدأت تهجّي اسم الحانة المجاورة كي لا تحسّ بمرور الوقت: «التوتاب..» ليس طويلة بما يكفي لتمضية الوقت، لولا الرسوم على جانبي الباب؛ من جهة رجل، وامرأة من الجهة أخرى: من فم المرأة تخرج كلمات: «تعال نرقص توتاب صغير»، ووراء الرجل الذي يمسك قنينة بيده: «لا. فأنا أرقص توتاب كبير».

تعبت من الانتظار ـ لا يوجد أحد في المنزل أو أنهم لا يريدون أن يفتحوا ـ دفعت الباب. امتدّت يدها لتصل إلى.. أنه منفرج، عدّلت شالها وعبرت المدخل حتى وصلت الممرّ وهي لا تعي شيئا، مجمّدة كعصفور برصاص الصياد، دمها منحسر، وتنفسها قصير، وبصرها زائغ، تجمّدت أطرافها عند رؤية الأصص مهشمة، مبعثرة على الأرض، والرياحين التي كانت تحويها على الأرض، الشبابيك مكسّرة وكذلك المرايا، الخزانات مبقورة، الأقفال مخلوعة، الأوراق والملابس والأثاث والزرابي كلها مدمّرة، كلّها شاخت في ليلة واحدة، كلّها في كدس حقير، مزبلة دون حياة، دون حميميّة، وسخة، دون روح..

تهيم المربّية شابيلا على وجها وجمجمتها مهشّمة، كشبح بين أنقاض العشّ المهجور، باحثة عن الآنسة: آه ـ آه ـ آه!.. ـ تضحك ـ هي ـ هي ـ هي! أين اختبأت، آنسة كاميليا؟.. سآتي لأضربك الضربة التي اتفقنا عليها!.. لماذا لا تجيبين؟ كوكو! كوكو! كوكو!..

تعتقد أنها تلعب الغميضة مع كاميليا وتبحث عنها في الأركان

والزوايا، بين الورود، تحت الأسرّة، خلف الأبواب، تدور كإعصار.. آه! آه! آه!.. هي! هي! هي!.. أوه! أوه! أوه!.. كوكو! كوكو! كوكو! كوكو، أنا هنا! اخرجي آنستي كاميليا، لم أجدك! اخرجي صغيرتي كاميليا. تعبت من البحث عنك! آه! آه!آه! اخرجي.. كوكو!.. سآتي لأضربك الضربة التي اتفقنا عليها!.. هي! هي! هي! أوه! أوه! أوه!

ابحث عمّن ابحث، اقتربت من المسبح، وحين رأت صورتها على الصفحة الهادئة للماء، صاحت كقرد مجروح، وأصبحت الصيحة ارتعاشا بين شفتيها، شعرها على وجهها وعلى شعرها يداها، انحنت شيئاً فشيئا حتى تهرب من هذا المنظر المريع. همست جمل استغفار كأنها تستغفر من نفسها لأنها أصبحت بهذا القبح، بهذه الشيخوخة، بهذه التفاهة، لأن شعرها أشعث لهذه الدرجة.. فجأة صاحت صيحة أخرى. عبر قضبان المطر التي يرسمها شعرها، وسياح أصابعها، رأت الشمس تقفز من السطح، وتسقط فوقها وتنزع عنها الظل الذي تتأمله في الساحة، قامت بجنون الغضب وبدأت تضرب ظلها وصورتها، ضاربة الماء والأرض، الماء بيديها والأرض بقدميها. أرادت أن تمحوهما. يتلوى الظلّ كحيوان يضرب بالسوط ولكنّه لم يختف، رغم رفسها المتواصل. يتمزّق وجهها في رعب الماء المضروب، لكنّه يعود حالما تهدأ الاضطراب. تصرخ المربية شابيلا كوحش غاضب، لأنها عجزت عن تدمير غبار الفحم الموزع على الصخور، الذي يفرّ من ضرباتها كأنه يحسّها، كذلك هذا الغبار اللامع فوق الماء والذي تشوّش بصفعاتها القوية أو تحت اللكمات.

أصبحت ساقاها مكسوّة دماء، وسقطت يداها من التعب، بينما بقيت صورتها وظلها غير قابلين للتدمير.

ارتمت، من كثرة التشنّج وجنون الغضب، بيأس من يقامر بكل شيء، دافعة رأسها في اتجاه النافورة..

سقطت زهرتان في الماء..

غصن شجيرة ورد شائك قلعت عينيها..

ارتدّت على الأرض مثل ظلّها، وانتهت جامدة عند جذع شجرة برتقال لوثتها نبتة متسلقة بالدماء..

تمرّ موسيقى عسكرية في الطريق. يا له من عنف، ويا له من لحن عسكري! يا للعطش لأقواس النصر! ورغم مجهود الأبواق للنفخ بقوة وعلى الدرجة الصحيحة، فإن الناس أبعد ما يكون عن الحماس الذي يبديه الأبطال صباحا، وهم يرون السيف ـ عاطلا ـ لمدّة طويلة، في سلام القمح الناضج، يفتح الناس عيونهم على أفق يوم احتفالي ويقرّرون بخنوع أن يدعون الله أن يحفظهم من الأفكار السيئة، والأقوال السيئة، والأفعال السيئة ضدّ السيد الرئيس.

خارجة من إغماءة صغيرة، تسمع شابيلا المربية الموسيقى. كانت في الظلمة. مؤكد أن الآنسة جاءت من الخلف على أطراف أصابعها وأغمضت عينيها. «آنسة كاميليا، أعلم جيداً أنك أنت، دعيني أرى». همهمت المسكينة وهي ترفع يديها إلى وجهها كي تبعد عن أجفانها أصابع الآنسة التي تؤلمها كثيرا.

تدق الريح بسنابل الذرة أصواتا في الطريق المحدودب. الموسيقى وليل العمى الموضوع على عينيها كلعبة طفل، حملا ذكرياتها نحو المدرسة هناك في قريتها القديمة حيث تعلمت أول الحروف. قفزة في الزمن، ورأت نفسها قد كبرت، جالسة عند ظلّ شجرتي مانجا. ثم، مباشرة، بعد ذلك مباشرة، بقفزة أخرى، على عربة يجرّها

ثوران في طريق مستقيم برائحة التبن، صرير العجلات يدمي، كتاجي شوك، صمت سائق العربة الذي جعل منها امرأة اجترّ كي أجترّ، يجرّ الثوران الخاضعان سرير الزواج. نشوة السماء في السهل الممتدّ.. لكنّ الذكرى تتفكّك فجأة، وترى سيل الرجال يتدافعون إلى المنزل بتهوّر شلال.. لهاثهم الأسود، صيحاتهم الجهنمية، شتائمهم، ضحكاتهم العالية، البيان والذي يصيح حتى يبحّ كمن يقلعون أسنانه بالأيدي، ثمّ الآنسة التي ضاعت كعطر، وأخيرا ضربة قوية على الجبين مصحوبة بأنّة غريبة وظلّ ضخم.

وجدت *فدينا* زوجة رودس *شابيلا* المربية ممدّدة على الأرض في الساحة، وجنتاها تغرقان في الدمّ، وشعرها أشعث، وملابسها ممزّقة، تقاوم الذباب الذي ترميه أيادي لا مرئيّة على وجهها بالعشرات، وكمن قابل شبحا هربت فدينا خلال الغرف، مملوءة رعبا، وهي تردّد بهمس: «المسكينة! المسكينة!

أمام نافذة، على الأرض، وجدت الرسالة التي كتبها الجنرال إلى أخيه خوان كي يترك *كاميليا* عنده.. لكن فدينا لم تكمل قراءتها، لأن صيحات *المربية شابيلا* تملؤها رعبا، فكأنها تخرج من المرايا المكسورة، من البلور المفتّت، من الكراسي المهشّمة، من الخزائن المخلوعة، من الأطر الساقطة، ثم لأنها تفكّر في الفرار من عشّ الدبابير. مسحت العرق على وجهها بالمنديل المطوي، الذي تمسكه بعصبية بيدها المزيّنة بخواتم رخيصة، وضعت الورقة في صدرها وهربت مسرعة.

ولكن هيهات! أوقفها عسكري بوجه صلب عند الباب. الجنود يطوّقون المنزل. من صحن الدار يصعد صوت المربيّة التي يعذّبها الذباب. يراقب *لوشيو فاسكاز* خفية من وراء الباب بإلحاح من

الأفعى وكاميليا، انقطع تنفّسه، لقد أوقفوا زوجة جينارو رودس الذي روى له، في حمّى الخمر، عند «صحوة الأسد»، كل ما يتعلق بإيقاف الجنرال.

«أحبس دموعي، لا ذكرياتي». قالت صاحبة الحانة التي خرجت إلى عتبة الباب عند إيقاف فدينا. اقترب جندي من الحانة. «يبحثون عن ابنة الجنرال! «قالت الأفعى مرعوبة. يفكّر فاسكاز بنفس الفكرة، مضطربا حتى جذور شعره. اقترب الجندي ليأمرهم بغلق الحانة. أغلقا الباب لكنهما بقيا يراقبان من فتحات النوافذ، ما يحدث في الشارع.

استرجع *فاسكاز* شجاعته خلف الباب، ومتعلّلا بخوفه، أراد مداعبة صديقته. لكن هذه الأخيرة منعته من ذلك. وكادت تلطمه على وجهه.

«أنت دائمة التصنّع!»

«أنا! ليس صحيحا! آه، نعم! أكيد أني سأتركك تجسّني! وما الذي كان سيحدث لو لم أخبرك ليلة أمس أنّ هذه المرأة المسكينة تتحدث في كل مكان أن ابنة الجنرال..».

«احذري! يمكنهم أن يسمعوك». قال *فاسكاز* قاطعا عليها كلامها. كان يتكلمان وهما ينظران من خلف الشقوق إلى ما يحدث في الشارع.

«لا تكن غبيا، أنا أتكلم همسا.. كنت أسألك ما الذي كان سيحدث لو لم أحدثك أن هذه المرأة كانت تتبجّح بأن ابنة الجنرال ستكون إشبينة ابنها. تأخذ جينارووتتحدث عن الورطة!».

«أنا!!!! أجاب الآخر، ثم بدأ يتنحنح ليخرج مخاطا يحسّه بين الحلقوم والأنف».

«أيها المقرف! أنت شخص مقزّز، لا تملك ذرّة أدب!»

«أيتها الرقيقة!»

«اخرس!»

ينزل رئيس المحكمة الخاصّة في تلك اللحظة من العربة.

«أنه رئيس المحكمة الخاصة..» قال فاسكاز.

«وماذا جاء يفعل؟» سألت الأفعى.

«في علاقة بإيقاف الجنرال..»

«ولهذا يأتي في هيئة ببّغاء! لا، لكن أحيانا!.. ابن الزا.. ثرة! انظر إلى تلك الريشات على رأسه!»

«هل تعتقدين ذلك! لديك أسئلة متميّزة! أنه يرتدي هذا الزيّ لأنه سيذهب من هنا مباشرة لمقابلة السيد الرئيس».

«يا له من محظوظ!»

«إذا لم يوقفوا الجنرال البارحة، فقد قضي عليّ».

«لقد قلت أنه أوقف!»

اخرسي!

وما كاد رئيس المحكمة ينزل من العربة حتى سرت الأوامر بصوت منخفض ودخل نقيب يمسك سيفا ومسدسا، على منوال الصور الحجرية التي تمثل الحرب الروسية الصينية، تتبعه مجموعة من الجنود، إلى منزل الجنرال كناليس.

بعد دقائق ـ قرون بالنسبة لفاسكاز الذي يتابع المشهد وروحه معلّقة بخيط ـ عاد النقيب مكفهرّ الوجه، مضطربا وشاحبا، وقدّم تقريره لرئيس المحكمة.

ماذا؟.. ماذا؟.. صاح رئيس المحكمة.

تخرج الكلمات من فم النقيب معذَّبة من بين طيات تنفسه المضخّم.

قلت إنّ.. إنّ.. أنه هرب؟.. زأر الآخر. انتفخت عروقه فوق جبينه كنقاط استفهام سود.. ـ وإنّ، إنّ، إنّ المنزل قد نهب؟..

اختفى في الباب دون أن يضيّع ثانية، يتبعه النقيب. ألقى نظرة سريعة كالبرق، ثم عاد إلى الطريق بسرعة رهيبة، ويده السّمينة المرتعشة على قبضة سيفه القصير، شديد الشحوب بحيث لا تميّز شفتيه من شواربه التي بلون جناح الذبابة.

كيف أمكنه الهروب؟ هذا ما أريد معرفته! صاح وهو يظهر على عتبة الباب. أوامر! لقد اخترعنا الهاتف لإيقاف أعداء الحكومة! العجوز الماكر! لو أُمسك به، سأشنقه! لن أدفع غاليا ثمنا لحياته!

مثل صاعقة شطرت نظرة الرئيس فدينا نصفين، زعق بينما يجرّها جندي إليه:

الكلبة!.. ودون أن يبعد عنها نظرته، أضاف، سنجعلها تغني! أيها الملازم، خذ عشرة جنود، واحملوها إلى هناك، بسرعة، وبسرية تامة!

صيحة متجمدة ملأت الفضاء، صيحة، زاعقة، حادّة، لا إنسانية.

يا إلهي! ما الذي يقولون للرب المصلوب؟ خرج صوت فاسكاز كالأنين، بينما تثقب صدره الصرخة الحادة لشابيلا المربية.

إلهي؟ علّقت صاحبة الحانة بسخرية، ألا تسمع أنها امرأة؟ بالنسبة لك، يجب أن يكون لكل الرجال صوت بلبل أنثى.

أمنعك من الكلام معي بهذه الطريقة..

أمر رئيس المحكمة بتفتيش المنازل المجاورة. انتشرت مجموعة من الجنود بأمر من الضباط والملازمين، في كلّ الجهات. يفتشون الساحات والغرف والأماكن الخاصة، والشرفات، والنوافير. صعدوا السطوح، فتّشوا الخزائن قلبوا الملابس المعلقة، تحت الأسرّة، الزرابي، الدّنان، وإذا ما تأخر السكان في فتح الأبواب يقومون بكسرها بأعقاب البنادق. الكلاب الهائجة تنبح، بجانب أصحابها الخانعين. ينتشر النباح من كل بناية كمياة المرشّات..

لو يفتشون هنا، قال *فاسكاز* الذي يكاد الخوف يمنعه من الكلام، فإننا سنقع في مأزق حقيقي!.. ومن أجل أمر حقير..

جرت الأفعى لتعلم كاميليا.

برأيي، قال *فاسكاز* الذي تبعها، عليها أن تغطّي وجهها، وتبتعد عن هذا المكان.. وعاد القهقرى نحو الباب دون أن ينتظر جوابا. ثم تكلّم من جديد، وهو يضع عينه في ثقب الباب: انتظرا، انتظرا! هناك أمر مناقض، كفّوا عن التفتيش، لقد نجونا!

انظر، ها هو المصلوب! قالت بعد أن تثبتت بنفسها مما أخبرها به *فاسكاز* فرحا.

من هذه؟

الخادمة، ألا ترى؟ وأضافت وهي تبعد عن جسدها يد فاسكاز الجشعة: آه اللعنة! اللعنة! اغرب عني! اذهب إلى الجحيم!

المسكينة! انظري الحالة التي وصلت إليها!

كأن القطار مرّ فوقها!

لماذا نخادع، إذا كنا سنموت؟

اتركني، لا أريد أن أرى!

بأمر من النقيب، تجرّ مجموعة من الجنود المربية المسكينة خارج منزل كناليس. لم يتمكّن رئيس المحكمة حتى من استجوابها. قبل أربع وعشرين ساعة، كانت هذه الخرقة البشريّة المحتضرة روح المسكن، حيث يغرّد البلبل، ويعاشر أنثاه بين الأعشاب الفائحة وخيوط الماء المتصاعد من النافورة. وحيث الجنرال يحقّق نجاحاته اللامتناهية. وكاميليا تفرح بنزواتها الرقيقة.

قفز رئيس المحكمة في عربته، يتبعه ضابط. تبخّرت العربة في أول ركن من الحيّ. جاؤوا بمحفّة وحمل أربعة أشخاص الجثة العارية، المتسخة، للمربية شابيلا، إلى بيت الأموات. يتّجه الجنود إلى إحدى الثكنات العسكرية، والأفعى أعادت فتح محلّها. احتل فاسكاز مقعده المعتاد، محاولا إخفاء الألم الذي سبّبه له إيقاف زوجة جينارو رودس، رأسه كفرن لشيّ القرميد، وبخار الكحول في كامل جسمه، لدرجة أن السّكْرَ يعود له كل تنفّس، مع شبح هروب الجنرال.

تتّجه في هذه الأثناء، فدينا نحو السجن، تقاوم حرّاسها الذين يدفعونها في كل لحظة، بلطمة، إلى الأمام. تركتهم يسيؤون معاملتها صامتة، لكن، بعد حين صفعت أحدهم على وجهه وهي تواصل مشيها. فأتتها الإجابة التي لم تطلبها بعقب بندقية وضربة على ظهرها من جندي آخر أسقطتها أرضا، وأسنانها ترتعش وهي ترى النجوم تلمع فوق رأسها.

أيّها المخصيّون! لهذا تستعملون أسلحتكم! يجب أن تخجلوا! قالت امرأة عائدة من السوق وقفّتها مملوءة بالخضر والغلال.

أغلقي فمك! صاح فيها أحد الجنود.

وفمك، هل رأيته، أيها المقرف؟!

هيّا سيدتي، واصلي طريقك، بسرعة، واصلي طريقك. أليس لديك عمل؟ قال لها النقيب.

هل تظن أني أقضي وقتي مثلكم، أينها الديدان؟

اسكتي، وإلّا فإنّا سنعاقبك تدخّل الضابط.

تهذّبني! لا ينقص إلا هذا! أيها الدخلاء الكسالى، نحيفين كالصينيين، المرافق والمؤخرات مرفوعة في الهواء! تريدون أكلنا أحياء ونغلق أفواهنا أيضا! كدس النتانة! تتهجمون على الناس من أجل المتعة!

وبدأت حامية زوجة رودس، المجهولة تتقهقر شيئاً فشيئا بين الناس الذين وقفوا للفرجة، وبين الحرس تمضي الأخرى نحو السجن، يائسة، يملؤها الرعب. يسيل منها العرق، تكنس الشارع بشالها.

وصلت عربة رئيس المحكمة الخاصة في زاوية منزل المحامي آبال كارجفال، حين كان هذا الأخير يخرج من منزله، وهو يرتدي قبعته العالية وكسوته ليذهب إلى القصر، أمال رئيس المحكمة العربة، وهو يقفز من مرقاتها، إلى الرصيف. كان كارجفال قد أغلق الباب وهو يرتدي قفازه حين أوقفه زميله. وذهب بكسوة الاحتفال، في حراسة جليلة، نحو الدائرة الثانية للشرطة، تزيّنها من الخارج رايات الحرب والأعلام الصغيرة من الورق الحريري، ووضع مباشرة في الزنزانة التي يوجد بها الطالب وخادم الكنيسة.

(١٤)

فليغنِّ كل الكون

تظهر الطرقات شيئاً فشيئا في الضوء الهارب للفجر بين السطوح والحقول التي تعبق بنضارة ابريل. من هناك تظهر البغال المعذّبة بالسياط وبأصوات سائقيها، البغال التي تحمل الحليب، والصفائح المدندنة من هناك، يطلع الفجر من أجل البقرات التي تحلب على أعتاب بيوت الأغنياء، أو على حافة طرقات أحياء الفقراء، وسط الحرفاء، في أوج الرفاهة، أو في أوج الهزال، وأعينهم زائغة، بلورية، يقفون أمام بقراتهم المفضلة ليأخذوا الحليب بأنفسهم، يميلون الكأس بروعة حتى يحصلوا على حليب أكثر من الزبد. من هناك، تمرّ حاملات الخبز، والرأس مغروسة في الصدر، الظهر محنيّ، الأرجل متيبّسة، والأقدام حافية، ترسم وخزات لخطى لا متناهية، متردّدة، تحت الحمل الكبير لقفافهن، قفّة فوق قفّة، هياكل هندية تترك في الج ورائحة عجينة مرقّقة وسمسم مشويّ. من هناك نسمع أغاني الصّباح في أيام الأعياد الوطنية، منبهات تنشرها أشباح نحاسية وهوائية، أصوات من عطن الألوان، في حين يؤشر الفجر الخجول الأصوات الخارجة من نواقيس الكنسية، خجولة ومجتهدة، دقّات الصلاة الأولى، لأن إذا كان صوتها، جزءا من يوم العيد، بنكهة الشكولاطة والفطائر الكهنوتية، فإن له أيام العيد الوطني طعم الفاكهة المحرّمة.

عيد وطنيّ..

من الطرقات، مع رائحة الأرض الطيّبة، تصعد فرحة المواطنين، الذين يصبّون الماء من نوافذهم، حتى يثير مرور الجنود المكلّفين بإيصال العَلَم إلى القصر الجمهوري، أقل غبار ممكن ـ العلم يعبق برائحة المناديل الجديدة ـ كذلك سيارات الأغنياء الذين يصطفون على حافتي الطريق في لباسهم الأنيق من الرأس حتى القدمين، دكتور في كذا أو ذاك يجرجر خزائن، يرتدون السترات الطويلة، جنرالات في أزياء لامعة متوهّجة، برائحة الشموع ـ هؤلاء يرتدون قبعات المهنة، وأولئك بقبعات مثلثة القرون يعلوها الريش ـ كذلك ركْض الموظفين الصغار الذين تقاس أهميتهم إداريا، حسب نفقات الدفن التي ستقدّمها لهم الدولة يوماً ما.

مولاي! مولاي! السماوات والأرض مليئة بمجدك! وافق الرئيس على الظهور، راضيا على الشعب الذي يشكره على كل آلامه، معزولا من الكلّ، بعيداً جدّا، وسط مجموعة خلصائه.

مولاي! مولاي! السماوات والأرض مليئة بمجدك! تحسّ النسوة القدرة الإلهية المفضلة، أمراء الكنيسة يحرقون البخور، صحفيّو البلاد والعالم يتبادلون التهاني بوجودهم في حضرة تجسّد جديد *لبيراكليس*. رجال القانون يتحدثون عن دورة *ألفونس الحكيم*، الديلوماسيون بسموّهم يتفاخرون كمن تمّ استقبالهم في قصر *فرساي*، في حضرة الملك الشمس.

مولاي! مولاي! السماوات والأرض تمتلئ بمجدك! الشعراء اعتقدوا أنهم في أثينا، هكذا أعلنوا لكل العالم، واعتقد نحّات قديسين أنه *فيداس* وظل يبتسم وهو يرفع نظره نحو السماء، فاركا يديه، في الضجيج والتصفيق الذي يحيّي في الطرقات اسم السياسي اللامع.

مولاي! مولاي! السماوات والأرض تمتلئ بمجدك! ملحّن جنازات، مغرم بباخوس، وبالدفن المقدس، يطلّ من الشرفة، بوجهه بلون الطماطم، ليرى أين هي الأرض.

ولكن إذا كان الفنانون يعتقدون أنهم في أثينا، فإن أصحاب البنوك اليهود اعتقدوا أنهم في قرطاج، لأن رئيس الدولة وضع ثقته فيهم، ووضع في أخزنتهم، التي لا قعر لها، أموال البلاد الكبيرة، بفائض نسبته صفر فاصل لا شيء بالمائة، توظيف يمكّنهم من الإثراء عبر الفوائض وتحويل النقود المعدنية المتقافزة إلى جلدة مختونة. مولاي! مولاي! السماوات والأرض تمتلئ بمجدك!

فتح وجه الملاك طريقا بين الضيوف (كان جميلا وشريرا كإبليس).

الشعب يطلبك، سيدي الرئيس!

.. الشعب؟

وضع السّيد في الكلمة التي قالها عصيّة الاستفهام. الصمت حوله مطبق. نهض تحت وطأة حزن عميق طرده بعنف ليبتعد سريعا من أمام عينيه، واتجه سريعا نحو الشرفة.

ظهر بين خلصائه أمام الحشد. مجموعة من النساء جئن لإحياء ذكرى نجاته من الموت. التي كلفت بإلقاء الخطاب بدأت عندما رأت الرئيس:

ابن الشعب..

ابتلع السيد ريقه مرّا، ربما تذكر سنوات دراسته قرب أمّه الفقيرة، في مدينة معبّدة بالنّيات السيئة؟ لكن المحظيّ الذي يحاول إرضاءه، قال:

المسيح أيضاً، كان ابن الشعب!..

ابن الشعب، كرّرت المرأة، الشعب قلت: السماء، في هذا اليوم، رائعة الجمال، ارتدت الشمس، ضوؤها يحمي عينيك وحياتك، وعلى مثال العمل المقدس القديس يعلمنا أن في القبة السماوية، يتبع الضياء الظلمة، ظلمة الليل الأسود الذي لا يعرف الرحمة الذي خرجت منه الأيادي الغادرة التي عوض أن تزرع الأرض، مثلك، سيدي، أنت تعلّمنا، زرعوا تحت قدميك قنابل، لم تصبك بسوء، رغم صناعتها الأوروبية..

تصفيق متعاظم غطّى صوت لسان البقرة، لقب المرأة التي تقرأ الخطاب، ومثل مراوح، حرّك الهتاف المنظم الهواء حتى وصل إلى بطل اليوم وحاشيته.

يحيا السيد الرئيس!

يحيا السيد رئيس الجمهورية!

يحيا السيد الرئيس الدستوري للجمهورية!

فليدوّ صوت من كل سماوات العالم حتى لا ينتهي أبدا! يحيا السيد الرئيس الدستوري للجمهورية! المحسن للبلاد والعباد! رئيس الحزب الليبرالي الكبير! محرّر الشعب وحامي الشباب المجتهد!

واصلت لسان البقرة:

كان يمكن للعَلم أن يتمرّغ في الوحل لو نجح، أبناء الوطن الفاسدون المدعومون في مشاريعهم الإجرامية من أعداء السيد الرئيس. لم يفكروا أبداً أن يد الله العليا حرستك ولا تزال تحرس وجودك الثمين، بمباركة كل الذين يعتبرونك أهلا لتكون المواطن الأول للأمة، ويحيطون بك في تلك اللحظة» *الحاسمة*. ولا زالوا يحيطون بك، وسيحيطون بك في كل مرّة! نعم سادتي.. سيّداتي، سادتي، نعلم اليوم أكثر من أي يوم مضى أنه لو نجحت المؤامرة

الدنيئة، في ذلك اليوم الأسود في ذاكرة بلادنا التي تتصدّر الدول المتحضّرة، لأصبح الحزب يتيما من أبيه وحاميه، لسقط بين أيدي الذين يسنّون خناجرهم ليطعنوا صدر الديمقراطيّة. مثلما قال ذلك الخطيب الكبير *خوان مونتافو*! بفضلك مازال العلم يخفق، سليما. والعصفور لم يفرّ من شعار الوطن، عصفور مثل الفينيق يولد من الرماد، من الرّحال ـ تصلح خطأها ـ من الرجال الذين أعلنوا الاستقلال الوطني في هذه الربوع من أمريكا اللاتينية، دون أن يسكبوا أيّة قطرة دم، مؤكّدين بذلك الرغبة في الحرية التي أبداها رجال الهنود الذين قاوموا حتى الموت من أجل الحرية والعدالة! إذن، سادتي، من أجل كل هذا جئنا اليوم لتهنئة الحامي الشهير للطبقات الفقيرة، الذي يسهر على راحتنا بحب الأب، والذي أوصل بلادنا، كما قلت سابقا، إلى مقدمة التحضر، الذي أعطاه فولتون الدفع اللازم باختراع البخار، ومنع خوان سانت ماريا للقرصنة عندما أضرم النار في مخزن البارود في أراضي لمبيريا. يحيا الوطن! يحيا الرئيس الدستوري للجمهورية، رئيس الحزب اللبرالي! مصلح الوطن، حامي المرأة التي لا حول لها، والطفل والتعليم!

ضاعت هتافات لسان البقرة في حريق من الصيحات، أطفأتها بحار من التصفيق.

ردّ الرئيس ببعض الكلمات، ويده اليمنى متيبّسة على الشّرفة المرمرية، في وقفة جانبية، كي يتفادى تعريض صدره، يدير وجهه من كتف لآخر ليرى الجموع، عاقد الحاجبين، والعيون تنتقل بسرعة، بينما الرجال والنساء يمسحون أكثر من دمعة.

لو أردت سيدي الرئيس الدخول، قال وجه الملاك، فهذه الجموع ترهقك..

أسرع رئيس المحكمة الخاصة نحو الرئيس العائد من الشرفة، محاطا ببعض الأصدقاء، ليعلمه بهروب الجنرال كناليس، ويهنّئه قبل الآخرين بخطابه، ولكن مثل كل الذين اقتربوا بنفس النيّة، توقّف بخوف غريب، بقوة فوق طبيعيّة، ولكي لا تبقى يده معلّقة في الهواء مدّها لوجه الملاك.

أدار هذا الأخير له ظهره، وعلى هذه الحالة سمع أولى سلسلة من الانفجارات التي تتالت مثل طلقات مدفعيّة.

وسمعت صيحات، وبدأ الركض والقفز، والرفس، والكراسي المقلوبة، وسمعت خطوات الجنود تنتشر كحبات الأرز، وأياديهم على جعبة الخراطيش، التي لا تفتح بالسرعة اللازمة، بين الرشاشات، والمرايا المهشّمة، والضباط، والمدافع.

غاب عقيد في أعلى السلالم، مغمدا مسدسه. آخر نزل السلالم اللولبية مغمدا مسدسه. لا شيء. قفز نقيب من النافذة مغمدا مسدّسه. آخر خرج مغمدا مسدّسه. لكن الج وكان جليديا. انتشر الخبر في الصالونات المبعثرة. لا شيء. لا شيء! تجمّع الضيوف من جديد شيئاً فشيئا: هذا بلّ سرواله الداخلي من الخوف، آخر أضاع قفّازيه، ومن استعاد ألوانه الطبيعية لم يستعد صوته، ومن استعاد صوته، لم يستعد ألوانه، الأمر الذي لم يستطع أحد أن يقله، هو من أيّ مكان ومتى اختفى السيد الرئيس؟

على الأرض في أسفل سلّم يرقد عازف الطبل الأول للموسيقى العسكرية. تدحرج من الطابق الأعلى مع طبله، وكل شيء، مطبّقا خطّة «ينجو من يستطيع».

(١٥)

أعمام وعمّات

خرج المحظيّ من القصر بين رئيس السلطة التشريعية؛ عجوز قصير بسترة طويلة، تذكّر بفئران الصور المتحرّكة، ورئيس السلطة التنفيذية، نحيل كقديس قديم. الاثنان يتحاوران بحجج تجلب الماء للفم، إن كان من الأحسن الذهاب «للنزل الكبير» أو إلى أحد النزل في الضواحي لنسيان الرعب الذي سبّبه غبيّ الطبل، الذي يجب أن يرسل دون أي شعور بالذنب، إلى برج، أو إلى جهنّم، أو أي عقوبة أشدّ. عندما يتكلم ممثل الشعب نصير «النزل الكبير»، يبدو وكمن يملي قواعد سلوك ملزمة بالنسبة للأمكنة الأكثر أرستقراطية لرفع المرفق، وهو سلوك، له تأثيرات إيجابية على خزائن الدولة، عندما يتكلّم القاضي، فأنه يتكلم بمنطق من يعلن حكماً نافذ المفعول: قلّة الذوق والثروة العقارية لا يفترقان، ولهذا، يا صديقي، أفضّل النزل المتواضع، حيث نكون في أمان مع أصدقاء حقيقيين، على النزل الفخم، إذ ليس كل ما يلمع ذهب!

تركهما وجه الملاك لجدالهما قرب القصر - في نزاع مماثل بين السّلط، جدير بنا أن نكون محايدين - واتجه صوب حيّ «البخور»، حيث يوجد منزل السيد خوان كناليس، كي يذهب أو يبعث من يأتي بابنة أخيه من مقهى «توتاب». «فليذهب، أو فليبعث، أيّ شيء؟ المهم أنها لن تبقى مرتبطة بي، فلتعش مثلما عاشت حتى الأمس،

يوم كنت أجهل كل شيء عنها، حتى وجودها ذاته، حين كانت لاشيء بالنسبة لي». قفز شخصان أو ثلاثة على الطريق تاركين الرصيف لتحيّته، يشكرهم آليّا دون أن يراهم.

الدّون خوان أحد إخوة الجنرال، يسكن في «البخور» منزلا مجاورا «للمفترق» كما يدعون مصنع النقود وهو بناية بفخامة مشنقة، حصون مقشّرة، تدعّم الجدران الباكية، ومن النوافذ التي تحميها قضبان حديدية نستشعر وجود قاعات كأنها أقفاص وحوش، هناك تخبّأ ملايين الشيطان، عندما طرق المحظيّ، أجاب كلب، كان الحارس الشرس مربوطا، نعرف ذلك من خلال شراسته في النباح.

اجتاز وجه الملاك الباب (كان جميلا وشريرا مثل إبليس)، مرتاحا لإيجاد مكان يترك فيه ابنة الجنرال، منزعجا من نباح الكلب ومن «الأرجوك تفضّل»، «أرجوك تفضل»، من رجل دموي، ضاحك، متكرّش، ليس سوى الدون خوان كناليس.

ادخل، أرجوك، تفضّل بالدخول، ادخل أرجوك، من هنا، سيدي من هنا، من فضلك، لمن ندين بشرف زيارتك؟ ـ يقول الدون خوان كل هذا كرجل آليّ بصوت لا يشي بالرعب الذي يحسّه أمام هذا الكوكب التابع للسيد الرئيس.

طاف وجه الملاك بالصالون بنظره ـ أيّ نباح يطلقه هذا الكلب الأهوج خلف الضيوف! ـ من بين مجموعة صور الإخوة كناليس، لاحظ أنّ صورة الجنرال قد نزعت. في آخر الصالون مرآة تعكس الفراغ الذي خلّفته اللوحة المنزوعة وجزء من الصالون مفروش بالأصفر كلون التلغراف. لاحظ وجه الملاك، بينما يستنفذ الدون خوان رصيده من المجاملات والتعابير المعلّبة، أن الكلب مازال روح المنزل مثل الأيام البدائية. فحتى السيد الرئيس لديه تشكيلة من الكلاب المستوردة.

يظهر صاحب البيت في المرآة محرّكا يديه بيأس. بعد أن أنهى كلمات المجاملات، ألقى الدون خوان بنفسه، كسباح ماهر، في الماء.

لقد استنكرنا بشدّة، خادمك المتواضع وزوجتي، سلوك أخي أوزبيو! يا لها من حكاية! الجريمة دائمة حقيرة، وخاصة في حالتنا هذه، عندما يتعلق الأمر بمثل تلك الشخصية! رجل من أكثر الناس احتراما على كل المستويات، ضابط كان مفخرة جيشنا، وخاصة، أنه صديق لسيدنا الرئيس.

فقد الدون خوان التحكم في أعصابه، عندما سمع كلماته تسقط في الفراغ، فبدأ يضرب الهواء بيديه، ويدقّ الأرض بقدميه. كان رأسه يغلي. اعتقد أنه متهم بجريمة باب الرحمان، وبكلّ تبعاتها السياسية. لا ينفع أبداً أن تكون بريئا! أبدا! أنه الاتفاق! أنه الاتفاق! اليانصيب، يا صديقي! اليانصيب، يا صديقي، اليانصيب! أنها الجملة المثالية في البلاد، كما كان الأب فولجنسيو، بائع اليانصيب المتجول، كاثوليكي متعصّب، وبائع ماهر. مكان وجه الملاك، يرى كناليس خيال الهيكل العظمي للأب فولجنسيو الذي تبدو أصابعه وعظامه مثل لوالب. الأب فولجنسي ويتأبّط محفظته السوداء تحت ذراعه الذي يرسم دوما زاوية حادة، يكمّش وجهه، وهو يضرب سرواله، يطيل فكّيه كي يقول بصوت يخرج من أنفه وفمه الأدرد: «شديقي، القانون الأوحد على هذه الأرض، هو اليانشيب: باليانشيب تدخل الشجن، باليانشيب ترمى بالرشاش، باليانشيب تشبح نائبا، دبلوماشيا، رئيش الجمهورية. لماذا تدرش إذا كان كل شيء باليانشيب؟ اليانشيب ياشديقي، اشتر مني ورقة يانشيب!» وكل هذا الهيكل العظمي المعقود، كدالية يابسة، تهزّه ضحكة تخرج من فمه كقائمة الأرقام الرابحة.

يتساءل وجه الملاك، بعيداً كل البعد عمّا يفكر به الدون خوان، عمّا يمكن أن يربط هذا الرجل الكريه بكاميليا.

قيل لي، بل قيل لزوجتي، أنهم يريدون توريطي في جريمة اغتيال العقيد باراليس سورينتي! واصل خوان كناليس، وهو يمسح بمنديل قطرات العرق التي تسيل على جبينه.

لا أدري، أجاب الآخر ببرود.

ولكن هذا ليس عدلا! وقد سبقت أن قلت لك منذ البداية أني وزوجتي نستنكر ما قام به أوزبيو. أيضاً، لا أعلم إن كنت تعرف، أنّي وأخي لا نتقابل إلّا من بعيد. بالكاد يرى أحدنا الآخر. بل لا يرى أحدنا الآخر مطلقا تقريبا. بالأحرى، مطلقا. كنّا كغريبين: «صباح الخير، صباح الخير، مساء الخير. «لا غير». إلى اللقاء، إلى اللقاء»، فقط.

فقد صوت الدون خوان ثقته. فاعتقدت زوجته التي كانت تسمع الحديث وراء ستارة أن عليها أن تساعده.

قدّمني، خوان، قالت وهي تظهر، وهي تحيّي وجه الملاك بانحناءة من رأسها، وابتسامة مهذبة.

نعم، بالتأكيد! أجاب زوجها مضطربا، وهو ينهض مع المحظيّ. سعيد بأن أقدم لك زوجتي!

جوديت كناليس..

سمع وجه الملاك اسم المرأة، لكنه لا يتذكر أنه قال اسمه.

في هذه الزيارة، التي يطيلها، دون سبب، تحت تأثير قوى غامضة بدأت، في قلبه، تقلق وجوده، الكلمات الغريبة عن كاميليا تضيع في أذنيه دون أن تترك أثرا.

«لم لا يكلّمني هؤلاء الناس عن ابنة أخيهم؟ لو كلموني عنها لسمعتهم، لو حدثوني عنها، لطمأنتهم على كل شيء، أنه لا يمكن أن يتهموا الدون خوان في أي جريمة، لو حدثوني عنها.. ولكن، يا لي من غبيّ! كاميليا، التي أريد ألّا تعود كاميليا، وأن تبقى هنا معهم، وأن أكفّ عن التفكير فيها. أنا، هي، هم.. كم أنا غبي! هي وهم، أنا لا. أنا، وحدي، بعيد. أنا معها، لا..

دونا جوديت ـ هكذا تمضي ـ تجلس على الصوفا وهي تحكّ أنفها بمنديل صغير من الدانتيل كي تعطي لنفسها هيبة.

كنتما تقولان، لأني قطعت حديثكما، اعذراني..

أنت..

قل..

أمس..

تكلّم الثلاثة في نفس الوقت، وبعد «من فضلك، من فضلك» تبعث على الضحك، أخذ دون خوان الكلمة دون أن يدري. (غبيّ! صاحت به زوجته بعينيها).

كنت أحكي لصديقنا أني وأنت، كنّا ساخطين، عندما سمعنا بطريقة سرية أن أخي أوزبي وكان أحد قتلة العقيد باراليس سوريانتي..

آه! نعم، نعم، قالت دونّا جوديت وهي تدفع صدرها البارز إلى الأمام.. أنا وخوان قلنا أن سلْفي الجنرال ما كان عليه أن يلوث نياشينه بهذه الوحشية، والذي زاد الأمر سوء، أن الناس تتهامس بتوريط زوجي!

كنت أيضاً، أفسر للدون ميجال، أن علاقتنا كانت باردة مع

أخي، منذ زمن بعيد، فقد كنا، أنا وهو، كعدوّين.. نعم، عدوّين حتى الممات. هو لا يرغب حتى برؤية صورتي، وأنا بالمثل.

ليس لهذه الدرجة، أنها أمور عائلية تقلق، وقد تبعث الشقاق.. أضافت دونا جوديت، وهي تنفخ نفسا طويلا.

هذا ما يبدو، قال وجه الملاك، وهو يقطع كلامها، إن الدون خوان لا يجب أن ينسى أن بين الإخوة هناك دائماً روابط لا يمكن كسرها..

ماذا، دون ميجال، ماذا تقول.. أنا متواطئ؟

اسمح لي!..

لا تصدّق شيئا! واصلت دونا جوديت، وهي تخفض عينيها، كلّ شيء انتهى، كانت مسألة أموال! هذا محزن ولكن الأمر انتهى الآن. المال لا يحترم صلات الدم!

اسمح لي.. كنت أقول أن بين الإخوة هناك، دائما، روابط لا يمكن كسرها، لأن رغم الاختلافات القائمة بين دون خوان والجنرال، فإن هذا الأخير حين أحس بأنه ضائع لا محالة، وأنه مجبر على ترك البلاد، قدّر..

أنه وغد!.. لو، لوثني بجرائمه! آه! أنه افتراء!

ولكن، الأمر ليس بهذا الشكل!

خوان، خوان! اترك السيد يتكلم!

قدّر أنك يمكن أن تساعده، حتى لا تبقى ابنته وحيدة، وكلّفني أن أتأكد أن بإمكانك قبولها في منزلكم..

هذه المرّة، أحس وجه الملاك أن كلماته قد سقطت في الفراغ. أحسّ أنه يكلّم أشخاصا لا يفهمون لغته. بين دون خوان السمين،

الحليق، والدونا جوديت المكدّسة في عربة نهديها، سقطت كلماته في مرايا الغياب.

وهل تقع عليك مسؤولية تحديد مصير هذه الطفلة؟

نعم. بالتأكيد.. (منذ أن علم الدون خوان أن وجه الملاك لم يأتِ لإيقافه، استعاد ثقته بنفسه)..

لا أدري كيف أجيبك، لأنك فاجأتني بالأمر! في منزلي، مستحيل، لا يمكن التفكير في ذلك مطلقا.. ماذا تريد.. لا يمكن أن نلعب بالنار.. هنا بيننا ستكون المسكينة مرتاحة ولكن، لا يمكن لي أو لزوجتي أن نخسر صداقة الناس الذين يزوروننا، ويعاشروننا، الذين لن يغفروا لنا أن نفتح باب منزلنا المحترم لابنة عد وسيّدنا الرئيس.. إضافة، أن كل الناس تعلم أن أخي المحترم أهدى.. كيف سأقول.. نعم أهدى ابنته لصديق حميم لرئيس الدولة، لكي، هذا بدوره..

وهذا، لكي، ينجو من السجن! قاطعت الدونا جوديت، وهي تدخل صدرها البارز بتنهيدة أخرى. لقد أهدى ابنته لصديق سيادة الرئيس، الذي سيهديها بدوره إلى السيد الرئيس، الذي، كما هو منطقي، وطبيعي، سيرفض هذا العرض الحقير. *أمير الميليشيا* كما يطلق على أوزبيو، منذ خطابه الشهير، حين وجد نفسه في قعر الزجاجة، قرّر أن يفرّ تاركا لنا الآنسة ابنته. ماذا يمكن أن ننتظر من هذا الذي سبّب زوال الحظوة السياسية لكل ذويه، وألحق العار بلقبه! لا تظن أننا لم نتحمّل نتائج هذه القضيّة! لقد ابيضّ شعري من جرّائها! يعلم الله والعذراء!

برق من الغضب مزّق الليل العميق الذي يسكن عيون وجه الملاك.

إذن! لن نتحدث عن ذلك!..

نأسف لأنك تحمّلت عناء المجيء، لو اتصلت بي..

لو لم يكن الأمر مستحيلا بالنسبة لنا، لكنّا قبلنا بفرح، من أجلك، أضافت الدونا جوديت.

خرج وجه الملاك دون أن ينظر إليهما أو ينطق بكلمة واحدة. الكلب ينبح غاضبا مجرجرا سلسلته من جهة لأخرى.

سأذهب لإخوتك. قال أخيراً عند الباب.

لا تضع وقتك، أسرع الدون خوان بالإجابة، لأني أنا ذو السمعة المحافظة؛ لأني أعيش في هذا الحيّ، لم أقبلها عندي، هم اللبراليون، إذن! إذن! سيعتقدون أنك مجنون، أو أنها مجرد مزحة..

قيلت هذه الكلمات تقريبا في الطريق، ثم أغلق الباب، ببطء، وفرك يديه السمينتين، وعاد بعد لحظات من التردد. كانت لديه رغبة لا تقاوم لمداعبة شخص، لكن ليس زوجته، لذلك ذهب باتجاه الكلب، الذي يواصل النباح.

اترك هذا الحيوان في سلام، إذا أردت الخروج، صاحت زوجته من الساحة حيث تقلّم الأزهار، منتهزة انتهاء الحرارة.

ولكني، سأخرج..

إذن! أسرع، لأني بعد ذلك سيكون عليّ أن أخرج للذهاب للكنيسة، ولا أريد أن أكون في الشارع بعد السادسة وخاصة الليلة.

(١٦)

في البيت الجديد

نحو الثامنة صباحاً (تلك أيام جميلة، أيام الساعات المائية، قبل الساعة القفازة، وحساب الزمن بالارتعاش). حُبست فدينا في كوخ في شكل قيثارة. تقريبا قبر، بعد الشكليات المعتادة والتفتيش الدقيق لكل ما عندها. وقع تفتيشها من الرأس حتى القدمين، من الأظافر إلى الإبطين، في كل مكان ـ كان أمرا مقلقا ـ وبأكثر دقّة حينما وجدوا في قميصها رسالة بخط الجنرال كناليس. تلك التي التقطتها من الأرض في منزله.

تعبت من الوقوف في الزنزانة، حيث لا يمكنها المشي ولو خطوتين، فجلست. لكن بعد لحظات عادت للوقوف، لأن برودة الأرض وصلت إلى أردافها وفخذيها، ويديها وأذنيها. اللحم يتأثر كثيراً بالبرد. وقفت فترة أخرى، ثم جلست، ثم نهضت..

في الباحة يسمع صوت السجينات يخرجن من زنازينهن للتشمس، يغنّين مقاطع بنكهة الخضر النيّئة، رغم المرارة التي في قلوبهن. المقاطع التي ترددها النسوة بصوت يملؤه النعاس، كانت برتابة قاتلة، يحاولن أحيانا كسرها بصيحات يائسة، ثم يشتمن.. يطلقن السباب.. واللعنات..

منذ البداية أعجبت فدينا بصوت حاد يرتّل دون انقطاع:

من البيت الجديد

إلى البيوت سيئة السمعة،

أيتها السماء الجميلة الصغيرة

ليس هناك سوى خطوة واحدة

والآن ونحن بمفردنا

أيتها السماء الصغيرة الجميلة

قبّليني

آي، آي، آي، آي!

قبّليني

من هذا البيت

إلى البيوت سيئة السمعة،

أيتها السماء الصغيرة الجميلة،

ليس هناك سوى خطوة واحدة

البيتان الأولان يعرجان مع باقي الأغنية. رغم ذلك فإن هذا العيب كأنه يدعم القرابة بين المنزل الجديد والبيوت سيئة السمعة. كان الإيقاع مخلخلا، من أجل الواقعية، لتأكيد هذه الحقيقة المعذّبة التي تجعل «فدينا» رهينة الخوف من كونها خائفة، في حين أنها ترتعش دون أن تحسّ الخوف حقيقة، بعد ذلك حين يدخل في عمقها صوت تلك الاسطوانة المشروخة التي تخفي أسرارا أكثر من جريمة. ليس عدلا أن نفطر على أغنية بهذه المرارة، المسلوخة حيّة لن تنتفض أكثر من تلك التي تسمع في زنزانتها السجينات الأخريات، وقد نسين أن سرير المومس أكثر صقيعا من السجن، يتمنّين الحرية والدفء.

هدأت حين تذكرت ابنها. تفكر به كأنها مازالت تحمله في رحمها. الأمهات لا يمكنهن أبداً الإحساس بالخواء من أبنائهن. أول عمل ستقوم به عند الخروج من السجن هو تعميده. كل شيء جاهز. الفستان والقلنسوة، التي أهدتها الآنسة كاميليا، رائعان، تفكّر أن تحتفل بذلك اليوم بالمرطبات والشكولاطة في فطور الصباح، وأرزّ على طريقة فينيسيا والفليفلة في الغداء، وماء القرفة وشراب اللوز والمرطبات في المساء. أوصت صاحب المطبعة أن يعدّ بعض الصور لتهديها لأصدقائها. تريد كراء عربات تجرّها خيول جميلة شبيهة بالقاطرات، بسلاسلها الرنّانة، وحوذيّ في ملابس زاهية، وقبعة عالية. ثم أبعدت هذه الأفكار خوف أن يحصل معها ما حصل لذلك الرجل الذي يفكر قبل زواجه بيوم: «كم سيكون فرح أصدقائي غدا حينما يروني في مثل هذه الساعة! «وللأسف، سقطت على رأسه، في الغد قبل الاحتفال بساعات، قرميدة!

ثم عادت للتفكير بابنها، كانت سعيدة لدرجة أنها لم تلحظ في الوهلة سلسلة من الصور الداعرة، انتهت بإقلاقها. صلبان، كلمات مقدسة، أسماء رجال، تواريخ، أرقام سحرية، متشابكة في فروج وقضبان بأحجام مختلفة. حين رأت كلام الله قرب قضيب عملاق، رقم ١٣ على خصية متوحّشة، شياطين بقرون متشابكة في شكل شمعدانات، زهورا صغيرة ببتلات بشكل أصابع، صورا كاريكاتورية لقضاة، سفنا صغيرة، مراس، شموسا، مهودا، قنان، أياد صغيرة متماسكة، عيونا وقلوبا تخترقها خناجر، شموسا بشوارب شرطة، أقمارا بوجوه عوانس، نجوما بثلاثة أشعة أو خمسة، ساعات، وعرائس بحر، قيثارات مجنّحة، سهاما..

حاولت الفرار، والرعب يملؤها، من هذا العالم المجنون الذي يحيطها، لكنها اصطدمت بالجدران الأخرى، الملوثة بنفس

الدعارة؛ أغمضت عينيها وقد أخرسها الرعب. لم تكن غير امرأة بدأت في الانزلاق على أرض زلقة، وفي طريقها، عوض النوافذ، تنفتح هاوية سحيقة، والسماء تظهر نجومها، يُظهر ذئب أنيابه.

على الأرض شعب من النمل يحمل دودة ميّتة. تحت تأثير الصور السابقة اعتقدت فدينا أنها ترى قضيبا تسحبه شعيراته نحو فراش الخطيئة.

من البيت الجديد

إلى البيوت سيئة السمعة

أيتها السماء الصغيرة الجميلة..

عادت الأغنية تمرّر على لحمها، بعذوبة، قطعا من الزجاج الرقيق، كأنها تخدش حياءها الأنثوي.

في المدينة تتواصل الاحتفالات على شرف رئيس الجمهورية. ليلا، في الساحة الرئيسية، تنصب الشاشة الكلاسيكية للسينما كمنصّة إعدام، وتبث مقاطع من أفلام مشوشة أمام جمع من الأتقياء كأنهم يتفرّجون على إحراق زنديق. المباني العمومية المنارة تبدو وكأنها انفصلت لتوّها عن السماء. يلتفّ خلق كثير ـ كعمامة ـ حول الحديقة المسوّرة بالحديد المشبّك ينتهي بمسامير حادّة. يسهر داخل الحديقة علية القوم لا يفعلون شيئاً سوى انتظار مرور الوقت، بينما يتجمّع الفقراء للفرجة على العرض السينمائي تحت النجوم، في صمت دينيّ. مضغوطين كالسردين، جالسين على مصاطب وحواجز، شيوخ وعجائز، ذوو عاهات وخدم لا يخفون سأمهم، يتثاءبون، يتابعون بنظراتهم المارّة الذين لا يتركون فتاة تمرّ دون كلمة غزل، أو صديقا دون تحية، ومن حين لآخر يرفع الفقراء والأغنياء، على السواء، أعينهم نحو السماء: صاروخ بألوان زاهية ينفجر، فتنسل

منه قطعا من الحرير على شكل قوس قزح.

الليلة الأولى في الزنزانة أمر رهيب جداً؛ يجد السجين نفسه شيئاً فشيئا في الظلّ كأنه خارج الحياة، في عالم من الكوابيس .تختفي الجدران، والسقف يمّحي، ويضيع موطئ الأقدام ورغم ذلك لا تحس الرّوح نفسها حرّة بل على العكس من ذلك، تحس نفسها ميّتة.

على عجل تبدأ فدينا بالدعاء: «أيّتها الرحيمة، تذكّري يا مريم العذراء، أننا لم نسمع قطّ أنك تخليت عمّن احتمى بك وطلب معونتك! آه! أمّنا عذراء العذارى. آتي إليك، أبكي خطاياي، أركع تحت قدميك، لا ترفضي توسلاتي، آه، يا مريم العذراء، ولكن اسمعيها بأذن راضية، ولا تتخلي عني. آمين». يضغط الظل على حنجرتها. لم تعد تستطيع مواصلة الدعاء. ارتمت على الأرض، وبيديها التي بدت لها طويلة، طويلة جداً بدأت تقبّل الأرض التي يكسوها الصقيع، صقيع كل السجناء، كل من تألموا، ظلما، وعذبوا، من أجل العدالة، كل المحتضرين والمشردين..

بدأت تتلو صلاتها:

أورا بر ونوبيس

أورا بر ونوبيس

أورا بر ونوبيس

أورا بر ونوبيس

أورا بر ونوبيس

أورا بر ونوبيس

أورا بر ونوبيس

شيئا فشيئا، وقفت تحسّ بالجوع، من سيعطي الرضاعة لابنها؟

زاحفة، اقتربت من الباب وبدأت تدقّه دون فائدة.

أورا بر ونوبيس

أورا بر ونوبيس

أورا بر ونوبيس

على البعد نسمع الدقات الإثنتي عشرة للناقوس.

أورا بر ونوبيس

أورا بر ونوبيس

في عالم طفلها..

أورا بر ونوبيس

اثنتا عشرة دقّة، عدّتها جيّدا.. أحسّت بشيء من النشاط فاستجمعت قوتها لتعتقد أنها حرّة، ونجحت. رأت نفسها في بيتها، بين شؤونها ومعارفها، تقول: «إلى اللقاء، لقد أسعدتني رؤيتك». تقول لجوانيتا. ثم تخرج لتنادي جبراليتا بتصفيق، وهي تراقب النار محيّية دون تيميتي وبصوت مبتهج. تتخيّل تجارتها ككائن حيّ، كجزء منها ومن كل شيء..

في الخارج، تتواصل الاحتفالات، الشاشة في مكان منصّة الإعدام، والمارّة يدورون في الحديقة كالمربوطين بالناعورة.

فتح باب الزنزانة في الوقت الذي لم تكن تتوقعه. أرجعها صوت الأقفال إلى الوراء، كأنها وجدت نفسها فجأة على حافة هاوية. جاء رجلان ليأخذاها، ودون كلمة واحدة دفعاها في ممرّ ضيّق تكنسه الرياح الليلية بنفخات قوية، ثم عبروا قاعتين مظلمتين. عندما دخلت القاعة كان رئيس المحكمة يحادث الكاتب بصوت مهموس.

«هذا الرجل الذي يعزف على الهارمونيوم في عذراء الكرمل.

أحسب أني عرفته عندما أوقفوني. رأيته في الكنيسة. لا يبد وأنه رجل سيئ!..» نظر إليها رئيس المحكمة طويلا. ثم سألها عن هويتها: الاسم، العمر، الحالة المدنية، المهنة، العنوان. أجابت المرأة بوضوح، مضيفة بعفوية، بينما الكاتب يدوّن الإجابة الأخيرة، سؤالا لم يسمع جيّدا لأن الهاتف رنّ في نفس اللحظة، وسمع في القاعة المجاورة صوت امرأة خشن زاده الصمت قوّة: «نعم! وكيف الحال؟.. أنا سعيدة جدا!.. سمعت الخبر من خادمتي كاندوشا.. الفستان؟.. الفستان جيّد، نعم الفصالة جيّدة.. ماذا؟.. لا. ليست ملطخة.. قلت أنها ليست ملطخة.. نعم، لا تتأخري.. نعم، نعم.. نعم تعالي دون تأخير.. إلى اللقاء.. تصبحين على خير.. إلى اللقاء».

في نفس الوقت يجيب رئيس المحكمة على سؤال فدينا بصوت عادي مغلّف بسخرية وحشية:

حسنا! لا تخشي شيئا، نحن هنا من أجل ذلك، كي نعلم اللواتي يجهلن، لماذا هنّ موقوفات. ثم أضاف بعد تغيير صوته، وتكبير عيني الضفدع في بؤبؤيه، ولكن قبل ذلك ستخبرينني ماذا كنت تفعلين هذا الصباح في منزل الجنرال أوزيبيو كاناليس؟

ذهبت.. ذهبت أسأل عن الجنرال من أجل مسألة ما.

أية مسألة، إذا يمكنتا أن نعرف؟

آه! أنها مسألة تخصّني، سيّدي! مهمّة خاصة!هو.. سأحكي لكم كل شيء: كي أنبّهه أنه سيعتقل بسبب جريمة عقيد لا أعرف اسمه قتل عند باب الرحمان..

ولك الجرأة لتسألي لماذا أنت في السجن؟ الكلبة! ألا يكفيك هذا؟.. الكلبة! ألا يبد ولك ذلك كافيا؟ غير كاف! ومع كلّ غير

كاف يزيد استنكار رئيس المحكمة.

انتظر سيدي، حتى أخبرك! انتظر سيدي. ليس كما تعتقد.. انتظر! عندما وصلت عند الجنرال، لم يكن هناك. لم أره، لم أر أحدا، كانوا كلهم قد خرجوا، كان المنزل فارغا، كانت الخادمة بمفردها، تركض في كل مكان!

وترين أن هذا لا يكفي؟ وترين أن هذا لا يكفي؟ وفي أية ساعة وصلت إلى هناك؟

عندما دقت ساعة الرحمة السادسة صباحا، سيدي.

لك ذاكرة جيّدة. وكيف علمت أن الجنرال كناليس سيقع إيقافه؟

أنا؟

نعم، أنت!

علمت من زوجي!

وزوجك.. ما اسم زوجك؟

جينارو رودس!

من أعلمه؟ كيف علم بالأمر؟ من أعلمه به؟

أحد أصدقائه، سيدي، يدعى لوشيو فاسكاز، في البوليس السري. هو من أبلغ زوجي، وزوجي..

وأنت للجنرال! واصل رئيس المحكمة دون أن يتركها تكمل.

حرّكت فدينا رأسها مثل شخص يقول: «يا له من عنيد، لا!»

وفي أية وجهة ذهب الجنرال؟

ولكن، يا إلهي، بما أني لم أر الجنرال. أؤكد لك، ألم تكن

تسمعني؟ لم أره، لم أره! فبما سينفعني الكذب؟ والأسوأ أن يكتب ذلك، هذا السيد، في اعترافاتي!.. وأشارت لكاتب المحكمة الذي نظر لها مجددا، وجهها الشاحب والملطخ يذكر بورق نشّاف أبيض امتص العديد من نقاط الاسترسال.

الذي يكتبه لا يعنيك! أجيبي عما تسألين! ما هي الوجهة التي اتخذها الجنرال؟

ساد الصمت، وطال.. حتى قطعته الصيحة الصارمة لرئيس المحكمة:

ما هي الوجهة التي اتخذها الجنرال؟

لا أدري! ماذا تريدني أن أجيبك؟ لا أدري، لم أره، لم أكلمه.. يا لها من حكاية!

تخطئين كثيراً بالإنكار، السلطة تعرف كل شيء، وتعرف أنك تكلمت مع الجنرال!

أفضل الضحك!

اسمعي جيدا، ولا تضحكي، لأن السلطة تعرف كل شيء، كل شيء، كل شيء ـ وفي كل شيء يهزّ الطاولة بضربة من قبضته ـ إذا لم تري الجنرال، من أين لك هذه الرسالة؟ دخلت بنفسها إلى قميصك، أليس كذلك؟

أنها الرسالة التي وجدتها في منزله، التقطتها من الأرض عند مغادرتي. ولكن من الأحسن ألا أقول شيئاً لأنك لا تصدقني، كأنني كاذبة!

التقطتها! الحشرة، لا تحسن حتى الكلام! غمغم الكاتب.

اسمعي سيدتي، يكفي من القصص، وقولي الحقيقة، لأن كل ما ستحصلين عليه من الكذب هو عقوبة تذكرك بي طوال حياتك!

ولكني قلت لك الحقيقة، والآن إذا لم تصدقني لا يمكنني على كل حال أن أضربك لتصدّقني، لست ابني.

سيكلّفك هذا غاليا، افهمي ما أقول لك! أيضاً: ماذا كنت تريدين من الجنرال؟ من أنت بالنسبة له؟ أخته، خليـ. ستقولين لنا ماذا أخذت منه؟

أنا؟.. الجنرال؟.. لاشيء، لقد رأيته على الأكثر مرّتين في حياتي، تصوّر أن ابنته تعهّدت أن تضع ابني على ركبتيها عند العماد..

ليس سببا!

لقد وعدتني!

كذب! أضاف الكاتب بوشوشة.

وإذا تألّمت، وإذا فقدت عقلي وركضت، إلى حيث تعلمون، أن لوشيو روى لزوجي أن رجلاً سيختطف ابنة الجـ.

كفى كذبا! من الأحسن أن تقولي بطيب خاطر عن مكان الجنرال، لأني أعلم أنك تعرفينه، أنك أنت الوحيدة التي تعرفينه، وستخبريننا به الآن، هنا، ستخبرينني أنا فقط.. كفّي عن البكاء! إني أسمعك! وأضاف خافضا صوته حدّ الوشوشة: إذا أخبرتني أين الجنرال.. اسمعي، اسمعي، أعلم أنك تعرفين المكان وستخبرينني عنه. إذا أخبرتني عن مكان اختباء الجنرال سأعفو عنك. ومن هنا سأطلق سراحك، وستذهبين مباشرة إلى منزلك بهدوء.. فكري بذلك.. فكري جيدا..

آه! يا سيدي لو كنت أعلم، لأخبرتك! ولكن لا أعلم، من سوء الحظ لا أعلم.. أيتها العذراء ما الذي سيصيبني!

لماذا تنكرين؟ ألا ترين أنك تحكمين على نفسك بنفسك؟

أثناء صمت رئيس المحكمة ينظف الكاتب أسنانه بلسانه.

إذن! إذا كان لا ينفع معك التعامل الطيّب، لأنك لست سوى نذلة ـ قال رئيس المحكمة هذه الجملة بسرعة وبغضب متصاعد كبركان هائج. ستقولين لي بالقوّة. اعلمي أنّك ارتكبت جريمة ضدّ أمن الدولة، وأنك بين أيدي العدالة كمسؤولة عن فرار خائن متمرّد، قاتل وعدوّ للسيد رئيس الجمهورية!.. وهذا أمر خطير، نعم، هذا أمر خطير!

لم تدر زوجة رودس ماذا تفعل. إن كلمات هذا الرجل الشيطاني تخفي تهديدا واضحا، رهيبا، شيئاً يشبه الموت. فكّاها يرتعشان، وأصابعها وقدماها.. الرجل الذي ترتعش أصابعه، كأنه نزع عظام يديه التي يحركها مثل قفّاز. الذي يرتعش فكّاه دون أن يستطيع الكلام، برقيات الرعب. الذي ترتعش قدماه يذهب واقفا في عربة تجرّها حيوانات هائجة، مثل روح يحملها الشيطان.

سيّدي! أنّت.

اعلمي أنّنا لا نمزح! قولي بسرعة! أين الجنرال؟

فتح على البعد بابًا ليسمع صوت طفل يبكي. بكاء حارا، بائسا.

افعلي ذلك من أجل طفلك!

حتى قبل أن ينهي رئيس المحكمة كلماته، بحثت فدينا، ورأسها مرفوعة، في كل الجهات، عن المكان الذي يأتي منه الصوت.

أنه يبكي منذ ساعتين، لا فائدة من البحث عنه.. أنه يبكي من الجوع وسيموت جوعا إذا لم تقولي لي أين الجنرال!

انطلقت نحو باب، ولكن، بسرعة، أوقفها ثلاثة رجال. ثلاثة وحوش حطموا دون جهد كبير قواها الضعيفة. انحل شعرها في هذه المقاومة دون فائدة، وخرج قميصها من تنورتها، وسقطت تنورتها الداخلية. عادت شبه عارية، تزحف على ركبتيها، تترجّى رئيس المحكمة أن يدعها ترضع ابنها.

كل ما تريدين، ولكن قولي لي قبل ذلك أين الجنرال!

بحق عذراء الكرمل، سيدي - تترجّي وهي تقبّل حذاء القاضي - بحق عذراء الكرمل، دعني أرضع طفلي! اسمع، لم يعد يملك حتى القدرة على البكاء، اسمع أنه يموت، اقتلني بعد ذلك إذا أردت!

عذراء الكرمل لا تقاومني! سنبقى هنا ما لم تقولي لي أين يختبئ الجنرال. وابنك سيموت من كثرة البكاء!

ركعت، كمجنونة أمام الرجال الذين يحرسون الباب. تتعارك معهم. ثم تعود للركوع أمام رئيس المحكمة تحاول تقبيل حذائه.

سيدي، من أجل ابنك!

نعم! من أجل ابنك، أين الجنرال؟ لا فائدة من الركوع ولعب هذه المسرحية، لأنك إذا لم تجيبي عمّا أسألك فإنك لن تعطي الرضاعة لابنك! نهض رئيس المحكمة لأنه تعب من الجلوس. الكاتب ينظف أسنانه، والريشة جاهزة لتسجيل الاعترافات التي لا تريد الخروج من فم هذه الأم التعيسة. أين الجنرال؟

أثناء ليالي الخريف تبكي المياة في الميازيب. هكذا نسمع نواح الطفل، يبقبق، مخنوقا.

أين الجنرال؟

هكذا مرّت خمس، عشر، خمس عشرة دقيقة.. في الأخير،

أضاف رئيس المحكمة، وهو يمسح شفتيه بمنديل مطرّز بالأسود، التهديد لأسئلته المكرّرة.

إذن! إذا لم تخبريني فإنك ستهرسين بعض الجير الحارّ! هكذا، ربما، يمكنك أن تتذكري الطريق التي اتخذها ذلك الرجل.

سأفعل كل ما تريد، ولكن قبل ذلك، دعني أرضع طفلي الصغير! سيّدي، لا تكن هكذا، هذا ليس عدلا! سيّدي الطفل المسكين غير مذنب! عاقبني أنا كما تريد!

دفعها أحد الرجال الذين يحرسون الباب، أرضا، والآخر وجّه لها ركلة برجله، تركتها ممدّدة على الأسمنت. مسحت الدموع والسخط الجدران والأشياء. لا يوجد شيء سوى بكاء ابنها.

عند الواحدة صباحا، كي يكفّوا عن ضربها، بدأت بهرس الجير الحارّ. ما زال طفلها يبكي.

من حين لآخر يكرّر القاضي:

أين الجنرال؟ أين الجنرال؟

الواحدة..

الثانية..

أخيرا الساعة الثالثة.. ابنها يبكي..

الساعة الثالثة، كان يجب أن تكون الرابعة على الأقل..

أخيرا الساعة الرابعة! وابنها الصغير يبكي..

أين الجنرال؟ أين الجنرال؟

تتضرّع فدينا من الألم. اليدان تغطّيهما شقوق عديدة وعميقة تزداد عمقا عند كل حركة، أطراف الأصابع متهرئة، الأظافر دامية، نيران

بين السلاميات، وهي ترحي الجير على حجر، وعندما تتوقف استجابة لبكاء طفلها أكثر من شدّة الألم، يقومون بضربها.

أين الجنرال؟ أين الجنرال؟

لم تعد تسمع صوت رئيس المحكمة. بكاء طفلها الذي يشتدّ خفوتا يملأ أذنيها.

عند الخامسة إلا عشرين دقيقة، تركوها على الأرض، فاقدة للوعي. يسيل من شفتيها لعاب لزج، ومن ثدييها المجرّحين، يسيل الحليب، أشدّ بياضا من الجير، وبين الحين والآخر تفرّ من عينيها المحمرّتين دموع سرّية.

حملوها، فيما بعد ـ والفجر بدا بالظهور ـ إلى زنزانتها. هناك استفاقت قرب ابنها المحتضر، جامد، دون حياة، مثل دمية من الصوف. حينما أحسّ أنه في حضن أمّه، استفاق قليلا وارتمى على الثدي بنهم. ولكن ما إن وضعه بين شفتيه وأحسّ طعمه المرّ بالجير حتى ترك الحلمة وعاد للبكاء، ولم يفد كل ما فعلته ليعيد امتصاصه. صاحت والطفل بين يديها، ضربت الباب.. أنه يبرد. أنه يبرد.. أنه يبرد.. لا يمكن تركه ليموت هكذا، أنه بريء. ثم تعود لتضرب على الباب وتصيح..

آه! ابني يموت! ابني يموت! آه! حياتي، قطعة حياتي الصغيرة! تعالوا بحق الله! افتحوا!بحق السماء! ابني يموت! أيتها العذراء المقدّسة! أيها القديس أنطوان المبارك! يا يسوع القديسة كاترين!

في الخارج، تتواصل الاحتفالات. في اليوم الثاني مثل الأول. الشاشة على منصّة الإعدام، والعبيد يدورون في الحلقة مربوطين بالناعورة.

(١٧)

حبّ شيطاني

هل سيأتي؟ ألن يأت؟

كأنه هنا!

لقد تأخر، لكن المهم أن يأتي..

لا تخشي شيئا، سيأتي، مؤكّد، فلتقطع رأسي إذا لم يأت. لا تقلقي..

وهل تعتقدين أنه سيجلب أخبارا عن أبي؟ هو من اقترح عليّ ذلك..

بالطبع.. سبب آخر كي..

إن شاء الله لن يأتيني بأخبار سيئة!.. لم أعد أعرف شيئا.. سأجنّ.. أحيانا أريده أن يأتي بسرعة كي أتخلص من الشك، وأحياناً ألّا يأتي إذا كان سيأتيني بأخبار سيئة.

تتابع الأفعى من ركن المطبخ الصغير دفق صوت كاميليا التي تتكلم جالسة على الفراش. شمعة ملصقة بالأرض تشتعل أمام العذراء.

يا لها من أفكار! أنا أعتقد أنه سيأتي، وبأخبار تفرحك. تذكري ما قلت لك.. تسألينني كيف أعلم؟.. أحسّه. بالنسبة للأحاسيس أنا

لا أباري.. آه! الرجال! اسمعي! سأروي لك.. صحيح أن أصابع اليد مختلفة، لكنهم كلهم سواء: مثل كلاب تجلبهم رائحة عظم. أصوات النفخ تقطّع صوت صاحبة الحانة، وتنظر إليها كاميليا وهي تنفخ دون أن تعيرها انتباها. الحبّ، يا صغيرتي، كشراب السكّر، إذا ذقته، عند إعداده، يفيض العصير من اللذة، يخرج من كل الجهات، ويجب أن تسرعي في بلعه، وإلّا، انسكب. ولكن فيما بعد! لن يبق سوى قطعة ثلج دون أي طعم أو لون.

تسمع خطوات في الشارع. يدقّ قلب كاميليا بشدّة حتى أنها اضطرت للضغط عليه بيديها الاثنتين، مرّت أمام الباب وابتعدت سريعا.

اعتقدت أنه هو..

لن يتأخر..

لقد ذهب لأعمامي قبل أن يأتي إلى هنا، ربما سيرافقه عمي خوان..

بسّسست! قط! القطّ يشرب حليبك، أخيفيها..

تنظر كاميليا للقطة التي يمسح شورابه الملطخة بالحليب المتروك على كرسي، خوفا من صياح صاحبة الحانة.

ما اسم قطتك؟

بونجوان..

كانت لي قطة اسمها قطرة.. كانت أنثى..

هذه المرّة، نعم، نسمع خطوات، وربّما.. أنه هو.

بينما كانت الأفعى تنزع الرّتاج عن الباب، تمرّر كاميليا يديها

على شعرها لتعدّله قليلا. يدقّ قلبها بشدّة. في مساء ذلك اليوم الذي ظهر لها فيه، بدت لحظات أزلية لا متناهية، كانت منقبضة، ضعيفة، دون أدنى حافز، العينان يحيط بهما السواد، كمريضة تسمع وشوشات التحضير للعملية التي ستخضع لها.

نعم آنستي، أخبار مفرحة! صاح وجه الملاك من عتبة الباب متخليا عن تعابير الألم التي كانت مرسومة على وجهه.

كانت تنتظر واقفة معتمدة على رأس السرير، العينان مليئتان دموعا والوجه بارد.

أولا، أخبار أبيك، لأنها التي تهمّك أكثر من أي شيء.. ـ وهو ينطق هذه الكلمات نظر إلى الأفعى، ودون أن يغيّر نبرته، غيّر رأيه ـ إن أباك لا يعلم أنك تختبئين هنا..

وهو، أين هو؟

اهدئي!

سأكتفي بمعرفة أن لا مكروه أصابه.

تفضّل بالجلوس سيدي.. قالت صاحبة الحانة، وهي تمدّ كرسيا لوجه الملاك.

شكرا..

بالطبع لديكما ما تتكلمان بشأنه. وإذا لم تكونا في حاجة لأي شيء سأذهب. سأعود بعد حين. سأخرج لأرى ما حصل للوشيو: منذ خرج هذا الصباح لم يعد حتى الآن.

كان المحظيّ على وشك أن يطلب من صاحبة الحانة ألّا تتركه بمفرده مع كاميليا، لكن الأفعى كانت قد دخلت إلى الباحة الصغيرة لتبدل ملابسها، وقالت كاميليا:

فليجازيك الله على كل ما فعلته معي، هل تسمعينني سيدتي؟.. المسكينة! أنها طيّبة جداً، وكل ما تقوله طريف. تؤكّد إنك طيّب جدّا، غنيّ جدّا، وروحك مرحة، وأنها تعرفك منذ زمن بعيد..

نعم أنها طيّبة حقيقة، ولكن لا يمكن أن نتحدث أمامها بحريّة، من الأحسن أن تنصرف. بالنسبة لأبيك كل ما نعرفه أنه هارب، وما دام لم يعبر الحدود لن نحصل على معلومات أكيدة. ولكن قولي لي، هل رويت لهذه المرأة شيئاً عن أبيك؟

لا، لأني اعتقدت أنها على علم بكل شيء..

إذن! يجب ألا تخبريها بأي شيء.

وأعمامي؟

لم أتمكن من الذهاب لرؤيتهم، بما أني كنت مشغولا بالبحث عن معلومات بخصوص الجنرال، لكني أعلمتهم أني سأزورهم غدا.

اغفر لي استعجالي، ولكنك تتفهم أني سأكون أهدأ عندهم، خاصة عند عمي خوان عرّابي، الذي كان مثل أب لي..

هل كنتم تتقابلون كثيرا؟

تقريبا كل يوم.. تقريبا.. نعم لأنه حين لا نذهب إليه يأتي هو إلينا، مع زوجته أو بمفرده. أنه الأخ الذي يفضله أبي عن باقي إخوته. كان أبي يقول لي دائما: «إذا كان لي أن أبتعد عنك، فسأتركك مع خوان، يجب أن تكوني في منزله وأن تطيعينه كأنه أنا». يوم الأحد الأخير تناولنا العشاء معا.

على كل حال، اعلمي أني أخفيتك هنا، فلكي أحميك من سوء معاملة البوليس، ولأن المكان قريب من منزلكم.

ترتعش شعلة الشمعة المتعبة مثل نظرة الأعشى. على هذا الضوء بدا وجه الملاك ضعيفا، نصف مريض، ينظر إلى كاميليا أكثر صفرة، أكثر وحدة، وأكثر إغراء من أي وقت مضى في فستانها الأصفر الصغير.

فيما تفكّرين؟.. قالها بصوت حميمي لرجل مرتاح.

في المشاكل التي يعانيها والدي، هاربا في الأماكن المجهولة المظلمة، لا أدري كيف يتحمل العطش والجوع، دون سند. فلتحرسه العذراء! تركت الشمعة مشتعلة طوال النهار أمامها من أجله..

لا تفكري في هذا، لا تستدعي المصاعب، فالأمور تقع كما كتب لها أن تحدث. لم نكن نتصور، أنت التي لم تعرفيني إلا منذ يوم واحد، وأنا، أن أقدّم خدمة لأبيك.

أخذ إحدى يديها، فتركته يداعبها وهما ينظران للوحة العذراء.

فكّر المحظيّ:

أنت من تفتحين أقفال السماوات

لأن صانع الأقفال، يوم مولدك،

طبع بالثلج بصمات جسمك

على إحدى النجمات!..

هذه الأبيات التي لا يمكن تفسير استرجاعها في لحظة كهذه، بقيت معزولة في ذهنه، مثل الخفقات التي بدأت تنبض في أرواحهما.

هل أبي بعيد حسب اعتقادك؟ متى يمكن أن نعرف بالضبط؟

ليس لديّ أدنى فكرة، ولكنها مسألة أيام..

أيام كثيرة؟

لا..

هل يمكن أن تكون لدى عمي خوان أخبار.

ربّما..

يبدو عليك عدم الارتياح عندما أكلّمك عن أعمامي..

كيف تقولين هذا؟ أبدا! على العكس، أعتقد أن بدونهم ستكون مسؤوليتي أكبر. أين يمكن أن آخذك إذا لم يكونوا هنا؟..

غيّر وجه الملاك نبرته عندما كفّ عن نسج حكايته عن هروب الجنرال، وبدأ بالحديث عن الأعمام، فهو يخشى من رؤية الجنرال عائدا مقيّدا تحت حراسة مشدّدة، أو متجمّدا كرخامة ملفوفا في غطاء مكسو بالدماء.

فتح الباب فجأة. دخلت الأفعى، شديدة الاضطراب. سقط مزلاج الباب فارتعشت الشعلة.

اعذراني على هذه العودة المفاجئة، واسمحا لي أن أقاطعكما. لوشيو في السجن!.. أخبرتني إحدى صديقاتي، وأعطتني هذه الورقة الصغيرة. أنه في السجن المركزي.. حكايات جينارو رودس! آه! هؤلاء الرجال! لابسي السراويل! لقد مرّ عليّ المساء مرّا.. في كل لحظة يدقّ قلبي بوم، بوم بوم.. لقد تحدّث جينارو أنك ولوشيو اختطفتما الآنسة..

لم يتمكن وجه الملاك من الحيلولة ضدّ الكارثة. أحاديث، ثم الانفجار.. كاميليا وهو وحبّه المسكين انتهوا بالانفجار في الهواء،

شظايا في لحظة، في أقل من لحظة.. عندما بدأ وجه الملاك في استيعاب الواقع، كانت كاميليا تبكي بحرقة، ممدّدة على الفراش. لم تتوقف صاحبة الحانة عن الكلام، وهي تقدّم تفاصيل الاختطاف دون أن تعي أن كلماتها رمت عالما بأكمله في هوّة اليأس، بينما يحس وجه الملاك أنه يدفن حيّا، وعيناه مفتوحتان.

بعد هنيهة من البكاء، طلبت كاميليا من صاحبة الحانة شيئاً لتلفّ نفسها لتغادر.

إذا كنت رجلاً طيّبا كما تدّعي ـ التفتت نحو وجه الملاك بعد أن أعطتها المرأة شالا ـ اصطحبني إلى منزل عمّي خوان.

أراد المحظيّ قول ما يجب ألا يقال، تلك الكلمات التي لا يمكن التعبير عنها بالشفاه، والتي ترقص في عيني من يتابعهم القدر ليضربهم في عمق أحلامهم.

أين قبعتي؟ سأل وصوته مخنوق من كثرة اللعاب الذي ابتلعه كي يبتلع معه الرّعب، ثم استدار وقبعته بيده، ليتأمل ـ قبل الخروج ـ المقهى حيث غرق حلم صغير. ولكن، قال وهو على العتبة، أخشى أن الوقت متأخر..

إذا كنّا سنذهب إلى مكان غريب، يكون كلامك صحيحًا، لكننا نذهب إلى منزلنا، أعلم أن أي منزل من منازل أعمامي هو منزلي..

مسكها وجه الملاك من ذراعها، وقال لها الحقيقة المرّة بعنف، كأنه ينزع عنها الرّوح:

لا تفكري أبداً بالذهاب عند أعمامك! لا يريدون حتى سماع اسمك، ولا يريدون معرفة أيّ شيء عن الجنرال، لقد أنكروه، لقد قال لي هذا الكلام عمّك خوان اليوم بالذات..

ولكنك قلت لي أنك لم تره، وأنك فقط أعلمتهم بزيارتك.. لقد نسيت ما أخبرتني قبل قليل، وتفتري على أعمامي، حتى تبقي في هذه المقهى الفريسة التي اصطدتها والتي تحاول الهرب منك، أعمامي لا يريدون سماع اسمي! ولا استقبالي عندهم!.. إنك مجنون! تعال، اصطحبني وسترى أن لا شيء مما تقوله صحيح.

لست مجنونا، صدقيني، أُعطي حياتي كي لا تتعرضي للإهانة، وإذا كنت كذبت عليك، فذلك لأن.. لست أدري.. لقد كذبت عليك إشفاقا، لكي أجنبك لآخر لحظة الألم الذي ستقاسينه.. فكرت أن أعود لأرجوهم غدا، أو القيام بمحاولات أخرى، أن أطلب منهم ألا يتركوك وحيدة دون مأوى. ولكن هيهات.. أنت تذهبين.. هيهات..

بدت الطرقات المضاءة أكثر عزلة، خرجت صاحبة الحانة مع الشمعة التي كانت تضيء أمام العذراء، حتى تنير لهم خطواتهم الأولى. أطفأها الهواء. صار الضوء الصغيرة كعلامة الصليب.

(١٨)

طرقات على الباب

دق ـ دق ـ دق! دق ـ دق ـ دق ـ دق!

مثل مفرقعات صغيرة تنفجر على الأرض، عبرت ضربات مطرقة الباب في أرجاء المنزل، فاستفاق الكلب، الذي بدأ ينبح باتجاه الشارع، أحرق الضجيج رغبته في النوم. التفتت كاميليا إلى وجه الملاك ـ تحس وهي على عتبة منزل عمها خوان بالأمان ـ وقالت له بثقة:

أنه ينبح لأنه لم يعرفني! روبيس! روبيس! أضافت منادية الكلب الذي لم يكف عن النباح. روبيس! روبيس! أنا! ألم تعرفني يا روبيس؟ اركض كي يأتوا بسرعة لفتح الباب.. ثم واصلت وهي تلتفت لوجه الملاك: سننتظر بعض الوقت!

نعم، نعم، لا تقلقي بشأني، سننتظر! تكلّم بحياد من خسر كل شيء، بحياد من تساوى لديه كل شيء.

ربما لم يسمعوا، يجب أن نطرق بأكثر قوّة ـ رفعت المطرقة وأنزلتها مرات عديدة، كانت مطرقة من البرونز المذهّب، على شكل يد. من المؤكد أن الخادمات نائمات، رغم أن لديهن الوقت الكافي للوصول! كان أبي الذي يعاني من الأرق أحيانا يقول بصدق حينما يقضي ليالي سيّئة «هنيئا لمن لديه نوم خادمة»!

كان روبيس هو الوحيد الذي يعلن عن وجوده. كان صوته يتردد أحيانا من الباحة وأحياناً أخرى من الردهة. كان يركض دون ملل بعد الطرقات، حجرات رميت على الصمت الذي يسدّ شيئاً فشيئا حنجرة كاميليا.

أمر غريب! قالت دون أن تبتعد على الباب، مؤكد أنهم نائمون. سأطرق بأكثر قوّة كي يأتوا! دق ـ دق ـ دق!.. دق ـ دق ـ دق!.. الآن سيفتحون! مؤكد لم يسمعوا من قبل.

الجيران خرجوا قبلهم! قال وجه الملاك.

رغم أن لا شيء يرى في الظلمة ولكن صوت فتح أبواب الجيران مسموع.

لم يحصل لهم مكروه. أليس كذلك؟

لا شيء مع الأسف! اطرقي أكثر، اطرقي، لا تقلقي.

سننتظر قليلا، لنرى إن كانوا سيأتون في النهاية.

بدأت كاميليا بالعدّ لتمضية الوقت: ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ٢٢ ـ ٢٣.. ٢٣.. ٢٣..٢٤.. وخمـ.. سة.. وعشـ.. رون..

لم يتحرك أحد!

.. ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ ثـــلا ـ ثــون.. ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥.. كانت تخشى الوصول إلى الخمسين.. ستـ.. ة وثلا.. ثون.. ٣٧ ـ ٣٨..

فجأة اكتشفت دون أن تدري لماذا، أن وجه الملاك قال لها الحقيقة بخصوص عمها خوان، وبرعب، ويأس، واصلت ضرب

المطرقة! دق ـ دق ـ دق! مستحيل! لم تترك المطرقة. دق ـ دق ـ دق! دق ـ دق! دق ـ دقدقدق ـ دقدقدقدق..

لا إجابة غير النباح غير المتناهي للكلب! ما الذي فعلت لهم، دون علمها، كي لا يفتحوا لها بابهم. طرقت من جديد. يولد أملها مع كل طرقة جديدة. ماذا ستصبح لو تركوها وحيدة في الشارع؟ يكفي أن تفكر في الأمر حتى تخور قواها. طرقت وأعادت الطرق. طرقت بعنف، كأنها تضرب بمطرقة على رأس عدوّ، حتى أحست بقدميها ثقيلتين، فمها مرّ، لسانها حامض، وعلى أسنانها الحكة الحارقة للرّعب.

فتحت نافذة، وسمعت أصوات. تحمس كامل جسمها. أنهم آتون! حمدا لله! أنها سعيدة بمغادرة هذا الرجل الذي تلمع عيناه كالفسفور الشيطاني كعيني قطّ، هذا المخلوق البغيض، الجميل مثل ملاك. في تلك اللحظات تلامس عالم المنزل وعالم الشارع المنفصلان بالجدار ككوكبين منطفئين. المنزل يسمح لك بأكل خبزك بسريّة، الخبز المأكول بسريّة هو خبز طيّب، يعلّم الحكمة. أنها تملك أمن ما يدوم ويجلب الاحترام الاجتماعي، أنها مثل لوحة عائلية يتصدّرها الأب متربّعا على عقدة ربطة عنقه، والأم تستعرض أجمل حليّها، والأطفال بشعرهم المصفف ورائحة العطر الأصلي. بينما الشارع، عالم غير مستقرّ، خطير، مليء بالمغامرة، مغشوش كالمرايا، نشر عمومي لغسيل الناس الوسخ.

كم مرّة لعبت، في طفولتها، أمام هذا الباب! كم مرّة، بينما كان أبوها وعمّها يتحدثان عن المشاريع وهما على أهبة المغادرة، تمتّعت بالفرجة على حوافّ الأسطح المجاورة المقسّمة كقطع نقدية على لازورد السماء!

ألم تسمع صوت اقتراب من تلك النافذة؟ صحيح، أليس كذلك؟ لكنهم لا يفتحون. أو ربما.. أخطأنا بالمنزل! سيكون الأمر مضحكا!

تركت المطرقة، ونزلت من الرصيف لتنظر إلى واجهة المنزل. لم تخطئ. أنه منزل عمها خوان. «خوان كناليس، مقاول» تقول المعلقة الحديدية على الباب. مثل طفل مطّت شفتيها وبدأت بالبكاء. كخيول صغيرة تسحب دموعها من أعماق عقلها. إن وجه الملاك لم يكذب عليها وهما يخرجان من «التوتاب». لكنها لا تريد إلى الآن أن تصدّق. رغم أن الأمر صحيح.

الضباب يلفّ الطرقات كديكور من المرمر الحليبي برائحة شراب الصبار.

اصطحبني إلى أعمامي الآخرين. فلنذهب أولاً إلى عمي لويس، لو تكرّمت..

حيثما تريدين..

تعالي إذن.. ـ الدموع تنهمر من عينيها ـ هنا لم يريدوا فتح الباب..

ذهبا. هي تدير رأسها مع كل خطوة، يحدوها أمل أن يفتحوا لها الباب، ووجه الملاك غائم، سيسمع به الدون كناليس قريباً: مستحيل أن يترك دون ثأر إهانة مثل هذه. يواصل الكلب نباحه أبعد فأبعد. سريعا يغيب كل أمل. لم نعد نسمع حتى الكلب. أمام قصر العملة اعترضهما ساعي بريد ثمل يرمي وسط الطريق الرسائل كأنه وسط حلم. ولا يستطيع حتى المشي، ومن وقت لآخر يرفع يديه ويطلق ضحكة كقوقأة الطيور الداجنة، متابعاً اللعاب السائل على أزرار زيّه الرسمي. بدأت كاميليا ووجه الملاك في حركة واحدة بجمع الرسائل ووضعها في الحقيبة ونصحاه بألا يعيد رميها.

شك.. را.. جز.. يلا.. أشك.. ركم.. كث.. يرا.. قال وهو يكرّر الكلمات، مستندا على دعامة الركن. وعندما تركاه، وكل الرسائل في حقيبته، ابتعد مغنّيا:

للصعود إلى السماء!

نحتاج

سلالم طويلة

وصغيرة!

وبين الغناء والحديث واصل بلحن مغاير:

تصعد، تصعد، تصعد،

العذراء نحو السماء

تصعد، تصعد، تصعد،

ستصعد إلى مملكتها!

عندما سيقبّل القديس جون إصبعها، لن أظل، أنا، كوب.. كوب.. كوبارسيند وسولاريس، ساعي بريد، لن أظل ساعي بريد، لن أظل ساعي بريد..

ثم عاد للغناء:

وعندما أموت

من سيدفنني؟

لا أحد غيرهن

أخوات الصدقة الصغيرات

آي! أوي - أوي - أوي - أنت فائض عن الحاجة، أنت فائض على الحاجة!

غاب وسط الضباب وهو يتمايل. كان رجلاً قصيرا برأس كبيرة. زيّه فضفاض جدّا، وقبعته ضيّقة جدّا.

في هذه الأثناء، يحاول دون خوان المستحيل كي يتصل بأخيه خوزي أنطونيو. مركز الاتصالات الهاتفية بقي أخرسا، وضجيج رنين الهاتف يشعره بالغثيان. أخيراً أجابه صوت كأنه طالع من القبر، فطلب منه منزل الدون خوزي كناليس، وخلافا لتوقّعاته، سمع مباشرة صوت أخيه الأكبر.

.. نعم، نعم، خوان يتكلم.. ظننت أنك لم تعرفني.. نعم، تخيّل.. هي وذلك الشخص، نعم.. أكيد، أكيد.. بالطبع.. نعم.. نعم. ماذا قلت؟.. لا اااا! لم نفتح لها الباب! أحقا.. وأكيد أنهما من هنا ذهبا مباشرة إليك.. ماذا، ماذا؟ هذا ما ظننته.. تركانا نرتعش! أنتم أيضا؟ بالنسبة لزوجتك، لا أعتقد أن الأمر أعجبها. أرادت زوجتي أن تفتح لهما، لكني اعترضت! طبيعي!.. طبيعي، هذا أمر بديهي..! بالطبع كل الجيران تجمعوا حولكم.. نعم.. أفهمك.. وهنا الأمر أسوء.. مؤكد أنهما اغتاظا.. وبعد المرور عليك لا بدا أنهما ذاهبان إلى لويس.. آه! لا؟ جاءاك من عنده؟..

شحوب نحاسي، ومن حين لآخر ضوء حقير، عصير ليمون، عصير برتقال، أشعة حمر لنار بالكاد أشعلت، ضوء فجري، فاجأهما يعودان خائبين من منزل دون لويس أنطونيو.

تكرّر كاميليا مع كل خطوة:

سأتدبّر أمري جيدا!

تصطكّ أسنانها من البرد. عيناها الكبيرتان حقول مرويّة دمعا، تنظر لطلوع النهار بمرارة لا واعية.

تحيي العصافير الفجر في الحدائق العمومية وداخل المنازل، في

الحدائق الصغيرة في الباحات. احتفال سماويّ ـ زغاريد وأغاريد ـ تصّاعد نحو اللازورد الربّاني للفجر، بينما يستفيق الورد، ومن جهتها تتمنى النواقيس بدقاتها صباحاً جميلا للخالق الكريم، متناوبة مع الأصوات القوية المتصاعدة من دكاكين الجزارة حيث يقطّع اللحم. أجنحة الديوك التي تعطي الإيقاع بأجنحتها، مع أصوات سقوط الخبز في السلال داخل المخابز. وأصوات وإيقاع خطوات المعربدين، مع صوت بعض الأبواب التي فتحت لتخرج منها عجوز تذهب للمشاركة في تناول القربان، أو خادمة مسرعة لإحضار الخبز لمسافر سيركب القطار بعد الإفطار مباشرة.

يطلع النهار..

الغربان تتخاصم حول جثة قطّة، بمناقيرها الكبيرة. الكلاب تلاحق الكلبات، لاهثة، العيون تضطرم والألسنة تتدلّى. مرّ كلب يعرج، وذيله بين قدميه، وبالكاد يلتفت، حزينا، خائفا ليبدي أسنانه. طوال الجدران والأبواب ترسم الكلاب شلالات نياجارا.

يطلع النهار..

يعود الهنود الذين يكنسون الطرقات خلال الليل، جماعات إلى منازلهم، الواحد تلو الآخر، مثل أشباح بأثواب خشنة، يتضاحكون ويتكلمون لغة ترنّ كغناء الصرّار في الصمت الصباحي. مكانسهم تحت آباطهم وكذلك المطريات، وأسنانهم بيض كمعجون اللوز وسط وجوههم النحاسية، حفاة، بأثواب رثّة، وأحياناً يتوقّف أحدهم، وينحني على حافة الرصيف ويضغط أنفه بين السبابة والإبهام ويتمخّط. أمام أبواب المعابد كلهم ينزعون قبعاتهم.

يطلع النهار..

صنوبريات منيعة، شبكات عنكبوت خضر رميت لاصطياد النيازك، غمام مناولة القربان الأولى. صفير قاطرات غريبة.

انفرجت أسارير الأفعى عندما رأتهما يعودان معا. طوال الليل منعها ألمها من إغماض عينيها، كانت تستعد للخروج للذهاب إلى السجن كي تحمل فطور لوشيو فاسكاز.

استأذن وجه الملاك في المغادرة، بينما تبكي كاميليا على تعاستها العجيبة.

إلى لقاء قريب! قال دون أن يدري لماذا، بعد الآن ليس لديه ما يمكنه فعله.

وهو يغادر، أحسّ، لأول مرّة منذ موت أمه، أن عينيه مليئتان دموعا.

(١٩)

الحساب يطيل العشرة

أنهى رئيس المحكمة الخاصة شكلاطة الأرز برفع كوعه مرتين كي يشربها حتى آخر قطرة. ثم مسح شاربه الذي بلون جناح الذبابة بكمّ قميصه، ثم اقترب من المصباح ليتأكد أنه شربها حقا كلها. عندما ينزع ياقته، بين كتبه القذرة وأوراقه، صامتا، قبيحا، حسير النظر ونهما، لا يمكن القول أنه رجل أو امرأة، هذا المجاز في القانون، شجرة أوراقها من الورق المدموغ، تتغذى جذورها من جميع الطبقات الاجتماعية حتى الأكثر بساطة وفقرا. من المؤكد أن الأجيال السابقة لم تر مثل هذه الشجرة ذات الورق المدموغ. وهو يرفع رأسه من صحفته، بعد أن مسحها بإصبعه ليتأكد أنه لم يترك بها شيئا، رأى خادمته تدخل من الباب الوحيد لمكتبه، خيال يجرّ قدميه، كأن حذاءها واسع، بخطوات صغيرة، الواحدة بعد الأخرى، الواحدة بعد الأخرى.

يبدو أنك أنهيت شكولاطتك!

نعم، فليجازيك الله، أنها لذيذة جدّا! أحبّ أن ينزل المشروب في الخابية.

أين وضعت الصحفة؟ قالت الخادمة وهي تبحث بين الكتب التي تغمر الطاولة بظلالها.

هنا! ألم ترينها!

بالمناسبة، هذه الدرج مليئة بالأوراق المدموغة. لو وافقت فإن بإمكاني أن أبيعها غدا لنرى ما يمكن أن نكسب منها.

لكن بسريّة، ودون أن يعرف أحد. الناس يفكرون دائماً بنيّة سيئة.

أتعني أني لا أملك بفلسين فطنة؟ يوجد هنا حوالي أربع مائة ورقة بخمسة وعشرين فلسا، ومائتين بخمسين فلسا، لقد عددتها أثناء تسخين المكواة هذا المساء.. (قطعت طرقات على الباب الخارجي حديثها).

يا لها من طريقة للطرق.. أغبياء! ارتعد رئيس المحكمة

يطرقون دائماً بهذه الطريقة. أحيانا أسمعهم من المطبخ.. من يمكن أن يكون؟.. نطقت هذه الكلمات وهي على العتبة، بدت كمطريّة برأسها الصغيرة وتنورتها الواسعة وقد زال لونها الأصلي.

عادت بعد لحظات تجرّ قدميها كالعادة، وتمسك بيدها رسالة.

ينتظرون الردّ..

مزّق رئيس المحكمة الغلاف بمزاج عكر، قرأ بسرعة البطاقة الصغيرة التي يحويها، ثم قال للخادمة بصوت هادئ:

قولي لهم أني سجّلت المسألة!

خرجت تجرّ قدميها لتعطي الإجابة للولد الذي حمل الرسالة، ثم أغلقت النافذة.

أبطأت في العودة، كانت تبارك كل الأبواب، لم تنته أبداً من أخذ الإناء.

في هذه الأثناء، يقرأ سيدها، متكئا بارتياح على أريكته، دون أن يفلت نقطة أو فاصلة البطاقة التي استلمها: زميل يقترح عليه صفقة.

«المرأة ذات السنة الذهبية ـ كتب الأستاذ فيداليتاس ـ صديقة للسيد الرئيس ومالكة لمؤسسة شهيرة لنساء عموميات، جاءت هذا الصباح لمكتبي، لتقول لي أنها رأت في «المنزل الجديد» امرأة صغيرة وجميلة يمكن أن تنفعها في تجارتها. وهي تعطي مقابلها عشرة آلاف بيزوس. مع العلم أن المرأة مسجونة بأمر منك، أبعث لك هذا الرسالة لأسألك إن كنت ترى مانعا من قبول هذا المبلغ البسيط وتسليم المرأة لموكلتي..»

إذا لم تعد في حاجة لي، سأذهب للنوم.

لا. لا شيء. تصبحين على خير..

وأنت أيضا.. فلتهنأ أرواح المطهر بالراحة!

أثناء مغادرة الخادمة وهي تجر قدميها، يعد القاضي النقود التي اقترحها عليه زميله، رقما بعد رقم: واحد، وصفر، ثم صفر، وصفر، وصفر آخر.. عشرة آلاف بيزوس!

عادت العجوز:

كدت أنسى، يعلمك الأب أنه سيقول القداس باكرا.

آه! غدا السبت! نبهيني عندما تدق النواقيس، هل سمعت؟ لأني اضطررت للسهر البارحة وأخشى أن أنام طويلا.

إذن، سأنبهك..

ومن ثم انصرفت تجر قدميها كالعادة، لكنها رجعت، فلقد نسيت أن تأخذ الإناء الوسخ إلى حوض الغسيل. تذكرت بعد أن نزعت ملابسها. «لحسن الحظ أني تذكرت، قالت بصوت مهموس، وإلا لكنت.. لبست حذاءها بصعوبة، وإلا لكنت.. فليباركني الله!» لو لم تكن لديها عادة أن لا تترك شيئاً في غير مكأنه، لكانت الآن متمتعة بالدفء.

لم ينتبه القاضي لظهورها الأخير، لأنه كان مركزا في قراءة آخر إبداعاته: مرافعة فرار الجنرال أوزبيو كاناليس. هنالك أربعة متهمين رئيسيين: فدينا رودس، جينارو رودس، لوشيو فاسكاز و.. ـ يتلمّظ ـ الآخر شخص لا يقبله قلبه: ميجال وجه الملاك.

اختطاف ابنة الجنرال مثل الحبر الذي يقذفه الإخطبوط عندما يحس نفسه في خطر، لم يكن سوى حيلة للحيلولة دون يقظة السلطة، قال في نفسه، فدينا رودس أكيدة من ذلك: كان المنزل خاليا عندما وصلت عند السادسة لترى الجنرال. أقوالها بدت لي حقيقية منذ الوهلة الأولى، وقد ضغطت عليها قليلا لأكون متأكدا أكثر: أقوالها تدين دون أي شك وجه الملاك. إذا لم يكن في المنزل أحد عند السادسة صباحا، ومن جهة أخرى كما يبدو من خلال تقارير الشرطة أن الجنرال عاد إلى منزله عند منتصف الليل، إذن فقد فرّ المحذَّر عند الثانية، عندما كان الآخر يمثل عملية اختطاف الفتاة..

يا لها من خيبة أمل بالنسبة للسيد الرئيس أن الرجل الذي وضع فيه كل ثقته قد أعدّ ووجّه خطة هروب أحد أشدّ أعدائه! كيف ستكون ردّة فعله حين يعلم أن الصديق الحميم للكولونيل باراليس سوريانتس ساهم في هروب أحد قتلته!»

قرأ ثم أعاد قراءة القانون العسكري، الذي يحفظه عن ظهر قلب، المتعلق بالمشاركة، وكمن يتمتّع بحساء حارّ، تلمع الرغبة في عينيه كلما وجد فصولا قانونية ـ كل سطرين ـ هذه الجملة الصغيرة: *عقوبة الإعدام*، أ ومرادفها: *العقوبة القصوى*.

«آه! دون ميجالينو ميجاليتو، ها أنت أخيراً بين يديّ، وللمدّة التي أريدها! لم أعتقد أننا سنلتقي سريعا، أمس، حين ألحقت بي العار أمام سيادة الرئيس! وثأري لولب لا نهاية له. أحذّرك منه!»

من الغد يصعد درجات القصر عند الحادية عشر صباحا، وهو يحرّك تنور ثأره، قلب الرصاص البارد. يمسك بيده مرافعته ومذكرة إيقاف ضدّ وجه الملاك.

انتبه سيدي القاضي، قال الرئيس بعد أن استمع لتفسير الأحداث، دعك من هذه القضية واستمع إليّ جيّدا. السيدة رودس وميجال غير مذنبين، أطلق سراح هذه السيدة ومزّق هذه المذكرة. أنتم المذنبون الحقيقيون، أيها الأغبياء، ماذا تخدمون؟ لم تصلحون؟ للاشيء.. كان على الشرطة أن تطلق النار على الجنرال كناليس بمجرّد أيّ محاولة الفرار، كي ننتهي منه؟ هذا هو الأمر الذي أعطيته، لكن الشرطة لا يمكنها أن ترى بابًا مفتوحا دون أن تتحرّك أصابعها للنهب! تعتقد أن وجه الملاك يساهم في هروب كناليس. بينما هو يساهم في قتله لا في هروبه.. لكن الشرطة عفن رائع.. يمكنك الانصراف.. بينما المذنبان الآخران، فاسكاز ورورردس، ابق عينيك عليهما، أنهما نذلان، خاصة فاسكاز، يعلم أكثر ممّا أعلموه.. يمكنك الانصراف.

(٢٠)

الذئاب فيما بينها

مثل جينارو رودس الذي لم تمح الدموع من عينيه نظرة الدمية، أمام رئيس المحكمة، ورأسه منحنية، دون أدنى شجاعة بعد المآسي التي وقعت في منزله، يضنيه ما يعانيه حتى أقسى الناس نتيجة الحرمان من الحرية. أمر الآخر أن ينزعوا عنه الأغلال، وكما يخاطب عبدا، طلب منه أن يقترب.

يا بنيّ العزيز، قال بعد صمت طويل مثّل في ذاته طريقة لمخاتلته، أعرف كل شيء، وحين أستجوبك فلكي أسمع من فمك كيف حصل موت ذاك المتسول عند باب الرحمان..

الذي حصل.. بدأ جينارو بالبكاء بسرعة، لكنه توقف بنفس السرعة، كأنه خاف مما سيقول.

نعم الذي حدث..

آه! يا سيدي، بحق الله لا تؤذني! آه! لا! سأقول لك الحقيقة لكن بحياتك لا تؤذني!

لا، لا تخف، يا صغيري، القانون قاس مع المجرمين العتاة، لكن حين يتعلق الأمر بولد طيب.. لا تخف، قل الحقيقة!

آه! لا تؤذني! إني خائف! قال هذه الكلمات وهو يرتعد مترجّيا، كأنه يدافع ضدّ خطر يحوم في الفضاء.

قلت لك لا تخف!

ما حدث.. في تلك الليلة، أنت تعلم متى. في تلك الليلة كان لدي موعد مع لوشيو فاسكاز عند ركن الكاتدرائية، عند طريق الصينيين. كنت أبحث عن عمل، وقال لي لوشيو أنه سيمكنني من الدخول إلى البوليس السري. التقينا كما قلت لك: كيف الحال؟ لا بأس، الحمد لله، من هنا وهناك، ثم وجدته يدعوني لشرب كأس في حانة أبعد بقليل من ساحة السلاح، تدعى «استفاقة الأسد» ولكن عوض كأس شربنا اثنتين، وثلاثة وأربعة وخمسة، ولكي لا أزعجك..

نعم، نعم، وافق الرئيس وهو ينظر إلى الكاتب ذي اللطخات الشقر، الذي يكتب أقول المتهم.

إذن، ها هو يفشل في الحصول عن الشغل في البوليس السري. فقلت له لا يهمّ. ثم.. آه! تذكرت الآن، كان هو الذي دفع ثمن المشروبات، إذن مضينا معاً جهة باب الرحمان، حيث يعمل لوشيو، كان ينتظر أخرسا مريضا بالكلب، قال لي فيما بعد أن لديه أمرا لقتله، قلت له سأذهب! عندما وصلنا قرب الباب بقيت متأخرا قليلا. بينما قطع الطريق بخطى ثابتة، وعندما لاح الباب رأيته يركض. فجريت خلفه معتقدا أننا ملاحقون. ولكن!.. جذب فاسكاز ظلا من الجدار، أنه الأخرس. عندما أحس الأخرس أنه وقع، بدأ يصيح كأن الجدار وقع عليه. فأخرج الآخر مسدسه، ودون أن يقول له كلمة واحدة، أطلق عليه رصاصة أولى، ثم أخرى.. آه! سيدي، أنا بريء، لا تؤذني، لست أنا من قتله! لأني بحثت عن عمل.. انظر أين وصلت.. كان من الأحسن أن أبقى نجارا.. أي فكرة واتتني أن أكون شرطيا!..

عادت صورة الدمية للالتصاق أمام أعين رودس. دون أن يغيّر

تعبير وجهه، ضغط رئيس المحكمة على زرّ. فسمعت عدة خطوات، ثم ظهر عدد من السجانين يقودهم رئيسهم.

أيها القائد، أعطوا لهذا الرجل مائتي ضربة عصا.

لم يتغير صوت القاضي ولو قليلا ليعي هذا الأمر، كأننا نسمع مدير بنك يأمر بصرف مائتي بيزوس لحامل الشيك.

لم يفهم رودس الأمر. رفع رأسه لينظر إلى رجل الشرطة، وقدماه حافيتان. ضعف فهمه أكثر حين رأى وجوههم عادية، لا تشي بأية وحشية، أو تعبير عن المفاجأة. قرّب الكاتب وجهه الملطّخ وعينيه الخاليتين من أي تعبير. تحدث القائد مع القاضي، تحدث القاضي مع القائد. ظل رودس أصمّ. رودس لم يفهم. لكنه أحس أنه سيبول في سرواله عندما أمره القائد بالذهاب إلى الغرفة الأخرى، غرفة طويلة، مقبّبة، وعندما دفعه وهو يمرّ بخشونة.

لعن القاضي رودس عندما دخل لوشيو فاسكاز، المتهم الآخر..

لا يمكن التعامل مع هؤلاء الأشخاص بطريقة عادية! ما يلزم هؤلاء الناس هو العصا والمزيد من العصا!..

رغم أنه يحس أنه بين زملائه، إلاّ أن لوشيو فاسكاز لم يرتح كثيراً خاصة بعد أن سمع الذي سمعه. أن يساهم إراديا ـ يا له من أحمق ـ في فرار الجنرال كناليس، أمر شديد الخطورة.

اسمك؟

لوشيو فاسكاز.

ولدت في..

هنا..

في السجن؟

لا. في العاصمة!

أعزب؟ متزوج؟

أعزب طوال حياتي!

أجب حسب ما يقتضيه المقام. مهنة أو وظيفة؟

موظف طوال حياتي التعيسة!

ما معنى هذا الكلام؟

ماذا! موظف إداري..

سبق إيقافك؟

نعم.

بأي جرم؟

قتل جماعي.

العمر.

لا عمر لي.

كيف ليس لك عمر.

لا أعلم كم عمري، ضع خمسة وثلاثين عاماً إذا كان من الواجب أن يكون لي عمر ما.

ماذا تعرف عن قتل الدمية؟

ألقى رئيس المحكمة هذا السؤال بغتة وعيناه مثبتتان في عيني المتهم، وعكس توقعه، لم يكن لكلماته أدنى تأثير على ملامح فاسكاز، الذي أجاب بشكل طبيعي:

الذي أعرفه عن قتل الدمية هو أني أنا من قام به ـ ثم وهو يضع إصبعه على صدره أشار إلى نفسه حتى لا يبقى أدنى شك ـ أنا!..

وهذا يبدو لك كمن يحكي طرفة! استغرب القاضي. أو أنك تجهل أنّ هذا يمكن أن يكلّفك حياتك؟..

يمكن..

كيف، يمكن؟ لدقائق لم يعرف القاضي أي موقف يتخذ. أربكه هدوء فاسكاز وصوت القيثارة التي يخرج من حنجرته. ولكي يكسب وقتا استدار ناحية الكاتب قائلا:

اكتب.. وبنبرة تغيب عنها الثقة واصل: اكتب أن لوشيو فاسكاز اعترف بارتكاب جريمة قتل الدمية بمشاركة جيناروردس.

كتبت وانتهى الأمر. قال الكاتب من بين أسنانه.

حسب رأيي، قال فاسكار بنبرة جعلت القاضي يعضّ شفتيه، أن السيد القاضي يجهل الكثير من الأمور. لماذا هذا الاعتراف؟ أكيد أني سأوسّخ يدي بحقير مثل..

احترم المحكمة، وإلا.. حطّمتك!

ليس فيما قلت أي شيء غير أخلاقي. أؤكد لك أني لم أقتل هذا الرجل من أجل الرغبة في قتله، لست غبيا لهذه الدرجة، وحين تصرفت على ذلك النحو كنت أنفّذ أمرا مباشرا من السيد الرئيس..

اخرس! أيها الكاذب! آه! ستكون المسألة سهلة جدا..

لم ينه جملته لأن في نفس اللحظة دخل السجانون يسحبون رودس، وذراعاه تتدليان، وهو يجرجر ساقيه، رخو كخرقة، كخمار القديسة فيرونيك.

كم أعطيتموه؟ سأل القاضي القائد الذي يبتسم للكاتب والسوط معلق في رقبته كذيل قرد.

مائتان!

إذن..

لو كنت مكانك سيادتك لزدته مائتين! قال الكاتب همسا، وبسرعة، كي يخرج القاضي من الحرج الذي وقع فيه. سمع القاضي النصيحة.

نعم، زيدوه مائتين، أثناء انتهائي من هذا.

«هذا يا مؤخرتي، يا وجه العجوز الشمطاء!» فكّر فاسكاز.

عاد السجانون يتبعهم قائدهم، وهم يجرجرون حملهم المثير للرثاء. رموه عند الركن المخصص للتعذيب على بطنه فوق فرش حقير. أمسك أربعة منهم يديه وساقيه، وبدأ البقية بضربه. والقائد يعدّ. تقوقع رودس من الضربات الأولى، لكنه خائر القوى، هذه المرة، ليس مثل الحصّة السابقة حين كان يصيح تحت ألم ضربات عصا السفرجل النديّة، الليّنة، ذات الاخضرار المصفرّ. انفجرت القرح التي خلفتها الحصة الأولى وبدأ الدم المتخثّر يسيل منها. كانت الصيحات المكتومة الشبيهة بصيحات حيوان محتضر دون أن يعي بالضبط بالألم الذي يحسّه، هي صيحاته الأخيرة. كان يضغط وجهه على الفراش دون صوت، الوجه متغضن والشعر أشعث. اختلطت أنّاته الجارحة مع لهاث السجانين الذين يعاقبهم قائدهم بلسعات من سوطه حين لا يضربون بالقوة اللازمة.

سيكون الأمر سهلا جدّا، لو أن كل مجرم يطلق سراحه لمجرّد قوله أنه تصرّف بأمر من السيد الرئيس! أين هو الدليل؟ السيد الرئيس ليس مجنونا كي يعطي أمرا مماثلا. أين الورقة التي تثبت أنك أمرت بالقيام بهذا الفعل الدنيء والحقير ضدّ هذا المسكين؟

شحب وجه لوشيو فاسكاز، وبينما يبحث عن إجابة، وضع يديه المرتعشتين في جيب سرواله.

أنت تعلم أن أمام المحاكم يجب أن نقدم دليل إثبات للكلام الذي نصرّح به، وإلّا! أين سنصل؟ أين ذلك الأمر؟

افهمني سيدي، ذلك الأمر لم يعد لديّ، فقد أرجعته. السيد الرئيس يعلم بذلك.

كيف ذلك؟ ولماذا أرجعته؟

لأن في أسفل الورقة أن علينا أن نرجعه عند تنفيذ الأمر! لا يمكن إبقاءه، أليس كذلك؟.. يبد ولي أنك تفهمني.

لا تضف كلمة أخرى! تختلق روايات! تحاول أن تلعب معي لعبة الرئيس! أيها المجرم! لست تلميذا كي تمرّ عليّ مثل هذه الحكايات! تصريحات الشخص لا يمكن أن تكون إثباتا لصالحه، باستثناء حالات محددة في القانون، كأن يصرّح شرطي تحت القسم.. ولكن لسنا هنا في درس للقانون الجنائي.. يكفي.. قلت يكفي...

إذن إذا لم ترد تصديقي، اذهب واسأله، لعلّك تصدقه! يمكن أني لم أكن معكم حين اتهم المتسولون..

اخرس! وإلا سأضطرّ لضربك بالعصا!.. أتتخيّلني وأنا أستجوب السيد الرئيس... الذي يمكنني قوله لك، فاسكاز، أنك تعلم أكثر ممّا قيل لك، وأن رأسك في خطر!

نكّس فاسكاز رأسه، كأن كلمات القاضي قطعته. الريح خلف النوافذ تعصف بجنون.

(٢١)

الحلقة المفرغة

نزع وجه الملاك ياقة قميصه وربطة العنق. «ليس هناك أغبى من التفسيرات التي يبحث عنها الأشخاص لسلوك الآخر. سلوك الآخر.. الآخر!.. النقد ليس إلا اغتيابا رخيصاً. تغضّ النظر على الإيجابيات، وتضخّم أي شيء. مزبلة. تنضج كالشعر على الدمّل، تنغرس عميقا، في لوم مبطّن، كزغب رقيق، تختبئ تحت السؤال العادي، المسالم، أو الحسنات العادية.. وصولا إلى الخادمات! إلى الجحيم كل هذه التفاهات!»

طارت بضربة واحدة كل أزرار القميص. تمزّق. يعتقد السامع أنه مزق صدره. نقلت له الخادمات بالتفاصيل المملة الأخبار الرائجة حول غرامياته. الرجال الذين يرفضون الزواج كي لا تكون لهم في المنزل زوجة تعيد عليهم، كتلميذة مجتهدة يوم توزيع الجوائز، الأخبار التي تروى عنهم ـ أبداً لن تكون أخبارا سارة ـ ينتهون مثل وجه الملاك، بسماعها من الخادمات.

سحب ستائر غرفته دون أن يكمل نزع قميصه. أنه في حاجة للنوم، أو على الأقل أن تغفل الغرفة النهار، هذا النهار، لاحظ بحسرة، لا يمكن أن يكون إلا اليوم.

«النوم! كرّر على حافة السرير، وقد أنهى نزع حذائه وجوربيه، وقميصه مفتوح الأزرار. آه! يا لي من غبيّ! لم أنزع سترتي!»

علّق سترته على ظهر كرسيّ وهو يسير على عقبيه حتى لا يلامس الأرض الباردة بباطن ساقيه، ثم عاد سريعا بقفزات صغيرة على ساق واحدة كطير الماء نحو السرير، ثم.. طاق!.. لقد سقط يلاحقه هذا.. هذا الأسمنت اللعين. تدور ساقا سرواله الذي رماه كما اتفق، في الفضاء كعقارب ساعة عملاقة. تبدو الأرض أكثر من أسمنت، تبدو من الجليد. يا للرعب! جليد من الملح. ملح من دموع قفز على السرير كمن يقفز من جبل جليدي إلى سفينة إنقاذ. أراد أن يهرب من كل ما يحدث له ويرتمي على سريره الذي يتخيّله جزيرة، جزيرة بيضاء محاطة بظلال وبأحداث جامدة. جاء لكي ينسى، لكي ينام، لكي لا يوجد. كفى تفكيرا عقلانيا ملائما، قابلا للتركيب والتفكيك كأجزاء الآلة. إلى الجحيم هذا الحس السليم! النوم هو الأفضل، عدم الإحساس، ذلك الإفراز الأزرق في البداية، رغم أنه يحدث أن يكون أخضر، ثم أسود، الذي يقطر من العينين إلى كل الجسم، ويحرمك من كل قدراتك. آه أيتها الرغبات!.. الرغبة أن نملك الشيء ولا نملكه. مثل بلبل من ذهب، نصنع له بأصابعنا العشرة قفصا. نوم مجدّد للقوى، قالب واحد، دون ضيوف يدخلون من المرايا ويخرجون من فتحات الأنف. كان يأمل في شيء مثل هذا، شيء مثل نوم الماضي. سريعا يفطن للعلو الذي يوجد فيه نومه، أعلى من السقف، في الفضاء المضاء، حيث فوق المنزل يتأسس النهار، النهار الذي لن يمّحي. انبطح على بطنه ـ مستحيل ـ على جنبه الأيسر، كي يخرس قلبه. على الجنب الأيمن. نفس النتيجة. مائة ساعة تفصله عن راحته الكاملة حين كان ينام في منأى عن أتعابه العاطفية. تلومه حواسه عن الألم الذي تقاسيه من عدم أخذه لكاميليا بالقوة. نحسّ أنفسنا أحيانا أقرب إلى الجزء المظلم من الحياة حيث يكون الانتحار الطريقة الوحيدة للفرار. «لن أكون بعد

ذلك أبدا..» يقول في نفسه، وهو يرتعش بأكمله من الداخل. يلامس قدما بالأخرى. يقلقه غياب المسامير على الصليب الذي ينام عليه. السكارى لهم شيء لا أدريه يشبه المصلوبين، عندما يسيرون، والمصلوبون لهم شيء لا أدريه يشبه السكارى، عندما يركلون بأرجلهم، أو حين يحرّكهم الهواء. «تتهمه حواسه..» ذكر سكران.. ذكر مصلوب.. أنت! وجه الملاك! ذكر كعرف الديك الرومي!.. الوحش لا يتحول إلى خرقة في الحساب الجنسي». يقول لنفسه. «بالعكس نحن نبول أطفالا. بوق القيامة.. حسنا، ليس بوقا. مقصّ ذهبيّ سيقطع سيلان الأطفال المتواصل. نحن الرجال نشبه أمعاء الخنازير التي يملؤها الجزار لحما مفروما كي يصنع منها مرقازا (نقانق)، ولكي أسيطر على نفسي ولكي أعفي كاميليا من رغباتي، حرمت جزءا مني من المتعة، وبسبب ذلك أحسّ نفسي فارغا، قلقا، غاضبا، مريضا، منذورا للشيطان. الرجل يمتلئ من المرأة - لحمًا مفرومًا - مثل أمعاء خنزير، حتى يكون سعيدا. أمر مقرف!

يلتفّ اللحاف حوله كتنورة داخلية. تنورة داخلية مبللة بالعرق.

«شجرة *الليلة الحزينة* تشعر بألم في أوراقها! آه رأسي! أصوات مذابة في آلاف الأجراس ..بروج الميتة.. بطعنة رقيقة في الرّقبة.. ولكن على القرب أناس يشغلون الفونوغراف. لم أسمعه من قبل قطّ. لم أعلم به. الخبر الأول في المنزل الخلفي يوجد كلب. وربما اثنان. ولكن هنا يوجد فونوغراف. وحيد. بين أصوات فونوغراف الجار وكلاب الجار الخلفي التي تسمع صوت صاحبها، يوجد منزلي أنا، رأسي، أنا.. أن تكون بعيداً وقريبا، يعني أن تكون جارا. هذه سلبية أن تكون جارا لأحدهم. لكن هؤلاء أي جهد يبذلونه! تشغيل الفونوغراف. الحديث المسيء لكل الناس. أتخيل ما يمكنهم أن يقولوا بشأني. متوحّد كجمار القبّان! بالنسبة لي فليقولوا ما

يشاؤون، سيان لدي، لكن هي.. إذا سمعت أنهم قالوا أي كلمة بشأنها، سأجعل منهم أعضاء في الشبيبة اللبرالية. لقد هددتهم كثيراً بذلك، لكني اليوم مصمم على ذلك. سأسمّهم! وربما لا! أنهم بلا أدنى حياء. أسمعهم يكرّرون في كل النواحي: «أخرج الفتاة الصغيرة بعد منتصف الليل، وأخذها عند قوّادة تملك حانة، ثم اغتصبها، كان البوليس السري يراقب عند الباب حتى لا يقترب أحد! كانت، وهو ينزع عنها ملابسها بتمزيقها، ترتعش كعصفور وقع للتو في الشّرك. امتلكها دون أن يداعبها، وعيناه مغمضتان، كمن يرتكب جريمة أو يتجرّع مسهلا. «لو يعلمون أن لا شيء حدث وأني هنا، أكاد ألوم نفسي على هذا السلوك الشهم. لو يعلمون أن كل ما اعتقدوه خطأ. هي من يشحذون رغباتهم بتخيّلها. مؤكد أنهم يتخيلونها معي، معي ومعهم. هم ينزعون عنها ملابسها، يفعلون ما يعتقدون أني فعلت معها. ضربة الشبيبة اللبرالية قليلة على هذه الملائكة. يجب البحث على تهمة أخطر. العقوبة المثالية لهما لأنهما أعزبان ـ صحيح أنهما اقتربا من الشيخوخة! ـ ستكون مع.. اثنتين من تلك النسوة.. أعرف اثنتين، لم يعد الرئيس يتحمّلهما. معهما، إذن، معهما. لكن إحداهما حبلى. لا يهمّ. بالعكس. الذي يريد السيد الرئيس تزويجه لا ينظر إلى بطن خطيبته. وهما سيتزوجان خوفا..

اتخذ وضعية الجنين، اليدان بين الساقين، والرأس محشورة في المخدات آملا في تهدئة الوميض الموجع للأفكار. تخفي له أطراف اللحاف الجليدية لسعات بدنية، ركود مؤقت للانطلاق المجنون للأفكار. هناك، على البعد، يذهب للبحث عن مفاجآت سارّة لا تسرّ! يمدّد قدميه يخرجهما من اللحاف ليلامس برونز السرير. شيئاً فشيئا يفتح عينيه. يحسّ وهو يفعل كأنه يمزق الخياطة الرقيقة لجفنيه. كان معلقا من عينيه، محجمان ملتصقان بالسقف، العظام هلامية،

خفيفة كالظلّ، القفص الصدري تحوّل إلى غضروف، والرأس عجينة طريّة..

بين الظلال القطنية تدق مطرقة الباب يد قطنية.. المنازل أشجار بمطارق.. المدن غابات ذات أشجار بمطارق.. أوراق الصوت تسقط بحساب ضرباتها.. جذع الباب السليم بعد سقوط أوراق الصوت السليمة.. لم يعد لها أي جهد إلا الطرق.. هم ليس لهم إلاّ أن يفتحوا.. لكنهم لم يفتحوا. لماذا نضرب الباب. اضرب لأضرب! لماذا نضرب الباب. اضرب لأضرب! ولا شيء! لماذا نهدم البيت..

من؟.. ماذا!..

أنها دعوة لحضور جنازة. لقد أوصلوها الآن.

حسنا، لكن لا تحملها إليه، مؤكد أنه نائم. ضعيها هنا على مكتبه.

«توفّي السيد جواشيم سيرون البارحة، بمباركة الكنيسة. يوسف زوجته وأبناؤه وكل العائلة، تبليغكم بوفاته الأليمة وترجوكم الترحّم عليه، وترجو منكم حضور مراسم الدفن التي ستقع في المقبرة الكبرى اليوم على الساعة الرابعة بعد الزوال ستقبل التعازي على باب المقبرة، ومنزل المتوفى: زقاق صانع العربات».

لا إراديا، استمع إلى دعوة جنازة الدون جواشيم سيرون التي قرأتها إحدى خادماته.

سحب إحدى يديه من تحت اللحاف ووضعها تحت رأسه. يتجول الدون جواشيم تحت جبهته، مرتديا الريش. وعلى مؤخرة الرأس يحسّ الدونا جوديت وصدرها العملاق محشور في حمّالة معدنية تحدث صريرا، وعلى كعكة شعرها مشط ضخم يتدلى منه خمار

يعطيها هيئة تمثال وحشيّ. تخشبت اليد التي يتكئ عليها، فمدّها برفق كما يفعل بقماش تمشي عليه عقرب.

شيئا فشيئا..

يدبّ نحو كتفه فيلق من النمل.. ينزل نحو مرفقه فيلق من النمل المتلاصق. من خلال جعبة ذراعه، يسقط التخشّب في الفراغ.. كانت يده نافورة مياة. نافورة أصابع مضاعفة. يحس عشرات الآلاف من الأظافر تصل حتى الأرض..

«يا صغيرتي المسكينة، اضربي لأضرب و.. لاشيء! أيتها الخنازير، البغال، لو يفتحوا الباب سأبصق على وجوههم.. أكيد، مثل ثلاثة واثنين يساوي خمسة.. وخمسة يساوي عشرة.. وتسعة يساوي تسعة عشر.. عشرة.. سأبصق على وجوههم! في البداية كانت تدق بكثير من الحماس، وفي الأخير، كأنها تضرب على التراب بمسمار.. لم تكن تطرق كانت تحفر رمسها بنفسها.. يا له من صحومدمّر!.. غدا سأذهب لرؤيتها.. أستطيع ذلك.. بذريعة أني أجلب لها أخبارا عن أبيها. أعتقد ذلك.. آه! لو توجد اليوم أخبار.. أستطيع.. ولو أنها تشك بكلامي..»

«لا أشك بكلامه! أنه متأكد، أنه متأكد بما لا يترك مجالاً للشك أن أعمامي تنكروا لأبي وأنهم يرفضون رؤيتي ولو في الصورة!» هكذا فكرت كاميليا وهي متمدّدة على فراش الأفعى وتشكو من وجع في الظهر.

في هذه الأثناء، في الحانة التي تفصلها عن الغرفة أخشاب عتيقة، يناقش الزبائن بين كأسين أحداث اليوم: فرار الجنرال كناليس، واختطاف ابنته، خبث المحظيّ.. تتظاهر صاحبة الحانة أنها لا تسمع شيئاً من حديثهم، لكنها لا تفلت أية كلمة.

دوار كبير يفصل كاميليا عن كل هذا الضجيج النتن. إحساس بسقوط عمودي في قلب الصمت. التردّد بين الصراخ ـ سيكون أمرا خطرا ـ وبين عدم الصراخ، خوفا من الإغماء الكلي صرخت.. برد شبيه بريش عصفور ميّت يلفّها ككفن. ركضت الأفعى نحوها. ما الذي حصل لها! وبالكاد رأتها بلونها الأخضر ويديها المتخشبتين، والفكين متيبسين، والأجفان مغلقة، حتى جرت لأول زجاجة شراب وجدتها وملأت فمها منها ثم بصقت السائل على وجهها. كانت على درجة من الرعب لم تدر معها في أي ساعة يغادر الزبائن. ظلت ترجو العذراء وكل القديسين أن ينقذوا هذه البنيّة الصغيرة.

«.. عندما افترقنا هذا الصباح كانت كلماتي تبكيها، ماذا تبقى لها؟.. هذا الذي يبدو لنا عصيّا على التصديق في حين أنه حقيقة، يبكينا من الألم أو من الفرح..»

هكذا كان وجه الملاك يفكر وهو على الفراش يقترب من مملكة النوم العصية، صاحيا داخل احتراق ملائكي أزرق. وشيئا فشيئا ينام طافيا على أفكاره، دون جسم، دون شكل، شبيها بهواء فاتر، يتحرّك تحت تأثير تنفسه..

في هذا السقوط نحو العدم لجسمه ظلّت كاميليا بمفردها شامخة، رقيقة وقاسية، مثل صليب مقبرة..

يحمل الحلم، إله يمخر ظلمة بحار الواقع، وجه الملاك في واحد من زوارقه العديدة. أفواه عديدة تنقذه من أفواه الوقائع المفتوحة، موجات جوعى تتقاتل حول بقايا ضحاياها بشراسة.

من أنت؟ سأل الحلم.

ميجال وجه الملاك.. ردّ رجال لا مرئيون. تتدفّق أياديهم كظلال بيض من الظل الأسود، لا يمكن لمسها.

احملوه إلى زورق.. ـ يتردّد الحلم ـ العشاق، الذين فقدوا القدرة على العشق، مكتفين بأن يُعشقوا.

مطيعين، يحمله رجال الحلم إلى ذلك الزورق، مارّين في طريقهم على طبقة الخيال التي تغطي بغبار رقيق الأحداث اليومية للوجود، حينما اقتلعه صوت من أياديهم كمخلب.

.. السرير..

.. الخادمات..

لا ليست الدعوة.. أنه طفل!

مرّر وجه الملاك يده على وجهه مذعورا ورفع رأسه. على بعد خطوتين من فراشه، يقف طفل، لاهث، لا يستطيع الكلام.

أخيرا قال الطفل:

أنها.. هي.. أرسلتني كي.. أقول.. لك.. صاحبة الحانة.. أن تذهب على هناك.. لأن الآنسة.. مريضة جدا..

لو أنه سمع هذا الكلام عن السيد الرئيس لما ارتدى وجه الملاك لباسه بهذه السرعة. خرج إلى الشارع بأوّل قبّعة وجدها على المشذب، دون أن يربط جيداً خيوط حذائه، وعقدة ربطة عنقه معوجّة..

من هناك؟ سأل الحلم.

وجد رجاله ـ في المياة القذرة للحياة ـ زهرة على وشك الذبول.

كاميليا كناليس.. أجابوه..

حسنا، ضعوها، إذا وجدتم مكانا في زورق العاشقات الحزانى..

ماذا قلت يا دكتور؟

كان في صوت وجه الملاك نبرة أبوية. كانت حالة كاميليا خطرة.

برأيي، أن الحرارة ستزيد ارتفاعا.. تطور التهاب الرئة..

(٢٢)

القبر حيّ

كفّ ابنها عن الحياة.. بطريقتها في الحركة، مثل الدمى، كهؤلاء الذين داخل الفوضى، فوضى حياتهم المحطّمة، يقطعون شيئاً فشيئا مع العقل، ترفع فدينا الجثة، التي لا تزن أكثر من صدفة جافة، إلى وجهها المحموم. تقبّله. تمسح بوجهها. لكنها فجأة تركع ـ تحت الباب يرشح انعكاس بلون التبن ـ تنحني نحو البقعة التي يكون فيها ضوء الفجر نثارا سائلا ومنيرا، متمسّحة بالأرض، تكاد تلامس الشق، حتى تتثبت في جثّة ابنها.

كان بوجهه الصغير المجعّد كجلدة مجروحة، بدائرتين سوداوين حول العينين، وشفتين بلون التراب، يشبه جنينا في قماط أكثر مما يشبه طفلا يبلغ عدة أشهر من العمر. تسحبه في رعب من الضوء وتحضنه بقوة على ثديها المنتفخ حليبا. تشكو لله بلغة مجهولة، كلمات معجونة دموعا. أحيانا يتوقف قلبها، وكاختناق المحتضر، دون أن تتوقف عن البكاء والشكوى تصرخ: «ابني.. ي.. ي.. ي.. ي..».

تسيل دموعها على خدها المتجمّد. تبكي حتى الغثيان، لم تعد تفكّر بزوجها الذي يهددونها بأن يموت جوعا في السجن المركزي إذا لم تعترف! لم تعد تهتمّ بآلامها الجسدية: يديها وصدرها المثخنين بالجراح، وعينيها المحترقتين، وظهرها المطحون

بالضربات، لم تعد تفكر في تجارتها المهملة، كانت منفصلة عن كل شيء، بلهاء. وعندما تجفّ دموعها تحسّ أنها تحولت إلى قبر ابنها، تحس أنها مازالت تحتفظ به في بطنها. كانت تتخيل أن نومه الأخير اللانهائي سيكون لها وفيها، وفرحة حادة تمزّق للحظة أبدية ألمها. فكرة أن تكون قبر ابنها تداعب قلبها كمرهم. فرحة تشبه تلك التي تحسها نساء الشرق المقدس اللاتي يخترن أن يدفنّ مع أزواجهن. أكثر من ذلك هي لن تدفن مع ابنها بل ستكون قبره الحيّ، المهد الأخير، الحضن الأمومي حيث يتّحد الاثنان، سينتظران حتى ينادى عليهما يوم القيامة. دون أن تمسح دموعها، ترتب شعرها كأنها تستعد للذهاب لحفل، وتحضنه بشدّة إلى صدرها بين ذراعيها، بين ساقيها باركة، في ركن الزنزانة.

القبور لا تقبّل الأموات ـ إذن يجب عليها ألّا تقبّله ـ لكنها تحضنه بشدّة، بشدّة، كما تفعل هي الآن! أنه قميص الجنون والحنان الذي يجبرها على تحمل الدغدغة غير المحتملة للديدان ولروائح التحلّل العضوي، بهدوء وسكينة. الظلال الملاحقة بالضوء تغمر الجدران وكذلك العقارب. كانت جدرانا من العظام، عظام موشومة بصور داعرة. تغلق فدينا عينيها ـ القبور مظلمة في داخلها ـ ولا تنطق كلمة واحدة، ولا تصدر أنّة: القبور خرساء من الخارج.

كان الوقت عصرا. رائحة سرو مغسول بماء السماء. خطاطيف. أطفال نشطون يتراكضون في الشوارع التي لا تزال الشمس تغمرها. تفرغ المدارس في المدائن نهرا من الحياة الجديدة. منهم يخرج لملاعبة القط الجائم، في ذهاب وغياب مدوّخين، ومنهم من يكوّنون حلقة حول زميلين يتعاركان كديكين مسعورين. أنوف دامية، مخاط، دموع. بعضهم يجري يدقّ أجراسا. آخرون ينقضّون على أكداس الحلوى قبل أن تفرغ أفواههم المحشوّة، بالمرطبات وجوز

الهند وكعك اللوز، أو يسقطون على صناديق الغلال كقراصنة ولا يتركوها إلا كسفن فارغة ومهشّمة. وراءهم يأتي المقايضون، يجمعون الطوابع أو يدخنون، يحاولون جهدهم للحاق.

نزلت من عربة وقفت أمام المنزل الجديد ثلاث نساء صغيرات وامرأة عجوز ضخمة الجسم. هيئتهن تفضح وضعهنّ. الشابات يرتدين ملابس بألوان زاهية، جوارب حمر، أحذية صفر بكعوب شديدة العلو، التنورة فوق الركبة تظهر السراويل المخرّمة بدانتيلا وسخة، والقميص مشقوق حتى السرّة. التسريحة التي يطلقن عليها «باروكة لويس الخامس عشر» تتمثل في عدد كبير من الخصلات المشحّمة، يشدّها من كل جهة شريط أخضر أو أصفر. وطلاء خدودهن الذي يذكر بالمصابيح الحمر في بيوت الدعارة. العجوز التي ترتدي السواد وشالا بنفسجياً تنزل بصعوبة مستندة على إحدى الحارسات بيديها الممتلئتين، اللتين يغطّيهما الحليّ المزيّف.

على العربة أن تنتظرنا، أليس كذلك، *ماما* شونيتا؟ سألت أصغر الجميلات وهي ترفع صوتها، حتى تسمعها حتى الحجارة، في هذه الطريق المقفرة.

نعم، بالتأكيد. فلتنتظرنا هنا. أجابت العجوز.

دخلت الأربع نساء إلى المنزل الجديد، حيث استقبلهم الحارسة بحفاوة.

يوجد بعض المنتظرين في هذا المكان غير المريح.

قولي يا شينتا، هل السكرتير موجود؟ سألت العجوز الحارسة.

نعم، دونا شون، بالكاد وصل.

اسأليه إن كان يوافق على مقابلتي. أخبريه أني أحمل له أمرا، أنا في أمسّ الحاجة إليه.

صمتت العجوز في انتظار عودة الحارسة. بالنسبة لكبار السّنّ يحتفظ المكان بعطر الدّير لأنه قبل أن يكون سجنا للنساء كان سجنا للحبّ. نساء ونساء. على الجدران تحوم أصوات الأخوات الراهبات كرفرفة الحمام. إذا لم نشاهد الزنبق عليها فالنور أبيض، يداعب الأنظار بفرحة، تبدو بالنسبة للصوم والمسوح بدائل عن أشواك العذاب التي تزهر على شارة الصليب ونسيج العناكب.

عندما عادت الحارسة ذهبت *الدونا شونا* للتفاهم مع السكرتير. فقد سبق لها الحديث مع المديرة. يأمر رئيس المحكمة الخاصة أن يسلموا لها (مقابل عشرة آلاف بيزوس، لم يكتبها) الموقوفة فدينا رودس، التي ستنتمي من الآن فصاعدا إلى «السحر العذب»، كما يسمى ماخور الدونا شون ذات السنّ الذهبية.

دوّت ضربتان كقصف الرعود في زنزانة المظلمة حيث تقبع المسكينة مع ابنها، دون حراك، دون أن تفتح عينيها، تقريبا دون أن تتنفّس. تغالب وعيها وتتظاهر أنها لم تسمع شيئا. بكت الأقفال. اقتحمت أنّة سلاسل صدئة تشبه النواح قداسة الصمت. فتحوا الباب وأخرجوها بضربات. أغمضت عينيها كي لا ترى الضوء ـ القبور مظلمة من الداخل ـ وكعمياء، بكنز ابنها الميّت الذي تشدّه إلى قلبها. لم تكن سوى حيوان اشتروه من أجل التجارة الأكثر حقارة.

تتصنّع الخرس!

لا تفتح عينيها حتى لا ترانا!

لا بدّ أنها خجلة!

مؤكد أنها لا تريد أن يفيق ابنها!

تلك عيّنة من أفكار الدونا شونا وفتياتها الجميلات طيلة الطريق.

تسير العربة في الطرق غير المعبّدة، وتصدر ضجيجا رهيبا. الحوذيّ؛ أسباني بهيئة دون كيشوت، يلقي اللعنات على الأحصنة التي يستعملها أيضاً، في الحلبة، لتهييج الثيران، وبجانبه تقطع فدينا الطريق بين المنزل الجديد والمنزل سيء السمعة، كما في الأغنية، في نسيان مطلق للعالم الذي يحيط بها، دون أن تحرّك جفنيها، دون أن تحرّك شفتيها، ضاغطة على ابنها بكل قوّتها.

بينما كانت الدونا شونا تعطي الحوذي الأجرة، ساعدت الفتيات فدينا على النزول، وبأيادي لطيفة لصديقات طيبات أدخلنها، برقّة إلى «السحر العذب».

بعض الزبائن أغلبهم من العسكر يقضون الوقت في الماخور.

كم الساعة الآن؟ هيه أنت! صاحت الدونا شونا باتجاه البارمان.

السادسة وعشرون، دونا شونبيبة.. أجابها أحد العسكر.

أنت هنا أيها البوم الكبير.. لم أرك!..

خمسة وعشرون، في هذه الساعة..

أثار ظهور *الجديدة* فضول الجميع. الكل يريدها من أجل الليلة. تسمّرت فدينا في صمت القبر، جثة ابنها ملفوفة بين يديها، دون أن ترفع عينيها، تحس نفسها باردة وثقيلة كشاهدة قبر.

اذهبن! أمرت السن الذهبية الجميلات، احملنها إلى المطبخ. ولتعطها مانويلا ما تأكله، واجعلنها تستحمّ وتسرّح شعرها.

اقترب نقيب في سلاح المدفعية بعينين خضراوين، من الجديدة ليداعبها بين فخذيها لكن إحدى الفتيات أبعدته. ثم التصق بجسمها عسكري آخر كأنه يحتضن جذع نخلة، وهو ويدير عينيه البيضاويتين ويكشف عن أسنانه الهندية، شبيه بكلب ملتصق بأنثاه الشبقة. ثم

قبّلها، وهو يحكّ شفتيه العبقتين بالشراب، على الوجنة الباردة والمالحة من الدموع الجافة. فرحة الثكنة والماخور! حرارة المومسات تعوّض التمارين الباردة للرصاص.

هيا، أيها البوم الكبير، أيها القرد الداعر.. تدخلت الدونا شونا واضعة حدا للفحش. آه!حقا! يجب عليك أن تهدأ.

لم تدافع فدينا عن نفسها ضد هذه الملامسات الخبيثة. مكتفية بإغماض عينيها وبزمّ شفتيها كي تحمي عماها، وصمت القبر المهددين، لكنها ضاعفت في الضغط على بقايا ابنها، التي مازالت تهدهدها كطفل نائم.

عبرت ساحة تغرق مساء في سيل. تسمع أنات نساء، أصوات خافتة، رقيقة، همسات مرضى وتلميذات، سجينات أو راهبات، صيحات حادّة، خطوات نساء يمشين، بجواربهن. تسقط في غرفة أوراق اللعب، وتنتشر على الأرض كمروحة، لا ندري من رماها. أخرجت امرأة بشعر منكوش رأسها من باب الغرفة الصغيرة، ثم مسحت، وهي تنظر للأوراق كأنها تنظر لانعكاس قدرها، دمعة سالت على وجنتها الذابلة.

يضيء الشارع مصباح أحمر معلّق بباب «السحر العذب». كأنه بؤبؤ حيوان مصاب بالتهاب. يصبغ الرجال والحجارة بلون مأساوي. لغز غرف التصوير. يأتي الرجال للساحة في هذا الضوء الأحمر، خجلين من أن يراهم الناس، كأنهم يشربون دماء، ثم يعودون نحو ضوء الشوارع، نحو الضوء الأبيض، للإنارة العمومية، نحو نور الضوء المنزلي، بذلك الشعور المقلق بأنهم حجبوا صورة.

تواصل فدينا عدم اهتمامها بما يدور حولها، لا شيء يشغل تفكيرها إلا طفلها. العينان مغمضتان بشدّة، وكذلك الشفتان، والجثة

مضمومة إلى الثدي الذي يفيض حليبا. لا داعي للحديث عما فعلته صديقاتها لإخراجها من تلك العزلة قبل الوصول إلى المطبخ.

منذ سنوات تتحكّم الطباخة مانويلا المصلوبة، بالفحم وأوساخ «السّحر العذب». كانت *الأب الأزلي* دون لحية مرتدية تنانير منشّاة. عندما ظهرت فدينا، امتلأت الوجنات المرتخية لهذه السيدة الضخمة بمادة هوائية تحولت إلى كلمات.

مجنونة أخرى! من أين خرجت هذه؟.. وماذا تمسك بيديها؟

أفهمت الجميلات بحركات بلهاء ـ لأنهن لم يستطعن الكلام ـ الطباخة، بوضع يد فوق أخرى بشكل مهد، أن الساكنة الجديدة خرجت من السجن.

دجاجة عاهـ.. عفنة! واصلت الأخرى. وعندما ذهبت الأخريات أضافت سأطعمك سمّا بدل الطعام. ها هو.. خذي! كلي! هناك! خذي!.. وكالت لها ضربات بالملعقة الكبيرة على ظهرها. جلست فدينا على الأرض، مع ابنها، دون أن تفتح عينيها أو تجيبها. لم تعد تحسّه من كثرة ما حملته في نفس الوضعيّة. تتحرك المصلوبة جيئة وذهابا وهي تلعن وترسم إشارات الصليب.

أثناء تحرّكها اشتمّت رائحة كريهة. كانت عائدة من حوض الغسيل بطبق بيديها، ودون أن تتوقّف ركلت فدينا وهي تصيح: «هذه النتنة تصدر الرائحة الكريهة! أخرجوها من هنا! أبعدوها من أمامي! لا أريدها هنا!»

أسرعت دونا شونا من كثرة الصياح، وبقوّتها معاً تمكنتا من فتح ذراعي المسكينة، كأنهما تكسران أغصان شجرة، التي أحست أنهما تأخذان ابنها صاحت صيحة فزع وأغمي عليها.

إن الطفل يصدر رائحة نتنة. ولكنه ميّت! يا للفظاعة!.. صاحت الدونا مانويلا.

لم تستطع السن الذهبية نطق كلمة واحدة، وبينما تجتاح المومسات المطبخ، جرت نحو الهاتف وأعلمت السلطات. كلهن يردن رؤية الطفل وغمره بالقبل، يتخطفنه من الأيدي والشفاه. غطّى قناع من لعاب الخطيئة، الوجه الشاحب للجثة التي بدأت تتعفّن. ثم بدأ النواح واستعدادات الدفن. تدخل العقيد فرفان للحصول على ترخيص الشرطة. تفرغ غرفة من الغرف الأنيقة، الأكبر بينها، توقد شموع ويشعل بخور كي تبتعد رائحة المنيّ المتخثّر. أحرقت الدونا مانويلا القطران في المطبخ، وعلى طبق أسود لامع، بين الأزهار والأعشاب العطرية، وضع الطفل منكمشا متيبّسا، أصفر كسرطان بحري بين أوراق الخس الطرية.

لكل واحدة منهن مات طفل هذه الليلة. أشعلت أربع شموع عسليّة. رائحة كعك الذرة والشراب، أجساد مريضة، أعقاب سجائر، وبول. امرأة نصف ثملة، ثديها خارج الفستان، في فمها سيجار، تمضغه بقدر ما تدخنه، تكرّر بين دموعها:

نم يا طفلي الصغير

يا رأس القرعة الصغيرة

لأنك إذا لم تنم سيأكلك الذئب!

نم، يا حياتي، لأن لي عملا

سأغسل لك حفاظاتك

ثم أواصل الخياطة!

(٢٣)

تقرير للسيد الرئيس

.. ألخندرا، أرملة بران، تقطن هذه المدينة، صاحبة دكان حشايا «الحوت الصريح»، تعلم أن دكانها مجاور لحانة «التوتاب»، استطاعت ملاحظة ـ خاصة بالليل ـ تكرّر اجتماع أشخاص، بدعوى زيارة مريضة. تعلم السيد الرئيس، لأنها تعتقد، من خلال الأحاديث التي استمعت لها من خلف الجدران، أن في هذه الحانة يختبئ الجنرال أوزيبيو كناليس، وأن الناس الذين يذهبون هناك يتآمرون على أمن الدولة، وضد سلامة الحياة الغالية للسيد الرئيس.

.. سوليداد بالمارس، تقطن هذه المدينة، تقول أنها لم يعد لها ما تأكل لأنها استنفذت كل مدخراتها، وبما أن لا أحد يعرفها، فلا أحد يرضى بإقراضها. في هذه الوضعية ترجو السيد الرئيس، أن يمنحها حرية ابنها، مانويل بالمارسه ونسيبه فيديركو هونيروس ويمكن لوزير دولته أن يشهد بأنهما لا يهتمان بالسياسة، لقد جاءا فقط ليكسبا بعض المال عبر عمل شريف، ولم يفعلا شيئاً غير قبول توصية من الجنرال كناليس للحصول على عمل في المحطة.

.. العقيد برونديسيو بارفاكتوباز يُعلم: أن العمل الذي قام به في الأيام الماضية عند الحدود، كان بهدف دراسة الأماكن، وحالة الطرق والدروب، كي يختار النقاط التي سيحتلها. يصف بتفصيل مخططا لحملة سهلة التنفيذ على نقاط إستراتيجية في صورة وجود

حركات ثورية. يؤكّد أن هناك متطوعين للقدوم إلى هنا، وأن الذين يستقطبونهم هم خوان ليون بارادا وآخرون. لهم من العتاد: قنابل يدوية، رشاشات، بنادق خفيفة ومتفجرات للمناجم واستعمالات أخرى. تتكون الخلية الثورية من حوالي خمسة وعشرين إلى ثلاثين رجلاً، يهاجمون في كل آن القوات العليا للحكومة. سمعوا الخبر بخصوص كناليس لكنهم غير متأكدين، لكنهم إذا تأكدوا سيكتسحون البلد، إلا في حالة اتفاق دبلوماسي لاحتجاز الثوار. أنه جاهز لدحر الغزو الذي أعلنوا أنه سيكون أول الشهر القادم، لكن ينقصه السلاح لفرقة القنّاصة. لديه فقط عيار ٤٣. باستثناء بعض المرضى الذين وقعت العناية بهم كما يجب، فالفرقة على ما يرام وتتلقى الأوامر يوميا، من السادسة إلى الثامنة صباحا. يستهلك الرجال عجلا كل أسبوع. سبق أن طلب الموقّع أدناه من الميناء أكياس رمل لتكوين دروع.

.. خوان أنطوني ومارس يقدّم شكره للسيد الرئيس، على اهتمامه بتفضله بمداواته عن طريق أطباء سيادته. ويرجو منه السماح له بالقدوم إلى العاصمة لاطلاعه على عديد الأمور بشأن التحركات السياسية للأستاذ أبال كارجفال.

.. لويس رافاليس م. يعلم أنه مريض ولا يملك ما يمكنه من المداواة، يرغب في العودة إلى الولايات المتحدة، حيث يلتمس وظيفة في إحدى قنصليات الجمهورية، ولكن ليس في نيواورليان، ولا في نفس الظروف السابقة، بل كصديق حميم للسيد الرئيس. في نهاية يناير الماضي أسعده الحظ بوجود اسمه على لائحة المقابلات. لكن حين كان يهم بالدخول، لاحظ حذرا من قبل أركان الحرب: وقع تأخير اسمه على اللائحة، ثم حين حان دوره، أخذه ضابط إلى غرفة منعزلة وفتشه، كما يفتش فوضوي، وقال له أنه يفعل ذلك لأنه

يعلم أن الأستاذ كارجفال دفع له لاغتيال سيادة الرئيس، وهكذا انتهت المقابلة. قام بعد ذلك بكل ما يتوجّب دون أن ينجح في التحدث مع سيادة الرئيس، ليعلمه بأشياء لا يمكن له أن يبوح بها للورق.

.. نيكوميدوس أسنتينو كتب ليعلم أن بعودته إلى المدينة التي دائماً ما يغادرها من أجل تجارته، لاحظ في طريقه أن المعلقة التي توجد على خزان المياه، حيث يوجد اسم السيد الرئيس، تكاد تكون ممزّقة كلّيا: ثمّ نزع ستة أحرف والبقيّة أصابها التلف.

لوشيو فاسكاز، سجين بالسجن المركزي، بأمر من أركان الحرب، يطلب منحه مقابلة.

.. كتارينو روجيسيو يعلم: حين كان مسؤولا عن العقار «الأرض» التي يملكه الجنرال أوزبيو كناليس، استقبل هذا السيد في شهر اغسطس من السنة الماضية أربعة أصدقاء، وصرّح لهم، وهو ثمل، لو أن الثورة تنطلق فلديه تحت تصرّفه فيلقان: واحد كان تحت إمرة واحد منهم، كان يتحدث مع عقيد اسمه فرفان، والآخر تحت إمرة ملازم أول لم يذكر اسمه. بما أن الإشاعات حول الثورة مازالت قائمة وجب أن يعلم السيد الرئيس بكل هذا كتابة، نظرا لاستحالة أن يقوله شفاهة رغم أنه تقدم بعديد الالتماسات لمقابلة سيادتكم.

.. الجنرال مياغاديورابون ينقل رسالة بعثت إليه من الكاهن أنطونيو بياس كوستوديو الذي يعلم أنه منذ أرسل بأمر من سيادة رئيس الأساقفة، ليعوض، في خورنية سان لوقا، الأب أورجيجو، فإن هذا الأخير يفتري عليه ويحرض الألسنة الخبيثة، بمساعدة الدونا أركاديا دي أيوسو. وبما أن وجود الأب أورجيجو، صديق

الأستاذ كارجفال، قد يكون له عواقب وخيمة فإن السيد الرئيس وجب أن يعلم بذلك.

.. الفرادو توليدارو، يقطن هذه المدينة، يعلم: لأنه يعاني من أرق مزمن فلا ينام إلا متأخرا ليلا. ولهذا السبب فاجأ أحد أصدقاء السيد الرئيس، ميجال وجه الملاك، يدق بشدة على باب الدون خوان كناليس، أخ الجنرال الذي يحمل نفس اللقب، الذي لا يكف عن رمي الحكومة بسهامه. ينهي ذلك إلى علم السيد الرئيس في صورة أن الأمر يهمه.

.. نيكوميدس أسيتونو، موظف تجاري، يعلم أن الذي مزق اسم السيد الرئيس على خزان المياة هو المحاسب قيارم وليزار وفي حالة سكر.

كازيميرو ريبيكو لونو يعلم أنه قريباً سيبلغ عامه الثاني وهو سجين، في القسم الثاني للشرطة. لأنه فقير وليس له عائلة لتتدخل لصالحه فأنه يتوجه لسيادة الرئيس كي يأمر بإطلاق سراحه. أنه سجين بتهمة نزع إعلان احتفال اليوبيل الفضي لأم سيادة الرئيس من باب الكنسية التي كان خادمها، بنصيحة من أعداء الحكومة. ولكن هذا الأمر غير صحيح: لأنه إذا قام بذلك فهو عن غير دراية معتقدا أنه ينزع إعلانا آخر لأنه لا يعرف القراءة.

.. الدكتور لويس بارينو يطلب من السيد الرئيس السماح له بالسفر إلى الخارج للدراسة مصحوبا بزوجته.

.. أدلاييدا بينال، مقيمة في «السحر العذب»، من هذه المدينة، تعلم السيد الرئيس أن قائد الفيلق موديستو فرفان أكد لها الجنرال أوزبيو كناليس كان الجنرال الوحيد المحترم في الجيش، وأن فقدانه الحظوة ناتجة عن خوف السيد الرئيس من القادة القادرين، ولكن رغم ذلك فإن الثورة ستنتصر.

.. مونيكا باردومينو مريضة بالمستشفى العام، في السرير رقم١٤ في قاعة القديس رفائيل، تعلم أن سريرها كان مجاورا لسرير فدينا رودس، لقد سمعت هذه الأخيرة تتحدث في هذيانها عن الجنرال كناليس، وبما أن الأخرى لا تملك كامل عقلها فأنها لم تفهم ماذا كانت تقول. ولكن يجب أن يسهر أحد قرب سريرها ويدوّن كلامها. مونيكا باردومينو تعلم سيادة الرئيس بهذا لأنها معجبة مخلصة لحكومته.

.. توماس جافلي يعلم بزواجه الحديث من الآنسة آركولينا سوارز، وهذا عمل يقدّمه قربانا للسيد رئيس الجمهورية.

.. ليون تيموتي وروز، خادم لدى السيد هـ. د. إدوارد جونيور، يعلم سرا أنه يوجد في هذه المدينة رجل استخبارات أمريكي شمالي، يقوم بتحريات حول مدى صحة مشاركة الجنرال كناليس وكارجفال في جريمة الاغتيال بباب الرحمان.

٢٨ ابريل..

(٢٤)

بيت المومسات

أي ـ أو ـ د و ـ بي.

أنا لا؟ لكن ـ توت و ـ في ـ قد ـ حي.

من؟ كيف؟

لا شيء!

لا شيء!

خرقاء!

اخرسن! هل ستسكتن!

من قبل أن يطلع الفجر وأنتن تهذين وتوشوشن.. كحيوانات غير قادرة على التفكير! صاحت السن الذهبية.

تجلس على أريكة جلدية خلف منضدة البار، مرتدية صدارا أسود وتنورة بنفسجية، تجترّ ـ سيادتها ـ عشاءها.

قالت بعد قليل مخاطبة خادمة نحاسية، بضفائر لامعة مشدودة للخلف.

بانشا، اذهبي وقولي للنساء أن يحضرن، أنهن يبالغن، قريباً سيأتي الزبائن وهن مازلن متمدّدات. تعوّدن على المعاملة السيئة! الكلبات!

دخلت امرأتان تركضان، لا ترتديان سوى الجوارب.

كفّا عن الضجيج! آه! ما أروع الفتيات بلعبهن الجميل! ها! أديلاييد! ها أنت! أكلمك! إذا جاء العقيد سيكون من المستحسن أن تأخذي سيفه كرهن لما يدين لنا به. بكم يدين لنا، أنت أيها القرد الكبير؟

تسع مائة بالضبط، إضافة إلى ستة وثلاثين، أعطيتها له البارحة. أجاب البارمان.

السيف لا يساوي كل هذا المبلغ. بالطبع.. فهو ليس من الذهب. ولكنه أحسن من جلد المؤخّرة. أديلاييد! أنا أكلم الجدار، وليس أنت، أليس كذلك؟

نعم، دونا شمونا، سمعتك.. قالت الفتاة بين ضحكتين. ثم واصلت اللعب مع صديقتها التي تمسكها من كعكة شعرها.

تتربّع تشكيلة نساء «السحر العذب» على الأرائك القديمة. طويلات، قصيرات، سمينات، نحيلات، عجائز، شابات، مراهقات، مطيعات، جموحات، شقراء، صهباء، سمراء، عيون صغيرة، عيون كبيرة، عيون سود، صهباء، خلاسيات، يتشابهن، دون أي تشابه، بالرائحة، كن متشابهات، لهن رائحة الرجال، كلهن برائحة الرجال، رائحة قويّة لأصداف عتيقة. في قمصانهن القصيرة تترجرج أثداؤهن المرتخية. يظهرن بجلستهن أفخاذهن المنفرجة، وسيقانهن النحيلة، التي تشبه القضبان، وألوان أربطتهن الصارخة، وسراويلهن الحمراء بدانتيلا بيضاء، أو وردية بدانتيلا سوداء.

يجعلهن انتظار الزبائن سريعات الغضب. ينتظرن كمهاجرات بعيون متوحشة، يتدافعن أمام المرايا. لتمضية الوقت، تنام بعضهن،

والأخريات يدخّنّ، بينما تستهلك مجموعة الحلويات المنعنعة، في حين تستغرق مجموعة أخرى في عدّ أوساخ الذباب على الأشرطة البيض والزرق التي تزيّن السقف. الأعداء يتخاصمن، والصديقات يتبادلن المداعبة ببطء ودون حشمة.

كلهن تقريبا لهن ألقاب. ندعو ساطورا من كانت عيناها كبيرتين، ساطور صغير إذا كانتا صغيرتين، إذا كانت عجوزا وبدينة، ساطورا كبيرا. ذات الأنف الأخنس ندعوها رفيقة، السوداء ندعوها السمراء، السمراء ندعوها خلاسية، ذات العينين المائلتين ندعوها الصينية. ذات الشعر الأشقر ندعوها ذرة. التي تتمتم ندعوها تمتمة.

على جانب هذه الألقاب العادية توجد البريئة، الخنزيرة، الجرو السمين، المعسّلة، القردة، دودة الأرض، الحمامة، البدون رحم، الفخمة.

يأتي رجال من الساعات الأولى لليل، ليمضوا الوقت مع نساء عاطلات، في أحاديث الغرام، والتقبيل والاستثارة. دائماً أشخاص ثقلاء وأحاديثهم ماجنة. تتمنى الدونا شونا أن تصفعهم على أقفيتهم، لأن عيبهم الأكبر أنهم مفلسون، لكنها تبقيهم في بيتها دون أن تكسر وجوههم لأجل خاطر «*ملكاتها*». «الملكات» المسكينات، يلتصقن بالرجال، حُماة فيستغلونهن، عشاقا فيعضّونهن ـ من الجوع للحنان، لشخص يهتم بهنّ.

يأتي، أولى ساعات الليل أيضاً الأولاد الشبان، يدخلون مرتعشين، خائفين، غير قادرين على الكلام، أشبه ما يكونون بفراشات مبهورة، لا يحسّون بالراحة إلا عندما يعودون إلى الشارع من جديد. فريسة جيّدة. مطيعون وغير متطلبين. خمس عشرة سنة. تصبحين على خير. لا تنسني. يخرجون من الماخور وفي أفواههم

طعم الأفعى، التي كانت قبل الدخول، طعم الخطيئة والانتصار، وذلك الخدر الذي نحسّه من كثرة الضحك. آه! كم كنا مستمتعين خارج هذا البيت القذر! يعضّون الهواء كما العشب الطريّ ويتأمّلون النجوم كأنها إشعاع لعضلاتهم.

ثم، زيارة الناس المهمّين: رجال أعمال محترمون، متحمسون ومتكرشون، كرش عملاقة تحيط بقفصه الصدري. عامل المغازة يقبّل كمن يقيس ذراعًا من القماش، بعكس الطبيب الذي يفحص دائماً الصحفي، زبون يرهن في نهاية المطاف حتى قبعته، المحامي غريب الأطوار في انتمائه الفجّ والسوقي للأثاث. الموظف المجنون الذي يحس بالحرمان حتى وهو برفقة امرأة. البرجوازي المشحّم، الحرفي برائحة الصوف الحيواني. الثري الذي يتلمّس في كل لحظة، خلسة، محفظته، وساعته وخاتمه. الصيدلي أكثر صمتًا وغموضًا من الحلاق، أقلّ تهذيبا من طبيب الأسنان.

عند منتصف الليل يلتهب الصالون عشقا. رجال ونساء يحترقون من أفواههم القبل، فرقعات شهوانية من اللحم والرضاب، تتناوب مع العضّ، والاعترافات مع اللمسات، البسمات مع القهقهات، و«طاق» سدادات الشمبانيا و«طاق» الرصاص الذي يطلقه بعض المتبجحين.

هذا نصف الحياة! صاح عجوز متكئ على طاولة، وعيناه تتراقصان، ورجلاه تتحركان، وعلى جبينه شرايين نافرة. وبحماس متزايد سأل نديمه: هل يمكنني أن أذهب مع تلك المرأة هناك؟

نعم، أيها العزيز، أنهن هنا من أجل هذا..

وتلك التي بجانب الأخرى.. تلك تعجبني أكثر!

مع تلك أيضا.

تقطع الصالون سمراء حافية القدمين في دلال.

وتلك التي تمشي هناك؟

أيهن؟ شديدة السمرة؟

ما اسمها؟

أديلاييد. يدعونها الخنزيرة. لكن لا تحتك بها، لأنها تصاحب العقيد فارفان، وأعتقد أنها عشيقته.

خنزيرة. انظر كيف تداعبه! لاحظ العجوز بصوت خافت.

تُسكر الفتاة فارفان بألعاب الأفعى التي تتقنها، تقرّب منه عينيها المسكرتين، وتمتصّه بشفتيها الممتلئتين ـ كانت تقبّل بشفتيها كأنما تلصق طابعا ـ مع ثقل نهديها الدافئين وبطنها المكوّرة.

انزع هذه القذارة التي تعلّقها! همست الخنزيرة في فم العقيد. دون أن تنتظر إجابة ـ لا تؤجل عمل اليوم.. ـ نزعت السيف من المحزم، وأعطته للبارمان.

قطار من الصرخات مرّ سريعا، عابرا كل أنفاق الآذان وواصل سيره.

يرقص الأزواج بوزن ودون وزن، بحركات حيوانات برأسين. رجل ملطخ بالأصباغ كامرأة يعزف على البيانو. ينقص من فمه ومن البيان وبعض العاج. «أنا مغناج، مغناج وحساس». يجيب من يسأله عن سبب زينته، ثم يضيف ليكمل الصورة: «أصدقائي يدعوني بيبي، والشبان فيوليت. أرتدي قميصا غير محتشم لأظهر نهديّ الفتيين.. أضع مونوكل للتميّز، وسترة طويلة للترفيه. طحين الأرز (آه! هذه

الكلمات التي أقولها!) وأحمر الشفاه أغطي بهما الثقوب التي تركها الجدري على وجهي، قصاصات الورق الملون أرميها للهو.. آه! قولوا ما تريدون فلي عاداتي..»

قطار من الصرخات مرّ سريعا، تحت عجلاته الساحقة، بين دواليبه المسنّنة، تتلوى امرأة، ثملة، رخوة، كابية، بلون النخالة، تضغط بيديها على خصرها، ملوثة خديها وفمها بدموعها.

«آي! مبيضي.. أوه! مبييييضي! آي! مبيضـــــي! آي! مبيـــضي! آآآي!»

المخمورون فقط لم يلتحقوا بالراكضين نحو المتحلقين ليعرفوا ما يحدث، يسأل الرجال المتزوجون أثناء الفوضى إن كانت مجروحة ليخرجوا قبل مجيء البوليس، والآخرون أقل جديّة يتنقلون جيئة وذهابا، من أجل متعة دفع أصدقائهم.

تكبر المجموعة كل لحظة، حول المرأة التي تتلوى، وعيناها مبيضّتان، ولسانها متدلي. في قمّة الأزمة سقط طقم أسنانها. فعمّت القهقهات المجنونة الجمهور. ضحكة وحيدة متشابهة حيّت تدحرج طقم الأسنان على الأسمنت.

وضعت الدونا شونا حدّا للفوضى. كانت في الداخل، ثم أسرعت كدجاجة فزعة نحو فراخها، شدّت المسكينة من ذراعها وجرجرتها نحو المطبخ كممسحة، أغلقت عليها باب كوخ الفحم بمساعدة المصلوبة بعد أن حقنتها هذه الأخيرة بواسطة الملعقة الكبيرة.

انتهز العجوز عاشق الخنزيرة الفوضى ليختطفها من العقيد الذي لم يعد يرى شيئاً من شدة السكر.

يا لها من قذرة هذه الفتاة! أليس كذلك أيها العقيد؟ صاحت السن الذهبية وهي تعود للبار، كي تتخم وتبقى متمدّدة طوال النهار، مبيضها لا يؤلمها، مثل جندي يأتي ساعة المعركة ويقول أنه يحسّ ألما في..

قطع سيل من قهقهات السكارى كلامها. كانوا يضحكون كأنهم يبصقون نثار قصب السكر. في هذه الأثناء، التفتت نحو البارمان، وقالت:

هذه البغلة المهرّجة، كنت سأعوّضها بالفتاة الجميلة الفارعة التي جلبتها أمس من المنزل الجديد! لا أصدق أنها مرضت!..

كيف يمكنها أن تفعل ذلك!؟

بالنسبة لي، كلفت الوكيل أن يقابل رئيس المحكمة، وأن يتفق معه حول كيفية إرجاع نقودي.. لا ينقصني إلاّ أن يبقي لديه العشرة آلاف بيزوس، ابن القحبة هذا.. سأذيقه الأمرّين..

أنت؟ لا أتصور ذلك!.. لأن ذلك *الأستاذ*، يبدو أنه سيء جدا!..

مثل كل المتزمتين!

الوكيل.. و*الأستاذ* أيضا.. يا لها من تشكيلة!

أعرف كل شيء، وأعلمك، أني لن أسكت مرتين!.. وليس أصفارا على اليمين، بل الرؤوس الكبيرة ذاتها..

تركت جملتها معلقة، وانحنت على النافذة لترى من الطارق.

يسوع المنقذ، يوسف، والعذراء الرحيمة، وكل القديسين! عندما نتحدث عن الذئب! قالت بصوت مرتفع للرجل الذي ينتظر عند الباب، وشاله مرفوع حتى العينين، سابحا في الضوء الأرجواني

الذي يرسله المصباح. ودون أن ترد تحيته جرت لتأمر الحارسة أن تفتح له الباب.

أسرعي بانشا، افتحي الباب، أسرعي! أنه الدون ميجاليتو! عرفته الدونا شونا من إحساسها ومن عيون إبليس التي ينظر بها.

أنها معجزة!

أجال وجه الملاك بصره في الصالون وهو يلقي التحية. اطمأن عندما رأى كدسا ملقى على الأرض تأكد أنه العقيد فارفان، خيط من اللعاب يسيل من شفته المتدلية.

معجزه كبيرة، لأن سيادتك، يمكنني القول أنك، لا تخصص الوقت لزيارة الفقراء!

كيف تقولين هذا؟ دونا شون!

لقد جئت في الوقت المناسب، لقد كنت أصلي لكل القديسين، من أجل مشكلة تقلقني، وها أن القديسين أرسلوك!

أنت تعلمين أني دائماً تحت أمرك..

شكرا جزيلا. لديّ مشكلة سأرويها لك، لكن قبل كل شيء، ماذا تريد أن تشرب!

لا تقلقي بش..

أي قلق! قطرة صغيرة، أي شيء، الشراب الذي يسعدك.. لن ترفض دعوتي، بعض العرق.. ولكن سنسقيك هناك، في بيتي. تعال من هنا.

شقّة الدونا شونا منفصلة تماما عن باقي المنزل، وهي عالم قائم بذاته. تتكدس على الطاولات والصوان والإفريز الرخامي صور

مقدسة ومنحوتات، وصناديق للذخائر الدينية. تتصدر العائلة المقدسة المكان بحجمها والعمل المتقن. لا ينقص المسيح الطفل الكبير بحجم زهرة الزنبق إلا النطق. على جانبيه يلمع يوسف القديس والعذراء، بلباس مزين بالنجوم. العذراء تكسوها الحليّ والمجوهرات، ويوسف القديس بتاج ترصّعه درّتان تساويان ثروة. تحت قبة يحتضر مسيح أسمر تكسوه الدماء، وفي خزانة كبيرة مغطاة بالأصداف تصعد نحو السماء عذراء مقدسة، في تقليد منحوت للوحة «موريللو»، رغم أن أهم شيء فيها هي الأفعى الزمردية التي تلتفّ بساقيها، بجوار الصور المقدسة نرى صورًا ورسومًا للدونا شونا (تصغير مبتكر، لأنه اسمها الحقيقي) في سن العشرين، عندما كان عند قدميها رئيس جمهورية يريد أخذها إلى «باريس فرنسا»، قاضيان من المحكمة العليا، وثلاث جزارين يتقاتلون من أجلها بالسكاكين، في معرض. أبعدت الصورة إلى هذا الركن كي لا يرى الزوار صورة المنتصر، الذي بقي حيا من تلك المعركة، غزير الشعر، أصبح بمرور الوقت زوجها.

اجلس على الأريكة، دون ميجاليتو، ستكون أكثر راحة.

تعيشين في رغد! دونا شونا..

أحاول أن أبتعد عن المشاكل..

كأني في الكنيسة!

لا تكن ماسونيًا، لا تسخر من قديسيّ!

فيم يمكنني أن أخدمك؟

اشرب عرقك أولا..

في صحّة إذن!

في صحّتك، دون ميجاليتو، واعذرني لأني لا أشاركك، فإني أشكو من التهاب. ضع الكأس.. الصغير، سنضعه على هذه الطاولة، اسمح لي..

شكرا..

إذن! كما كنت أقول، دون ميجاليتو، أنا قلقة جداً، وارجو منك أن تسدي لي نصيحة، من تلك التي لا يمكن إلا لشخص مثلك أن يقدمها، بسبب إحدى المقيمات عندي التي لا تصلح لشيء فعليّ، بحثت عن أخرى تعوّضها، وعلمت من إحدى صديقاتي أن امرأة جميلة مسجونة في البيت الجديد بأمر من رئيس المحكمة، وبما أني أعرف من أين تؤكل الكتف، ذهبت مباشرة إلى المحامي، دون خوان فيداليتاس، الذي جلب لي في مواقف أخرى نساء، حتى يكتب رسالة باسمي إلى القاضي، ويعرض عليه عشرة آلاف بيزوس من أجل تلك المرأة.

عشرة آلاف بيزوس؟

مثلما قلت لك، لم يتردّد الآخر، وأجاب أنه موافق، وعندما تسلّم الأموال، التي عددتها بنفسي على مكتبه، ورقات ذات خمسمائة، أعطاني أمرا مكتوبا للبيت الجديد كي يسلموني المرأة التي أريدها. علمت أنها أوقفت من أجل أسباب سياسية. يبد وأنهم «وقّفوها» في بيت الجنرال كناليس..

ماذا؟

عندما سمع وجه الملاك، الذي كان يتابع دون اهتمام، منتبها إلى ما يجري وراء الباب حتى لا يذهب العقيد فارفان دون أن يراه لأنه يبحث عنه منذ ساعات، عندما سمع اسم الجنرال كناليس في

هذا المسألة، أحس أن فخّا من الحديد منصوب خلفه. مؤكد أن هذه المسكينة هي الخادمة شابيلا التي تتكلم عنها كاميليا في هذيانها.

عفوا لمقاطعتك.. أين تلك المرأة؟

ستعرف، لكن دعني أواصل. ذهبت بنفسي مصحوبة بامرأتين، وأمر القاضي بيدي، لأجلب المرأة الجديدة من البيت الجديد. لا أريد أن يعطوني قطّا عوض أرنب! لكي نبدو أغنياء ذهبنا في عربة. وصلنا. قرؤوا الأمر بعناية، أخرجوا المرأة سلموها لي، وأخيرا جلبتها للبيت. الكل ينتظرها، وحازت على إعجاب الجميع.. كانت.. دون ميجاليتو.. قلت لك ذلك!

وأين وضعتها؟ كان وجه الملاك مستعدا ليأخذ المرأة في تلك اللحظة. أحسّ وهو يستمع إلى هذه الساحرة العجوز أن الدقائق تمرّ كالسنوات.

هنا.. الكل يحب الطعام العذب.. الرجال كلهم متشابهون، لكن دعني أواصل، منذ أن خرجنا من البيت الجديد لاحظت أن المرأة تمتنع عن فتح عينيها أو فمها، نخاطبها فكأننا نخاطب الجدار المقابل. ظننت أنها تتصنّع، لاحظت أيضاً أنها تمسك صرّة في حجم طفل.

استطالت، في ذهن المحظيّ، صورة كاميليا حتى انقسمت في الوسط، مثل ثمانية، بحركة سريعة لانفجار فقاعة الصابون.

طفل؟

بالفعل، اكتشفت طباختي، مانويلا المصلوبة، أن هذه المسكينة تهدهد طفلا ميّتا، وقد بدأ ينتن. نادتني، فأسرعت إلى المطبخ، وحاولنا أخذه منها بالقوة، ولكن بالكاد حاولنا فتح يديها ـ كادت

مانويلا أن تكسرها ـ وأخذنا الطفل حتى فتحت عينيها تماما، كما سيفتح الأموات أعينهم يوم البعث، وأطلقت صرخة تسمع حتى السوق. ثمّ سقطت مغشيا عليها.

ماتت؟

اعتقدنا ذلك في البداية. جاؤوا وأخذناها إلى مستشفى القديس جون الرباني. لم أرد أن أنظر، فهذا يؤثر على نفسيتي، قالوا أن الدموع تسحّ من عينيها كالماء الذي لا يصلح لشيء. صمتت الدونا شونا قليلا ثم واصلت: الفتيات اللاتي ذهبن للفحص هذا الصباح سألن عنها، يبد وأن حالتها خطيرة. هذا الذي يقلقني. أنت تفهمني، لا يمكن أن أقبل أن يحتفظ القاضي بالعشرة آلاف بيزوس، وأبحث عن وسيلة كي يردها لي، لماذا يبقي لديه أموالي؟ لأي سبب؟ أفضل ألف مرّة أن أتصدّق بها للمستشفى أو للفقراء!

فليطلبها منه محاميك، وبالنسبة للمرأة المسكينة..

لكن محامي الأستاذ فيداليتاس، ذهب مرتين هذا الصباح ـ عفوا لأني قاطعتك ـ! في كل مرّة يقول له أنه سيعطيني شاهدة قبر. أرأيت وقاحة مثل هذه. هذا الكائن العفن، إذا اشترى أحدهم بقرة وماتت، فإن المشتري هو الذي يخدع، لا البائع.. هذا بالنسبة للحيوانات، فما بالك بالناس. هذا ما يقول. آه! يريد أن يخضعني لنزواته!..

ظل وجه الملاك صامتا. من تكون هذه المرأة المباعة؟ من يكون هذا الطفل الميّت؟

أشارت دونا شونا إلى سنها الذهبية، في حركة تهديد.

آه! لكني سألقنه درسا، كما لم تلقّنه حتى أمّه.. إذا سجنت فسيكون من أجل أمر مهمّ. يعلم الله أننا نتعب كثيراً لكسب تلك

الأموال، فلا يمكن أن نتركها تسرق منّا بسهولة! العجوز الكاذب، رأس الهندي، المنافق! لقد أمرت هذا الصباح أن يلقوا تراب ميّت على باب منزله! سيأتي إليّ إذا كان شجاعا.

والطفل؟ هل دفن؟

لقد سهرنا من أجله في البيت، الفتيات رقيقات الإحساس.. وزعنا حلويات..

احتفال..

إذا أردت القول!

والشرطة، ماذا صنعت؟

دفعنا لكي نحصل على رخصة الدفن، ومن الغد ذهبنا إلى الجزيرة كي ندفن الطفل في تابوت مغلف بالحرير الأبيض.

ولم تخشي أن تأتي العائلة تطالبك بالجثة، أو على الأقل رأي..

لا ينقص إلا هذا! ومن سيطلبه؟ أبوه مسجون في السجن المركزي لأسباب سياسية، اسمه رودس، وأمه كما تعلم، في المستشفى.

ابتسم وجه الملاك داخلياً، لحسن الحظ ليسوا أقارب كاميليا..

انصحني، دون ميجاليتو، أنت الذي تعرف كثيراً من الرؤوس الكبيرة، ماذا عليّ أن أفعل كي يعيد لي ذلك العجوز المخادع نقودي، فعشرة آلاف بيزوس، ليست شيئاً تافها..

حسب رأيي، يجب أن تقابلي السيد الرئيس، وتشكين له، اطلبي مقابلته، وثقي به، سيحلّ المشكلة. يمكنه ذلك.

فكرت في ذلك، وهذا ما سأفعله، غدا سأرسل له برقية مستعجلة

وأطلب مقابلته. من حسن الحظ أننا نعرف بعضنا منذ زمن: عندما لم يكن غير وزير، كان مغرما بي. منذ زمن. كنت شابة وجميلة، كأني منحوتة فنية، مثلما ترى في هذه الصورة. أذكر أنّ كنا نسكن بجوار «السماء الصغيرة» مع أمي ـ فليرحمها الله! ـ ومن سوء الحظ نقرها ببغاء في عينها فأصبحت بعين واحدة. لا داعي أن أقول لك أني شويت الببغاء ـ كان يمكنني أن أشوي اثنين ـ وأعطيته لكلب أكله بابتهاج، فأصيب بالكلب. الأشياء السعيدة التي أتذكرها عندما، أن الجنازات كلها كانت تمرّ من أمام منزلنا. ويمرّ الأموات، ويمرّون، ويمرون!.. لقد انفصلت عن السيد الرئيس بسبب ذلك، كان يمقت الجنازات، هل هذه غلطتي؟ كان يصدّق أية حكاية، وله عقل طفل. أقل شيء ضدّه، ويصدّق ما يقال له، وكذلك دهن المراهم على جلده. في البدء كنت معجبة كثيراً به، فأمسح له المراهم بقبلات طويلة.. ثم تعبت وتركته. كي أمسكه، عليّ أن ألحس أذنه، هذا يعطيه الإحساس أنه ميّت وأن الديدان تأكله في قبره. كأني أراه، هنا حيث تجلس: وشاحه الأبيض حول رقبته بعقدة صغيرة، قبعته المسطحة، حذاؤه بجلدته الوردية، وكسوته الزرقاء..

وبعد ذلك، أرأيت كيف هي الحياة؟ عندما أصبح رئيسا، مؤكد أنه شهد على زواجك.

أبدا.. زوجي المرحوم لا يحب الاحتفالات. الكلاب فقط تحتاج شهودا وفضوليين يتفرّجون عليهم بينما يتزوجون، كان يقول. ثم بعد ذلك يذهبون بمجموعة أخرى من الكلاب خلفهم، يسيل لعابها على شفاهها المتدلية. لكننا ذهبنا عند المصوّر ـ نعم، ذهبنا ـ التقط لنا صورا أمام ستائر بين الحمائم الطائرة. على الأرض زربية من أجمل ما يكون، من جلد نمر. صوّرني بشكل جانبي وزوجي ملتصق بي. جميل، ذلك الرجل الذي صوّرنا، عجوز بشوارب، أحدب قليلا،

وبالنسبة للغمز، ليست آلته فقط التي تفعل ذلك، حتى هو يقوم بذلك مع «ضحكة صغيرة، تعانقا!» كنت مكتنزة وجميلة، وكان يقولها بصوت مرتفع. يا لها من أفكار عجائز، أن نذكر الماضي..

(٢٥)

مناوبة الموت

يركض الكاهن وثوبه يتمسح بالأرض «آخرون، يركضون لأقل من هذا، هل هناك في الحياة شيء يساوي أكثر من روح؟ لأقل من ذلك ينهضون من الطاولات بأصوات الأحشاء.. أحياء! ثلاثة أحياء، ثلاثة يكوّنون إلهاً واحداً.. حقيقة الحقائق.. صوت الأحشاء، هناك، وليس هنا.. معي أنا، أنا ببطني، بطن، بطن، المسيح، ثمرة الأحشاء.. هناك الطاولة ممدودة، الغطاء أبيض، الأواني من الخزف الصيني، الخادمة نظيفة..».

دخل الكاهن فتبعته الجارات، راغبات في مشاهدة رعدة الاحتضار. انسحب وجه الملاك من قرب سرير كاميليا، بخطوات ترنّ كجذور تكسر. قرّبت صاحبة الحانة كرسيا للكاهن، ثم خرجا.

.. اعترف لله بكل شيء.. قالا وهما يخرجان.

باسم الأب والابن، و.. يا بنيّتي، كم مضى عليك دون اعتراف؟

شهران..

هل كفّرت عن ذنوبك؟

نعم، أبتي.

قولي خطاياك..

أعترف، يا أبتي، أني كذبت..

من أجل أمور هامة؟

لا، لقد عصيت أبي، و..

(تيك ـ تاك، تيك ـ تاك، تيك ـ تاك)

أبتي أعترف..

(تيك ـ تاك)

يتكلم المريض والمعرّف كما في سراديب الأموات. الشيطان، والملاك الحارس، والموت يحضرون الاعتراف. الموت يفرغ في عيون كاميليا البلورية عيونها الفارغة، الشيطان يبصق عناكب، جالسا على رأس السرير، الملاك الحارس يبكي في ركن بدموع سخيّة.

أبتي، أعترف أني لم أصلّ عند النوم ولا عندما أصحو من النوم.. أبتي، أعترف أني..

(تيك ـ تاك، تيك ـ تاك)

أني تخاصمت مع صديقاتي!

من أجل مسائل تمسّ بالشرف؟

لا..

يا بنيّتي، لقد أسأت إلى الله كثيرا.

أبتي، أعترف أني ركبت الحصان كالرجل..

كان هناك أشخاص آخرون، وتحولت المسألة إلى فضيحة؟

لا، كان هناك فقط بعض الهنود.

ولهذا الأمر أحسست أنك مساوية للرجل. إذن هذه خطيئة كبيرة.

لأن الله ربنا خلق المرأة امرأة، يجب أن تبقى هكذا ولا تحاول تقليد الرجل، مثل الشيطان الذي أضاع نفسه لأنه أراد أن يتساوى مع الله.

في نصف الغرفة التي تحتلها الحانة، أمام البار، مذبح القوارير المتنوّعة، ينتظر وجه الملاك والأفعى والجارات دون أن يتبادلوا كلمة واحدة، متبادلين بالنظرات المخاوف والآمال، متنفسين ببطء، أركسترا من الأنفاس، تضغط عليها فكرة الموت. يظهر الباب نصف المفتوح، في الشوارع المضاءة كنيسة الرحمة، جزء من الرواق والمنازل، وبعض المارة الذين يعبرون من هذه الناحية. يشتدّ غضب وجه الملاك حين يرى هؤلاء الناس رائحين غادين، غير مهتمين بأن كاميليا تموت. حبّة رمل كبيرة في غربال الشمس الرقيق. ظلال تمتلك موهبة الحس المشترك. مصنع متجوّل للبراز..

في الصمت، يسحب صوت المعرّف سلاسل من كلمات. المريضة تسعل. الهواء يحطّم الطبلات الصغيرة لرئتيها.

أبتي، أعترف بكل الخطايا البسيطة المميتة، التي ارتكبتها ولا أتذكرها.

أخرجت كلمات الغفران اللاتينية، والهروب السريع للشيطان، والخطوات النورانية للملاك الذي اقترب من جديد من كاميليا، بأجنحته البيض، الدافئة، أخرجت المحظيّ من غضبه ضدّ المارّة، من كرهه الطفولي، الملون بالحنان، وجعلته يدرك ـ الرحمة تأتي من طرق مجهولة ـ قرار إنقاذ رجل مهدّد بالموت، بالمقابل، ربما يمنحه الله حياة كاميليا، الأمر الذي يعتبر علميا مستحيلا.

انصرف الكاهن دون ضجيج، توقّف على العتبة لإشعال سيجارة من التبغ القويّ، وكي يرفع أسفل ثوبه، لأن القاعدة تأمر أن يقع

إخفاءه تحت الجبّة في الطريق. يبدو كأنه من الرماد الرقيق. الأخبار تدور حول محتضرة دعته للاعتراف. خلفه خرجت الجارات المزيّنات، ووجه الملاك، الذي خرج ينفّذ مشروعه.

زقاق يسوع، الحصان الأشهب، ثكنة الفرسان.. هناك طلب من ضابط الحراسة المناوب مقابلة العقيد فارفان. طلب منه أن ينتظر قليلا، وخرج العريف ينادي على العقيد بصوت مرتفع: عقيد فارفان!.. عقيد فارفان!..

غاب الصوت في الساحة الكبيرة دون إجابة. زلزال من الأصوات أجابته تحت إفريز المنازل البعيدة: ع ـ قيـد فان ـ فان..! ع.. قيـد.. فان.. فان!..

وقف المحظيّ على بعد خطوات من الباب، غريبا عمّا حوله. كلاب وغربان تتخاصم حول جثة قطة وسط الطريق، أمام العقيد الذي يتفرّج من الشباك المزيّن بالقضبان، مستمتعا بهذه الحرب، وهو يلاعب أطراف شاربه المعقوف. امرأتان تشربان مرطّبا في دكان مليء بالذباب. يخرج من المنزل المجاور خمسة أطفال بلباس بحارة، يتبعهم رجل شاحب كلفتة، وامرأة حبلى ـ الأب والأم ـ. مرّ جزار بين الأطفال وأشعل سيجارا، يرتدي ملابس تلطخها الدماء، وأكمام قميصه مشمّرة، وعلى قلبه ساطوره المسنون، بينما الجنود يدخلون ويخرجون، على الأرض المبلّطة، آثار أفعوانية للأقدام الحافية المبللة التي مرّت. مفاتيح الثكنة ترنّ على بندقية الحارس الواقف بجانب الضابط المناوب الذي يحتل كرسيّا محاطا بدائرة من البصاق.

اقتربت امرأة من الضابط بخطوات غزالة، ببشرة نحاسية،

أحرقتها الشمس، وملأتها السنون أخاديد، ورفعت شالها البسيط، حتى تتكلم ورأسها مغطى، كدليل على الاحترام، ورجته:

عفوا، سيدي، بحق حياتك، أرجو منك السماح لي بمقابلة ابني. ستجازيك العذراء.

قذف الضابط قبل أن يجيب بصاقا ملوثا بالخمر والتبغ والأسنان النخرة.

ما اسم ابنك، سيدتي؟

إسماعيل، سيدي..

إسماعيل ماذا؟

إسماعيل ابني، سيدي.

ولكن ما هو لقبه؟

أنه ابني، سيدي..

اذهبي، من المستحسن أن تعودي في يوم آخر، نحن مشغولون اليوم.

ابتعدت المرأة دون أن تنزل شالها، ببطء وهي تحصي خطواتها كأنها تحصي حظها العاثر. وقفت لبرهة على حافة الرصيف، ثم اقتربت من جديد من الضابط الذي يزال جالسا.

عفوا سيدي، لكنني لست من هذه المدينة، لقد جئت من بعيد، من أكثر من عشرين ميلا، إذا لم أره اليوم، الله وحده يعلم، متى يمكنني الرجوع، اعمل معروفا وناده..

سبق وقلت لك أنّنا مشغولون، انصرفي، ولا تكوني لحوحة.

تحرّك وجه الملاك الذي كان يتفرّج على المشهد، بدافع أن يقوم بعمل طيّب، حتى يشفي الله كاميليا، وقال للضابط بصوت منخفض:

ناد، على الولد، أيها المقدّم، وخذ هذا من أجل السجائر.

أخذ الضابط النقود دون النظر إلى الغريب، وأمر بالمناداة على إسماعيل ابني. تتأمل المرأة المحسن، كأنه ملاك.

لم يكن العقيد فارفان في الثكنة. ظهر السكرتير من الشرفة، والريشة خلف أذنه، وأخبر المحظيّ أنّ في مثل هذه الساعة وفي الليل لا يمكن أن يجده إلا في «السحر العذب»، لأن ابن مارس النبيل يقضّي وقته بين واجباته المهنية والحبّ. مع ذلك، من المستحسن المرور إلى منزله. استأجر وجه الملاك عربة بجياد. يستأجر فارفان غرفة عند *«الشيطان الأخضر»*. من فتحة الباب المصنوع من خشب الأرز، تباعدت ألواحه بحكم الرطوبة، نرى الظلام المسيطر في الداخل. طرق وجه الملاك مرتين وثلاث مرات. لا أحد. غادر بسرعة. ولكن قبل الذهاب إلى «السحر العذب» سيمرّ ليستعلم على صحّة كاميليا. فاجأه صوت العربة عندما تركت الطريق الترابي للمعبّد، أصوات حوافر وإطار العجلات، أصوات إطار العجلات والحوافر.

عندما أنهت السنّ الذهبية رواية مغامراتها العاطفية مع السيد الرئيس، دخل المحظيّ إلى الصالون، كي لا يفقد العقيد فارفان، وهو يريد أن يعلم أكثر عن المرأة التي أوقفت عند الجنرال كناليس وباعها ذلك القاضي النذل، بعشرة آلاف بيزوس.

كان الحفل في أوجه. الأزواج يترافصون على نغمة فالس يؤديها فارفان الثمل بصوته المبحوح:

لماذا تحبّني المومسات؟

لأني أغني لهن

زهرة المقهى..

فجأة، انتصب واقفا، وعندما اكتشف غياب الخنزيرة، توقّف عن الغناء ليطلق صيحات، يقطعها السعال.

الخنزيرة ليس هنا، أليس كذلك أيها البليد؟.. أنها مشغولة، أليس كذلك أيها البليد؟.. حسنا! سأغادر.. أعتقد ذلك.. سأغادر.. أعتقد.. ذلك.. أعتقد أني.. لن أغادر.. أعتقد أني سأغادر..

وقف بصعوبة، معتمدا على الطاولة التي كان ملتصقا بها. ثم بدأ يترنّح بين الكراسي والجدار إلى أن وصل إلى الباب، الذي أسرعت الخادمة لفتحه.

أعتقد أني سأغادر! والقحبة تعود، ليست السيدة شون، لكني أنا، سأغادرُو! هيه، هيه، هوب.. لم يبق لنا نحن العسكريين القدامى إلاّ أن نشرب حتى الموت، ثم، بعد ذلك، فليقطّرونا عوض أن يحرقونا.. وليحيا المرقاز (النقانق) والخصام! ياهوه!

لحق به وجه الملاك سريعا. كان يمشي على حافة الرصيف مثل بهلوان: مرّة الساق اليمنى في الهواء ومرّة الساق اليسرى، الساق اليمنى، الساق اليسرى، ثم الاثنتان.. يتماسك على وشك السقوط ويقول: «جيّد جدّا، تقول البغلة للكابح!»

تضيء الشبابيك المفتوحة لماخور آخر الشارع. يعزف رجل كثيف الشعر على البيانو «ضوء القمر» لبيتهوفن. فقط الكراسي المرصوفة حول البيان والكبير مثل حوت يونس، تسمعه في الصالون الفارغ. توقّف وجه الملاك، وقد جرحته الموسيقى. ألصق العقيد، المسكين كدمية بلا حراك، على الحائط واقترب كي يدخل شظايا قلبه في اللحن: بعث من بين الأموات ميّتا ـ بعيون ساخنة ـ معلّقا بين السماء والأرض، بينما تنطفئ أضواء الشارع، ومن السطوح يسيل الندى قطرة قطرة، مسامير لصلب السكارى، وإغلاق التوابيت. كل

طرقة من البيانو، صندوق المغناطيس، تجمّع الحبات الصغيرة جداً للصوت، ثم يبعثرها، بعد أن تجمّعها بين أصابع النغمات السريعة، التي تقسّم سلاميّاتها لتطرق على باب الحب المغلق إلى الأبد، دائماً نفس الأصابع، دائماً نفس اليد. ينحدر القمر في السماء المبلّطة نحو سهول أخرى نائمة، أنها تهرب وخلفها الغابات تخيف العصافير والأرواح، التي يبدو لها العالم عظيماً وغير طبيعي عندما يولد الحبّ، ثم صغيراً وفارغا عندما ينطفئ.

أفاق فارفان على زنك مقهى صغير، بين يدي غريب يهزّه كما نهزّ شجرة نريد أن نسقط ثمارها.

ألم تعرفني، سيدي العقيد؟

نعم، لا.. الآن.. في هذه اللحظات..

تذكّر..

آه! أو أو أو، تثاءب فارفان، نازلا من الزنك حيث كان ممددا، مرهقا كدابّة.

ميجال وجه الملاك في خدمتك.

وقف العقيد في استعداد عسكري.

أعذرني! لم أعرفك، هذا صحيح، أنت الذي نراك دائماً مع السيد الرئيس.

حسنا جدا! لا تتعجّب، سيدي العقيد، لأني هززتك بعنف..

لا تقلق لذلك.

ولكن يجب أن تعود إلى الثكنة، وأنا أريد أن أكلّمك، بمفردنا، وهنا صاحبة.. فلنقل المقهى ليست موجودة. بالأمس بحثت عنك

كإبرة طيلة المساء، في المنزل في الثكنة. عدني، أن الكلام الذي سأقوله لك لن تعيده لأي شخص.

كلمة رجل.

صافح المحظيّ يد العقيد بسرور وقال له بهمس، وعيناه معلقتان بالباب:

أنا في موقع يسمح لي بأن أعلم أن هناك أمر لتصفيتك. لقد أعطي تعليمات للمستشفى العسكري حتى يعطوك مهدّئا نهائيا، عند أوّل سكر يجبرك على ملازمة الفراش. المومس التي تعاشرها في «السحر العذب» أوصلت للسيد الرئيس ادعاءاتك الثوريّة.

رفع فارفان، الذي سمّره كلام المحظيّ، قبضته:

آه! القحبة! ثم بعد حركة الضرب التي قام بها أنزل يده، ونكّس رأسه، مسحوقا. يا إلهي! ماذا سأفعل؟

أولا، عليك ألا تسكر، هكذا تتفادى الموت السريع، ولا..

نعم، هذا ما كنت أفكر فيه، لكنني لن أستطيع ذلك. سيكون الأمر صعبا جداً. ماذا أردت أن تقول؟

كنت سأوصيك، أيضاً، ألا تتناول غذاءك في الثكنة.

لا أدري كيف أشكرك..

بالصمت..

بالطبع، لكن لا يكفي. في النهاية! ستأتي المناسبة، ويمكنك الاعتماد على الرجل الذي يدين لك بحياته.

بالتأكيد. أعطيك نصيحة صديق: ابحث عن طريقة تكسب بها إعجاب السيد الرئيس.

نعم، أليس كذلك؟

لن يكلّفك شيئا.

وأضاف الاثنان في أفكارهما: «ارتكب جريمة»، مثلا، الطريقة المثلى لكسب ثقة الرئيس. أو «الإهانة العلنية لأناس دون حماية». وكذلك

«تأكيد علوية القوة على الرأي في الدولة». وأيضا..

أن تسكب دم قريبك: هذا هو الكمال. الجريمة تمثل الالتحام الكامل للمواطن بالسيد الرئيس. شهران في السجن لدفع الشبهات، ثم مباشرة نحو مركز عمومي مهمّ، من تلك التي لا تمنح إلا للموظفين الذين لهم محاكمة جارية، حتى يتمكن من إعادته للسجن إذا لم يحسن التصرف.

لن يكلفك شيئا.

أنت طيّب جدا..

لا، أيها العقيد لا أطلب منك اعترافا بالجميل، قراري بإنقاذك أهديه لله من أجل صحّة مريضة، في حالة سيئة جداً سلامة حياتك مقابل إنقاذ حياتها.

زوجتك، ربما..

حلّقت الكلمة الأكثر رقّة من نشيد *الأناشيد*، لحظة بين الأشجار التي تنتج الملائكة وأزهار البرتقال.

تلمّس وجه الملاك ـ بعد ذهاب العقيد ـ جسمه ليتأكد أنه نفس الرجل الذي أرسل رجالا آخرين إلى الموت، أنه نفسه الذي يدفع الآن، أمام اللازورد اللانهائي، رجلاً نحو الحياة.

(٢٦)

أعاصير

أغلق الباب ـ يبتعد العقيد المنتفخ مثل بالون بقماش كاكي ـ ثم يعاد على أطراف أصابعه إلى الدكان الخلفي المظلم. فكّر أنه يحلم. بين الواقع والحلم، الفرق آليّ محض. نائما، صاحيا، كيف وصل هنا؟ يحسّ في الظل مسير الأرض.. الساعة والذباب يؤنس وحدة كاميليا المحتضرة. الساعة تسرّب حبات الأرز الصغيرة لنبضها، كي تبقي علامات على طريقها، حتى لا تضيع عند العودة، عندما تكفّ عن الوجود. الذباب يجري على الجدران ينظف بأجنحته الصغيرة برد الموت. أخرى تطير دون توقّف، سريعة وضاجة. يتوقف عند السرير، تواصل المريضة هذيانها

ألعاب الحلم.. برك من الزيت الممزوج بالكافور.. كواكب تتحاور ببطء.. اتصال الفراغ.. اللامرئي، أجاج، عار.. مفاصل أياد.. عبثية اليد في اليد.. في الصابون المعطر.. في حدائق كتاب القراءة.. في عرين النمر.. في سماء البغاءات.. في قفص الله.

.. في قفص الله، صلاة منتصف الليل، صلاة الديك، الديك بقطرة قمر على عرفه.. ينقر القربان.. ينطفئ ويشتعل، ينطفئ ويشتعل.. صلاة مغناة.. ليس ديكا، بل وميض سلولويد في عنق زجاجة سمينة محاطة بجنود صغار.. وميض دكان الحلوى «الوردة

البيضاء» في مدينة سانت روز.. زبد بيرة الديك، لِدِيك القرية.. من أجل ديك القرية..

سنجعل منه جثة

متاتيرو، تيرو، لا!

هذه المهنة لا تعجبه

متاتيرو، تيرو، لا!

.. يسمع صوت طبل هنا، حيث لا ينزف، يصنع العصيّ في مدرسة الريح، أنه طبل.. توقف هنا، ليس طبلا، أنه باب نطرقه بمناديل الطرق وبيد البرونز! المنازل كالمثقب، طب طب، طب.. طبل الباب.. كل منزل له باب طبله كي ينادي الناس الذين يعيشونها، وحين يغلق فكأنهم يحيون الموت.. طب طبل المنزل.. باب طب طبل المنزل.. يصبح ماء المسبح كله عيون عندما يسمع طرق طبل الباب، ويقول للخادمات بنبرة غنائية: «الباب يطرق!» والجدران تتغطى بالصدى الذي يكرّر: «الباب يطرق، افتحـ حوا!» «الباب يطرق، افتحـ.. حوا!» ويتحرك الرماد، ضعيفا أمام القطّ، الذي يراقبه، بقشعريرة عذبة خلف المشواة، والأزهار تنتبه، الضحية البريئة لتصلب الأشواك، وأيضاً المرايا، الوسيط الروحي الذي تقول من خلاله الأرواح الميتة بصوت مفعم بالحياة: «الباب يطرق، افتحوا!»

المنزل بأسره يريد أن يذهب ليرى تزلزلا في الجسم، مثل الأرض حين تتزلزل، ليرى أني أطرق، طبل الباب: القدور المستديرة، الإناء الفخاري بخطواته الصوفية، الأحواض المزيّنة! الصّحون بسعال الصيني، الطاس، الأغطية المنتشرة مثل ضحكة من

الفضة الألمانية، القوارير الفارغة، تسبقها القارورة التي تزينها دموع الشحم، الذي يصلح ولا يصلح شمعدان صغير في الغرفة الأخيرة، كتب الصلاة، الممرّات المباركة التي حين نطرق، تعتقد أنها تحمي المنزل من العاصفة، المقص، المحار، اللوحات، الشعر القديم، قوارير الزيت، الصناديق الورقية، علب الكبريت والمسامير..

.. الأعمام فقط، يدّعون النوم، وسط حراسة الأشياء الجامدة، في جزر أسرّتهم الزوجية، تحت جدران أغطيتهم النتنة من كثرة الأغذية. يخطف طبل الباب لقيمات سدى من الصمت المهيب. «لا زالوا يطرقون» تقول زوجة أحد الأعمام، تلك الأكثر شبها بالقناع. «نعم، ولكن الويل لمن يفتح»، يجيبها زوجها في الظلمة. «كم الساعة الآن؟ كنت نائما في هدوء»!.. «لا زالوا يطرقون!» «نعم، ولكن الويل لمن يفتح»! «ماذا سيقول الجيران»؟ «نعم ولكن الويل لمن يفتح!» «لذلك يجب أن نفتح، من أجل ما سيقول الجيران عنّا، تخيّل!.. ما زالوا يطرقون!» نعم، لكن الويل لمن سيفتح! «أنهم يبالغون! أين رأينا مثل هذا! يا لها من قلّة احترام! يا لها عجرفة!» «نعم ولكن الويل لمن سيفتح!»

يرقّ صوت عمّها الأجشّ في حناجر الخادمات. أشباح برائحة العجول تأتي لتهمس في غرفة نوم الأسياد: سيدي، سيدتي! أنهم يطرقون بشدّة! وتعود إلى أسرّتها بين البراغيث والنوم، كرّر حتى أكرّر: «اسمعوا، الويل لمن يفتح!»

.. طَب ـ طب طبل المنزل.. ظلمة الشارع.. كلاب تغمر السماء بقرميد من النباح، أسقف للنجوم، زواحف سود وغسالة من الصلصال ذراعاها تغطسان في ضباب من الوميض الفضّي.

أبي.. يا أبتي.. أبي!

تنادي أباها أثناء هذيانها، وحاضنتها التي ماتت في المستشفى، وأعمامها، الخاضعين للموت رفضوا أن يستقبلوها في بيوتهم.

يضع وجه الملاك يده على جبينها. «كل شفاء معجزة، فكّر وهو يداعبها، لو أستطيع أن أبعد الألم فقط بدفء يدي!» يتألّم دون أن يدري أين، ضيق غامض، غير قابل للفهم، كمن يرى برعما صغيراً يموت، دغدغة حنان، تحمل رعبه المتصاعد تحت الجلد، ولا يدري ما عسى يفعل. آليا، يخلط الأفكار بالدعاء: «لو أستطيع أن أضع نفسي تحت أجفانها وأن أحرّك مياة عينيها.. الرحمة، وبعد ذلك المنفى في عينيها بلون الـ.. يا أملنا، الرحمة، من عمق منفانا نتوسّل لك..»

«جريمة، أن تحيى.. في كل يوم.. حينما نحبّ.. هَبْ لنا يومنا..»

يفكر ببيته كمسكن غريب. منزله هنا، هنا مع كاميليا، هنا وليس في منزله، لكن أين توجد كاميليا. وحين تصبح كاميليا غير موجودة؟.. حزن غائم، ينخس جسمه. وحين تصبح كاميليا غير موجودة؟..

حطّمت عربة في عبورها العالم. على رفوف الحانة الصغيرة ترنّ القوارير، صوت مطرقة الباب، ترتعش المنازل المجاورة.. عرف من رجفته أنه ينام واقفا. من الأحسن أن أجلس. يوجد كرسي قرب طاولة الأدوية. بعد ثانية جلبه تحته. تكتكة الساعة، ورائحة الكافور، ضوء الشمعة الموهوبة للرحمة، وإلى المسيح الشمعدان، القادر على كل شيء. الطاولة، المناديل، الأدوية وشريط القديس فرانسيس الذي أعارته إياه جارة لطرد الشيطان، كلها تتفتت ببطء، دون صدمات، بقافية بطيئة، بسلم موسيقي للهدهدة، ذوبان مؤقت، ضيق ممتع، أكثر ثقبا من إسفنجة، لا مرئي، نصف سائل، يكاد يرى، يابس تقريبا، مستتر، تستقصيه الظلال الزرق لأحلام دون نهاية.

.. من الذي يعزف على القيثارة؟.. تخشّب في القاموس المظلم.. تخشّب في الكهوف المظلمة يغني أغنية المهندس الفلاحي.. برد في أنسجة الأوراق.. تنبع من كل مسام الأرض، جناح مربع الزوايا، قهقهات آه آه! آه! شيطانية لانهائية. يضحكون، يبصقون، ما عساهم يفعلون؟ لم يحلّ الليل بعد، رغم ذلك يفصله الظل عن كاميليا، ظل تلك القهقهات، ظل قهقهات رؤوس الموتى، في هذه الخشخشة الجنائزية.. تنفصل الضحكة عن الأسنان، سوداء حيوانية، وعند الالتحام بالهواء تختلط بالبخار وتصعد لتكوّن سحبًا.. سياجًا مصنوعًا من أمعاء إنسانية يقسّم الأرض.. فتحات مصنوعة من عيون إنسانية تقسم السماء.. أضلع حصان يستعملها الإعصار كقيثارة.. رأى مرور جنازة كاميليا.. تسبح عيونه في عباب اللجة التي تمسك لجام النهر نحو الموكب الأسود.. لا بد أن البحر الميت له عيون!.. عيناها الخضراوان.. لماذا تتحرّك قفّازات السائس في الظلّ؟.. خلف الجنازة، تغني عظام خاصرة طفل: «قمر، يا قمر، خذ خوختك وارم النواة في البحر!» هكذا يغنّي كل عظم طريّ.. «قمر، يا قمر، خذ خوختك والق النواة في البحر!..» خاصرة بعيون في شكل أزرار.. «قمر، يا قمر، خذ خوختك والق النواة في البحر!» لماذا تتواصل الحياة اليومية؟.. لماذا يسير القطار؟.. لماذا لا يموتون كلهم؟ لا شيء يمكن أن يوجد بعد دفن كاميليا، كل ما يبقى مصطنع، بديل زائف، غير موجود.. من الأحسن أن نضحك.. انحنى البرج من فرط الضحك.. يفتش في جيوبه ليجمّع ذكريات.. غبار رقيق من أيام كاميليا.. فضلات صغيرة.. خيط.. لا بد أن كاميليا في هذه اللحظات أصبحت.. خيطا.. بطاقة وسخة.. آه! بطاقة ذلك الدبلوماسي الذي يدخل الخمور والمعلبات دون أن يدفع الضرائب الديوانية، ويبيعها في مغازة تاجر لبناني!.. ليغنّي كل العالم.. غرق..

عوّامة الإنقاذ للأكاليل الصغيرة البيضاء.. ليغنّي كل العالم.. كاميليا جامدة بين ذراعيه.. لقاء.. أيادي قارع النواقيس.. تقرع الطريق.. الانفعال يجعل الوجه شاحبا.. داكنة، صامتة، مفصولة عن جسدها.. لماذا لا يمدّ لها ذراعه؟ تترك نفسها تنزلق بين خيوط العنكبوت عند ملامستها، إلى غاية الذراع التي تنقصها.. يضيع الوقت في خيوط التلغراف الحديدية، ويخرج من كوخ حقير في زقاق اليهود، خمسة رجال من البلور الكثيف، ليقطعوا عليه الطريق، والخمسة لديهم خيط من الدم في الصدغ.. يائسا، يقاوم ليصل إلى المكان الذي تنتظره عنده كاميليا، وهو يحسّ بلصق الطوابع البريدية.. على البعد نرى هضبة الكرمل.. في حلمه، يدافع وجه الملاك كي يجد فسحة للمرور بيديه.. كان أعمى.. يبكي؟ يحاول بأسنانه قطع الشبكة الرقيقة للظل التي تفصله عن الحشود البشرية، التي تجلس على الهضبة، تحت خيام من سعف النخل لبيع اللعب، والغلال، والحلويات بالعسل واليسنون.. يغضب، يتمكن من العبور عبر مجرى ضيّق وجرى ليلتحق بكاميليا، لكن الرجال الخمسة من البلور الكثيف عادوا ليقطعوا عليه الطريق.. «انظروا أنهم يتقاسمونها، قطعا صغيرة في حفل سرّ القربان المقدّس..» صاح بهم «دعوني أمرّ قبل أن يمزّقوها إربا.» «لا يمكنها أن تدافع عن نفسها لأنها ميّتة!» ألا ترون؟ أنظروا! انظروا! كل ظلّ يمسك بثمرة، وكل ثمرة ترضّعها قطعة من كاميليا! «كيف يمكن أن أصدق عينيّ، لقد رأيتها تدفن وكنت متأكدا أنها ليست هي، أنها هنا في حفل سر القربان المقدس». صنعوا من جسمها، في المقبرة التي تعبق برائحة الأجاص والمانجا والسفرجل، حمائم بيض، عشرات، مئات الحمائم القطنية، معلقة في لافتات ملونة مزيّنة بجمل جميلة: «ذكراي»، «الحبّ الأبدي»، «أفكّر بك»، «احببني للأبد»، «لا

تنسني»، يضيع صوته في الضجيج الصاخب للأبواق الصغيرة، والطبول الصغيرة، المصنوعة من الأحشاء الفارغة ومن لبّ الخبز اليابس. في الزحام، خطوات الكهنة الذي يصعدون جارّين سيقانهم، سباق الأطفال الذين يتلاحقون، في تراقص الأجراس، في النواقيس، في حرّ الشمس، في حرارة الشموع، عميان عند الزوال، عند عرض القربان المقدس الرائع.. اتحد الرجال الخمسة، ليكونوا جسما واحدا.. ورق الدخان النائم.. على البعد بدوا غير ماديين.. يشربون عصير الليمون.. علم من عصير الليمون.. علم من عصير الليمون تحرّكه الأيادي كالصرخات.. متزحلقين.. تنزلق كاميليا بين متزحلقين لا مرئيين، داخل مرآة عمومية ترى بلامبالاة الخير والشرّ. المزيّن بصوتها المعطّر تترك طعما رقيقا عندما تتكلم لتدافع عن نفسها: «لا، لا، ليس هنا!».. «لأني ميّتة!».. «أية أهمية؟».. ، المسألة..».. «المسألة ماذا، قولي لي ماذا؟».. بينهما يمر تيّار بارد لسماء طويلة، ويجري رجال في طابورين، بسراويل حمر.. خرجت كاميليا خلفهم.. خرج خلفها بالساق الأولى التي يحسها جيدة. توقف الطابور فجأة على آخر قرع للطبل.. يتقدّم السيد الرئيس.. كائن ذهبيّ!.. تاراتاتا! تقهقر الجمهور مرتعشا.. يتلاعب الرجال ذوو السراويل الحمر برؤوسهم.. رائع، أحسنتم! رائع! أعيدوا! رائع! منذ البداية، هيّا! ما أروعهم! لا يطيع الرجال أصحاب السراويل الحمر صوت قائدهم بل صوت الجمهور، وعادوا للّعب برؤوسهم.. ثلاثة أوقات.. واحد! انزع الرأس.. اثنان! ارمها في الفضاء حتى تتضارب قرب النجوم.. ثلاثة! استعدها باليدين وأرجعها لمكانها.. رائع! رائع! مرّة أخرى! منذ البداية! نعم! فليعيدوا من جديد! تسري القشعريرة بين الجميع.. شيئاً فشيئا، تهدأ الأصوات.. نسمع الطبل.. الكل ينظر إلى ما لا يريدون رؤيته.. الرجال بالسراويل الحمر

ينزعون رؤوسهم، يرمونها في الفضاء، ولا يتلقفونها عندما تسقط.. تتحطّم الجماجم على الأرض، أمام صفين من رجال ثابتين أياديهم مربوطة للخلف..

طرقتان قويتان على الباب توقظ وجه الملاك، يا له من كابوس رهيب! من حسن الحظ أن الواقع مختلف، يحس الذي يعود من جنازة وذلك الذي يعود من كابوس نفس السعادة بالحياة. أسرع لينظر من الطارق. أخبار عن الجنرال، أو نداء من السيد الرئيس؟

صباح الخير..

صباح الخير.. أجاب المحظيّ رجلاً أطول منه، بوجه ورديّ، صغير، أحنى رأسه ليرى من يتكلم..

عفوا، هل يمكنك أن ترشدني إن كان هذا منزل المرأة التي تعد الطعام للموسيقيين؟ أنها امرأة ترتدي الأسود..

أغلق وجه الملاك الباب في وجهه، بينما ظل الحسير يبحث عنه، وحين لم يجده ذهب يسأل في المنزل المجاور.

إلى اللقاء، توماسيتا، اعتنِ بصحّتك.

سأذهب إلى السوق. رنّت الأصوات في نفس الوقت، وأضافت الأفعى:

دائما تتجولين..

ماذا تقولين!..

احذري أن يختطفوك!

يا لخيالك الواسع! من سيخطف آلة قديمة مثلي!

فتح وجه الملاك الباب.

ماذا جرى! سأل الأفعى العائدة من سجن الإيقاف.

كالعادة.

ماذا قالوا لك؟

لا شيء.

هل رأيت فاسكاز؟

هل تسخر مني! أدخلوا له القفة، وأخرجوها كما هي.

إذن، لم يعد في سجن الإيقاف..

كانت رجلاي ترتعشان حين أعادوا القفة كما هي، لكن أحدهم هناك أخبرني أنه خرج للعمل.

المدير؟

لا. ذلك الأحمق، لقد أرسلته للمرعى! حاول أن يتحرّش بي.

كيف وجدت كاميليا؟

تتبع سبيلها.. أليس كذلك؟.. المسكينة الصغيرة، تتبع سبيلها.

أنها مريضة جداً، جدا.. أليس كذلك؟

أنها محظوظة جداً، كم أريد أن أرحل هكذا دون أن أعرف الحياة!.. إني أرثي لحالك، عليك أن تذهب للصلاة عند مسيح الرحمة. لماذا لا يمنحك معجزة؟ لقد كنت هناك، أنا، هذا الصباح، قبل الذهاب إلى فاسكاز، وضعت له شمعة من العسل وقلت له: «اسمع أيها الأسمر، جئت لأراك، لأنك لست أبانا كلنا، دون سبب، ويجب أن تسمعني، إن حياة هذه الصغيرة بين يديك، افعل كي لا تموت. لقد طلبت ذلك من العذراء عندما

استيقظت، والآن جئت لأقلقك من أجل نفس السبب، أترك لك هذه الشمعة كقربان، وسأرحل وكلي ثقة في قدرتك، لكني سأعود لأذكّرك بدعائي!»

تذكّر، وجه الملاك، وهو نصف نائم، رؤياه. بين الرجال ذوي السراويل الحمر يقف القاضي بوجه بومة، وهو يلتهم بشراهة رسالة دون اسم، يقبّلها، يلعقها، يأكلها، يتغوّط، ثم يعيد أكلها..

(٢٧)

في طريق المنفى

تنزل دابّة الجنرال كناليس في الضوء الخافت للغروب، ثملة من التعب، بالثقل الساكن للفارس المتعلّق بعقدة السرج. تحلّق الطيور فوق البروق والسحب، والجبال، متصاعدة هنا وهناك، نازلة هنا وهناك، كفارس قبل أن يهزمه التعب والنوم، على الدروب التي لم يطرقها بشر، في الأنهار العريضة بأحجار ترقد في أعماق مياهها التي كدّرتها الخطى التي تحثّ الدابة، بضربات على كفلها المتسخ بالطين، على المسير، في الغابات المجهولة، المتفجّرة أشواكا، وطوال ممرّات الماعز، بأساطير الساحرات، وقطاع الطرق.

يمدّ الليل لسانه، ميل من الأرياف الرطبة يفصل ظلّا بين الفارس وركوبته، يقوده نحو كوخ مهجور، ويرحل دون صوت. ثم يعود بعد حين، لعله ذهب من هنا، أو من هناك، أو من تلك الناحية، حيث تغنّي الصراصير، كري، كري، كري، كري! بقي لحظات في الكوخ وتبخّر. ثم عاد سريعا. يخرج ويدخل. يذهب كأنه يعلم عن لُقْيته، ويعود ليتأكد أنها مازالت موجودة. يتابع المشهد المليء بالنجوم ذهابه وإيابه، الملتوي، ككلب وفيّ، محرّكا في الصمت الليلي، ذيلا من الأصوات: كري، كري! كري، كري!

في الأخير بقي الظل في الكوخ، تقفز الريح من غصن لغصن. يطلع الصبح في المدرسة الليلية للضفادع، التي تعلّم النجوم القراءة.

جو للهضم السعيد. الحواس الخمس للضوء. تتشكّل الأشياء في عيون الرجل المقرفص قرب باب الكوخ، منكمشا، وخجولا، منبهرا بالفجر وبالتنفّس المنتظم للفارس النائم. البارحة ظل، واليوم رجل، كان هو الذي ساعده في النزول من ركوبته. أعدّ الرجل النار، صباحا، وضع الأحجار المسودّة في شكل صليب، وحرّك الرماد القديم، بغصن صنوبر، ثم أشعل النار بعود يابس وبعض أغصان خضر. الحطب الأخطر لا يشتعل بهدوء، بل يثرثر كببغاء، وحين يتعب، يهدأ، يبكي ويضحك. استفاق الفارس، مرعوبا مما يرى، ومنفعلا، ووقف بقفزة واحدة أمام الباب ومسدّسه بيده، عازما على أن يدافع لآخر رمق في حياته، ودون أن يقلقه منظر المسدس، أشار الآخر لإناء القهوة التي بدأت تغلي. لم ينتبه إليه الآخر. خطوة، فخطوة، يخرج من الباب ـ أكيد أن الكوخ محاط بالجنود ـ ولم يجد إلّا السهل الشاسع يتبخّر بألوان وردية. مسافة. زبد أزرق. أشجار. سحب. دغدغة الزغاريد. تنام بغلته في ظل تينة. تسمّر هناك دون أن يحرّك أجفانه، يستمع، كي يتأكد جيّدا ممّا يرى، ولم يسمع إلا موسيقى العصافير المتناغمة، والانزلاق البطيء للنهر ذي المنسوب الكبير، حيث بالكاد يسمع صوت ذوبان السكر في القهوة في هذا المناخ اليافع.

أرجو ألا تكون من البوليس!.. همس الرجل الذي أعانه على النزول، محاولا أن يخفي أربعين أو خمسين سنبلة ذرة خلفه.

رفع الفارس عينيه كي يرى رفيقه، وحرّك رأسه يمينا ويسارا، وفمه ملصق بالإناء.

أبتاه!.. همس الآخر محاولا إخفاء راحته، تاركا عينيه تسرحان في المكان ككلب ضائع.

أنا هارب..

كفّ الرجل عن إخفاء سنابله، واقترب ليصبّ مزيدا من القهوة. بالكاد يستطيع كناليس الكلام من كثرة الأوجاع.

وأنا أيضاً، سيدي، أنا أهرب لأني سرقت ذرة. لكنني لست لصّا لأن الأرض كانت ملكي قبل أن يأخذوها مني مع البغال..

اهتمّ الجنرال بحديث الهندي الذي سيفسّر له كيف يمكن أن نسرق دون أن نكون لصوصا.

سترى، سيدي، أني أسرق دون أن أكون لصّا، لأني قبل أن أصبح مثلما تراني الآن، كنت مالكا لأرض صغيرة قريبة من هنا وثمانية بغال. كان لي بيت وامرأة وأبناء، وكنت رجلاً شريفا مثلك..

نعم، وبعد ذلك؟..

منذ ثلاث سنوات، جاء المفوّض السياسي، بمناسبة حفل السيد الرئيس، وأمرني أن أحمل الصنوبر على بغالي. فحملتها، سيدي. ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك؟.. وبوصولي، رأى بغالي، فرماني في السجن سرّا، ثم تقاسم بغالي مع رئيس البلدية، لاتيني، وعندما طالبت بملكي، ثمرة عملي، أجابوني أني مخبول وإذا لم أغلق فمي فأنهم سيلقون بي في مستشفى المجانين. فقلت له: «حسنا، سيدي المفوّض، يمكنك أن تفعل بي ما تشاء، لكن البغال ملكي.» لم أستطع أن أقول كلمة أخرى، سيدي، لأنه ضربني بحزامه ضربة على رأسي كادت تودي بحياتي.

ابتسامة مرّة تظهر وتختفي تحت شارب العسكري المنكوب، ويواصل الهندي دون أن يرفع صوته، بنفس النبرة:

حينما خرجت من المستشفى جاؤوا إلى القرية ليعلموني أن أبنائي

في السجن ويلزم ثلاثة آلاف بيزوس لإخراجهم. كان أبنائي فتيانا، أسرعت للعقيد لأرجوه أن يبقيهم في السجن وألا يرسلهم إلى الثكنة، وأني سأرهن أرضي للحصول على الثلاثة آلاف بيزوس. ذهبت حتى العاصمة، وهناك أعد محامي أوراقا تثبت أني قبضت من شخص غريب ثلاثة آلاف بيزوس، برهن الأرض. لقد قرؤوا ذلك، لكن ليس ذلك ما كتبوه. بعد مدّة قصيرة، جاء موظف من المحكمة وأمرني بالرحيل لأن الأرض لم تعد ملكي لأني بعتها مقابل ثلاثة آلاف بيزوس لرجل غريب. فأقسمت بالله أن هذا غير صحيح، لكنهم لم يصدقوني أنا، بل المحامي، فخرجت من أرضي، بينما أرسلوا أبنائي، رغم الثلاثة آلاف بيزوس التي أخذوها مني، إلى الثكنة. مات أحدهم وهو يحرس الحدود، والآخر فرّ من الجندية، فكأنه ميت، وأمهم زوجتي، ماتت بحمى المستنقعات. ولهذا، لهذا سيدي، أسرق ولو قتلوني بضرب العصيّ أو ألقوا بي في السجن.

.. وهذا ما ندافع عنه نحن الجنود!

ماذا قلت، سيدي؟

تنفجر في قلب كناليس العجوز العواطف المصاحبة للعواصف التي يسبّبها الظلم في روح الإنسان الشهم المتألم في بطنه، كأنّ دمه قد فسد. يؤلمه في الخارج وحتى النخاع، في جذور شعره، وتحت أظافره، بين الأسنان. الواقع؟ أبداً لم يفكّر برأسه، دائماً يفكر بقبّعته! يعمل ليدعّم عصابة من اللصوص، من المستغلّين، الغشاشين، وطنية، مؤلّهة، أشدّ حزنا، لأنها أسوء من أن تموت جوعا في المنفى. بأي حقّ يطلبون منّا نحن العسكريين أن نكون أوفياء لأنظمة، مخادعة، تخون المثل والوطن، والسلالة.

يتأمّل الهندي الجنرال كناليس، كتميمة غريبة، دون أن يفهم الكلمات القليلة التي قالها.

هيّا بنا، يا أبتي.. الدورية الصاعدة ستأتي.

اقترح عليه كناليس أن يعبر معه للدولة المجاورة، والهندي، دون أرض، كشجرة، اجتثت من جذورها، وافق. كانت الأجرة جيّدة.

خرجا من الكوخ دون أن يطفئا النار. يفتحان الطريق في الغابة بالساطور. أمامهما، تضيع آثار فهد. ظل. نور. ظلال. نور. قماش من الأوراق. خلفهما يشتعل الكوخ كشهاب. منتصف النهار. انبهار أبيض. حجارة، ثم حجارة أخرى. حشرات. جماجم نظيفة، ساخنة، مثل ملابس حميمة نديّة مكويّة. غليان، أعاصير عصافير ضاجّة. مياه ظمأى. الاستواء. تغييرات دون زمن، حرارة متساوية، متساوية دائما، دائما.

يضع الجنرال منديله، كواق من الشمس. بجانبه يمشي الهندي على نسق خطوات البغلة.

أعتقد أنّنا لو سرنا طوال الليل، سنكون صباحاً عند الحدود، ومن المستحسن أن نغامر قليلا جهة الطريق الملكي، يجب أن أمرّ إلى «الألدياس» عند بعض الصديقات..

تاتا، ماذا ستفعل؟ على الطريق الملكي ستكتشفك الدورية الصاعدة.

بعض الشجاعة، اتبعني، لأن الذي لا يغامر لا يكسب شيئا، والصديقات سيقدّمن لنا العون اللازم.

لا، تاتا، أرجوك! وأضاف الهندي مرتعشا: هل تسمع، هل تسمع، تاتا؟

وقع خيول يقترب، لكن بعد قليل هدأت الريح، فبدا أنهم عادوا على أعقابهم، ابتعد الوقع.

اسكت!

أنها الدورية، تاتا، أعرف ما أقول، والآن ليس لنا إلاّ أن نمرّ من هنا، رغم أن الطريق ستكون أطول، للمرور إلى «الألدياس».

استدار الجنرال خلف الهندي نحو درب فرعي، كان عليه أن ينزل ويسحب البغلة، وكلما توغلا في مجرى الوادي أحسا كأنهما داخل قوقعة حلزون، محميين أكثر من الخطر الذي يقترب منهما، شيئاً فشيئا، تظلم الدنيا بسرعة، تتكاثف الظلال في المنحدر النائم. تبدو الأشجار والعصافير علامات غريبة في الريح التي تروح وتجيء في حركة متواصلة هادئة. سحابة من الغبار المحمرّ قرب النجوم، هذا ما يرونه من الدورية: لقد مرّت مسرعة من المكان الذي تركاه منذ حين.

مشيا طوال الليل.

ـ سنرى الألدياس في أعلى الطريق الصاعدة، سيدي!

سبق الهنديّ بالدابة كي يعلم صديقات كناليس، ثلاث أخوات عازبات، يقضين الحياة في الانتقال بين الإنشاد والذبحة الصدريّة، من الطقوس التساعيّة إلى آلام الأذنين، من ألم الأعصاب إلى وجع الخاصرة. استقبلن الخبر وهن يفطرن. كدن يغمى عليهن. استقبلن الجنرال في غرفة النوم. لأنهن لا يشعرن بالراحة في الصالون. ليس لأمر ما ولكن في القرى يدخل الضيوف مباشرة وهم يصيحون «سلام ملائكي» حتى يصلوا إلى المطبخ. قصّ عليهم العسكري آلامه بصوت رزين، قويّ، وهو يمسح دمعة سالت عند ذكر ابنته. هنّ،

هنّ يبكين، متألمات، متألمات لدرجة نسيان آلامهن الخاصّة، موت أمّهن الذي يرتدين من أجله ملابس الحداد.

حسنا! سننظم هروبك، أو على الأقل مرورك عبر الحدود. سأذهب لمعرفة الأخبار من الجيران، أنه وقت تذكر المهربين.. آه! أعرف! المعابر السالكة كلها تحرسها السلطة..

الأخت الكبرى التي تكلمت، تسأل أختيها بالنظرات.

نعم سننظم الهروب، كما قالت أختي، أيها الجنرال، ولأني أعتقد أنه ليس من السيئ أن تحمل بعض الزاد، سأذهب لإعداده.

وأضافت الصغرى على كلمات أختها الوسطى التي أنستها الصدمة حتى آلام أسنانها:

وبما أنك ستقضي اليوم كله معنا، سأبقى للحديث معك حتى لا تظل حزينا هكذا.

حاحسست وراءه أحسحححح ينظر الجنرال للفتيات بعرفان كبير ـ ما يفعلنه من أجله لا يقدّر بثمن ـ ورجاهن أن يغفرن له القلق الذي يسببّه.

لا ينقصنا إلا هذا جنرال!

لا جنرال، لا تقل كلمة أخرى!

أعلم يا صغيراتي، ولكنني أعلم أني أشرككن معي حين أبقى في المنزل!

آه! لديك أصدقاء.. تخيّل أنه منذ موت أمّنا..

لم تقلن لي كيف ماتت أمّكن؟

ستحكي لك أختي، سنذهب لقضاء أعمالنا.. أجابت الكبرى، ثم

تنهّدت. أخفت تحت معطفها صدارها المطويّ وذهبت لتضعه في المطبخ، أين تعدّ الوسطى الزّاد من لحم الخنزير والطبور.

لم يكن من الممكن أخذها إلى العاصمة، وهنا، لم يتمكنوا من معرفة مرضها، أنت تعرف جيّدا كيف تسير الأمور، جنرال. كانت مريضة، مريضة جداً، المسكينة. ماتت وهي تبكي، لأنها تركتنا وحدنا في هذا العالم. بالقوّة.. ولكن انظر ما حصل لنا.. ماديّا، لم يكن لدينا ما نسدّد أجرة الطبيب، الذي يطالبنا بأجرة خمس عشرة زيارة ما يساوي تقريبا قيمة هذا المنزل، كل إرث والدنا. أعذرني للحظات، سأذهب لأرى ما يريد خادمك..

عندما خرجت الأخت الصغرى، نام كناليس. عينان مغمضتان، جسم من ريش ..

ماذا تريد يا بنيّ؟

بالله عليك، أين يمكنني أن أستريح؟

هناك، أرأيت.. مع الخنازير.

ينسج سلام الريف نوم الجنرال، نعمة الحقول المزروعة، رقّة الأراضي المخضرّة، والوردات البسيطة. مرّ الصباح مع خوف الحجل من أن يسقيه الصيادون رصاصا صغيرا، ومع دفن سقاه الكاهن ماء مباركا، مصحوبا بهرج عجل صغير كثير الوثب والحركة. في ساحة العوانس، حصلت، في أبراج الحمام حوادث هامّة! موت متغطرس، زواج وثلاثون تزاوجا تحت الشمس.. كي لا نقول كل شيء!

كي لا نقول كل شيء! قالت الحمائم في شبابيك أبراجها، حتى لا نقول كل شيء!..

أيقظت الأخوات الجنرال عند منتصف النهار للغداء. أرز بالفلفل. مرق عجل. دجاج. فاصوليا. موز. قهوة.

سلام ملائكي.

قطع صوت المفوّض السياسي الغداء.

شحبت العوانس دون أن تدرين ما العمل. اختبأ الجنرال خلف أحد الأبواب.

لماذا كل هذا الخوف أيتها الصغيرات؟ لست الشيطان بأحد عشر ألف قرن! آه! اللعنة، كل هذا الخوف منّي، أنا الذي أكنّ لهنّ كل الحبّ!

لم تستطع المسكينات نطق أي كلمة.

و.. لا يقلن لك ادخل، تفضّل بالجلوس.. ولو على الأرض.

قدّمت الوسطى كرسيّا لأعلى سلطة في القرية.

شكرا جزيلا! ولكن من كان يأكل معكنّ؟ أرى ثلاثة صحون ملآنة، والرابع.. ؟

إنّ.. المسألة.. غمغمت الكبرى، بعد أن نظرت الفتيات الثلاثة لصحن الجنرال.

لا يمكننا أن نفسّر لك، لماذا، ولكن، رغم أن أمّنا قد توفيت، فإننا نواصل وضع صحنها لنحسّ أننا أقل وحدة! قالت الوسطى لتنقذ الموقف.

كأنّي بكنّ ستصبحن متصوّفات!

ماذا نقدّم لك أيها العقيد؟

فليحفظك الله! لكن زوجتي قدمت لي الطعام الآن، ولم آخذ وقت قيلولتي، لأن وزارة الداخلية أرسلت لي برقية تأمرني بملاحقتكن قضائيا إذا لم تدفعن أجرة الطبيب.

ولكن، أيها العقيد، هذا ظلم. أنت تعلم جيداً أن هذا ظلم.

لن أعترض أنه ظلم، ولكن عندما يحكم الله يسكت الشيطان..

بالطبع! صاحت الفتيات ودموع تملأ عيونهن.

يؤلمني كثيراً أن آتي لأزعجكن، لكن، وأنتن تعلمن ذلك مسبقا، تسعة آلاف بيزوس، البيت أو..

في الطريقة التي استدار بها، في الطريقة التي أدار بها لهن ظهره، الظهر الذي يبدو كجذع شجرة، في كل ذلك يكمن التصميم الخبيث للطبيب.

سمعهن الجنرال يبكين. أغلقت الباب الخارجي بالمفتاح وبعارضة حديدية خشية أن يعود العقيد. تسقط الدموع في صحون الدجاج.

ما أمرّ الحياة، أيها الجنرال! كم أنت سعيد لأنك تغادر هذه البلاد دون عودة.

وبماذا يهددكن؟ سأل كناليس الكبرى، التي قالت لأختيها، دون أن تسمع دموعها:

فلتخبره إحداكنّ.

بإخراج أمّنا من القبر.. غمغمت الوسطى

كيف ذلك؟ سأل كناليس وقد توقف عن المضغ.

كما سمعت، بإخراج أمّنا من قبرها.

ولكن هذا بغي!

قل له هذا الكلام!

نعم، يجب أن تعلم أيها الجنرال أن طبيب القرية نذل بامتياز، لقد قالوا لنا ذلك، ولكن بما أن التجربة هي ما نقوم به بأنفسنا، فقد تمكّن منّا. ماذا تريد؟ بالكاد نصدّق أنه يمكن أن يوجد أشخاص بهذه الشراسة..

أزيدك بعض الفجل أيها الجنرال؟..

قدّمت الوسطى الصحن للجنرال، وبينما يصبّ الجنرال لنفسه، واصلت:

وقد تمكّن منّا. يتمثل دهاؤه في صنع قبر صغير، عندما يوجد مريض في حالة خطيرة، وبما أن آخر شيء يفكّر فيه الأقارب هو القبر، عندما يحين الانفصال، مثلما حصل معنا، عوض أن نضع أمّنا في الأرض، قبلنا واحداً من قبوره، دون أن ندري لما يخطّط..

وبما أننا نساء وحيدات.. قالت الكبرى بين شهقاتها.

قدّم لنا فاتورة حساب، كاد يغمى علينا حين قرأناها. تسعة آلاف بيزوس، من أجل خمس عشرة عيادة، تسعة آلاف بيزوس، هذا المنزل، أو..

أو.. إذا لم ندفع له، قالها لأختي، ـ آه! غير معقول! ـ أن نخرج فضلاتنا من قبره!

الدجّال، القذر! صاح كناليس وهو يضرب بقبضته على الطاولة. ثم أدار قبضته ـ ارتعشت الصحون والكؤوس والأطباق ـ يفتح الجنرال أصابعه ويغلقها كأنه يخنق، لا هذا الصعلوك الحامل لشهادة فحسب، بل نظاما اجتماعياً بأكمله، الذي يرسله من عار

لعار. «الهذا يوعد المساكين بمملكة السماء، أصباغ العبادة، كي يتحملوا هؤلاء الأنذال دون أن يثوروا. إذن! لا. يكفي من حكم الجِمال هذا. سأقوم بالثورة الكاملة من الأسفل إلى الأعلى! يجب أن يثور الشعب على هذا الكم الهائل من المستغلين، من أصحاب الشهادات المنغمسين في اللذات، والكسالى الذين عليهم أن يعملوا في استصلاح الأراضي. يجب أن يحطّم كل واحد شيئا.. كل واحد.. يحطّم.. يحطم.. يحطّم.. وألّا تبقى دمية من تلك الدمى واقفة».

حدّدت ساعة الرحيل في العاشرة ليلا، واتفقوا مع مهرّب صديق للعائلة. كتب الجنرال العديد من الرسائل العاجلة، منها واحدة لكاميليا. لم يكن هناك وداع. ابتعدت الدواب وحوافرها مغلّفة لخرق من القماش. تبكي الأخوات ملتصقات بجدار، في الزقاق المظلم. عندما اقتربوا من الطريق العمومي، أوقفت يد فرس الجنرال. على البعد تسمع خطوات متأنيّة.

كم خفت، همس المهرّب، كدت أختنق! لكن لا شيء يخيف، أنهم يذهبون كي يقدم الطبيب *سرينادا* لحبيبته.

في آخر الطريق، مشعل من الصنوبر المشتعل، تجمّع وتفرّق ظلال المنازل والأشجار، ورؤوس الخمسة أو الستة رجال المتجمعين تحت النافذة.

من، بين هؤلاء، هو الطبيب؟ سأل الجنرال ومسدسه بيده.

أمسك المهرّب الفرس ورفع يده مشيراً بإصبعه للرجل الذي يمسك قيثارة. انطلقت رصاصة في الفضاء، وكموزة انفصلت عن القِرط سقط رجل.

أوه.. أوه.. ماذا فعلت!.. فلنهرب، هيّا.. سيلحقون بنا.. بسرعة!..

هذا.. ما.. يجب.. أن نفعله.. كي.. يسود النظام هذا الشعب.. قال كناليس، وصوته يقطعه خبب الفرس.

أيقظت أصوات الركض الكلاب، والكلاب أيقظت الدجاج، والدجاج أيقظت الديوك، والديوك أيقظت الناس، هؤلاء الناس الذين عادوا إلى الحياة دون رغبة، يتثاءبون، يتكاسلون، بخوف..

جاءت الدورية لأخذ جثّة الطبيب. من المنازل المجاورة خرج الناس بالمشاعل. لم تستطع التي كانت تستمتع بالسريناد البكاء، وقد ضاع بصرها، وهي تمسك مشعلا صينيا، في حلكة الليل القاتل.

سنصل إلى النهر، أيها الجنرال، لكن المكان الذي سنمرّ منه، لا يمكن أن يعبره إلا رجل حقيقي.. أقول ذلك بصدق! آه! أيتها الحياة، لو كنت أزلية!..

من يتحدّث عن الخوف؟ أجاب الجنرال وهو ينتصب على فرسه الأسود.

آه! تنبت لنا أجنحة حين يلاحقوننا. تشبّث بي جيّدا حتى لا أفقدك!

كان المعبر متشعبا، والهواء مشبعا بالرطوبة، أحيانا، صقيعيا، كأنه من البلور. يهدهد صوت النهر في سيلانه القصب.

نزلوا المنحدر مسرعين على أقدامهم. أخفى المهرّب الخيول ليرجع إليهم في طريق العودة. تعكس بعض المساحات في النهر صورة السماء المرصّعة، نباتات غريبة تطفو، أشجار مصابة بجدري أخضر، بعيون بلون الطلق، وأسنان بيض، يفور الماء بقربها، نائما، مزبدا، برائحة الضفادع.

يقفز الجنرال والمهرّب من حجر لحجر، وكلٌ مسدسه بيده،

ودون كلمة. تلاحقهما الظلال كتماسيح الكايمان. أمطار من الحشرات تلسعهما. سمّ طائر في الهواء. بحر نتن، بحر وقع صيده في شباك الغابة بكل أسماكه، ونجماته، ومرجانه، وعروق اللؤلؤ، واللجة، والتيارات.. البحّارة الصغار يلقون فوق رؤوسهما لعاب الإخطبوط. ، كإشارة أخيرة على الحياة. حتى الوحوش لا يمكنها المغامرة في هذه الأماكن. يدير كناليس رأسه في كل النواحي، تائها في هذه الطبيعة المنسيّة، منيعة، مدمّرة مثل روح أسلافها. هاجم تمساح الكايمان (مؤكد أنه ذاق اللحم البشري من قبل) المهرّب، فوجد هذا الأخير الوقت للقفز، بينما تقهقر الجنرال لا إراديا للدفاع عن نفسه لكنّه رأى في تلك اللحظة تمساحا آخر يفتح فمه، لحظة حاسمة، تيبُّس ظهره غزا كل جسمه. يحسّ بالشوك ينبت في وجهه الأشعر، ولسانه مشلولا. ضمّ قبضته. انطلقت ثلاث رصاصات، في ثانية واحدة، وكررّها الصدى، عندما قفز الجنرال منتهزا هروب الحيوان. أطلق المهرّب رصاصات. عندما استعاد الجنرال هدوءه جرى نحوه ليصافحه، فاحترقت أصابعه من نار المسدس الذي مازال الآخر يشهره.

افترقا عند الحدود، بينما يلون أول الفجر الوجود. تمرّ على زمرّد الحقول، على الجبال ذات الأشجار الكثيفة التي تحوّلها العصافير إلى علب موسيقى، كذلك على الغابات، سحب على شكل تماسيح تحمل على ظهورها كنوز النور.

الجزء الثالث

أسابيع، أشهر، سنوات..

(٢٨)

أصوات في الظلّ

الصوت الأول:

في أي يوم نحن؟

الصوت الثاني:

نعم، في أيّ يوم؟

الصوت الثالث:

ترقبوا.. لقد أوقفوني يوم الجمعة: الجمعة.. السبت.. الأحد.. الأثنين.. الأثنين.. ولكن منذ متى وأنا هنا؟.. هذا صحيح.. قولوا، في أيّ يوم نحن؟

الصوت الأول:

يبد ولي.. هل تعرفون؟.. إننا بعيدون جدّا، بعيدون جدّا..

الصوت الثاني:

لقد نسونا في قبر داخل مقبرة قديمة، لقد دفنّا إلى الأبد.

الصوت الثالث:

لا تتكلّم هكذا!

الصوت الثاني:

لا تتـ..

الصوتان الأولان:

.. كلموا هكذا!

الصوت الثالث:

لكن لا تسكتوا! الصمت يخيفني، إني خائف، أحسّ أنّ يدا تمتدّ في الظلام، وتمسكني من رقبتي، وتخنقني.

الصوت الثاني:

تكلموا بحق الشيطان! تحدثوا كيف هي أحوال المدينة، أنت آخر من رآها، كيف حال الناس، كيف يسير العالم؟.. أحيانا أتخيّل أن المدينة بأسرها بقيت مثلنا في الظلام، بين جدران عالية جدّا، شوارعها تغرق في الطّين الميّت لكل الشتاءات السابقة. لا أعلم إن كنتم مثلي، ولكني في آخر الشتاء أتألم من فكرة أن الطين سيجفّ. تجتاحني رغبة كبيرة في الأكل عندما أنزل للمدينة، أشتهي، تفاح كاليفورنيا..

الصوت الأول:

كذلك أقول عن البر.. تقال. أمّا أنا فأكتفي بكوب شاي ساخن!

الصوت الثاني:

أتخيّل أن في المدينة، كل شيء يتواصل كما كان، كأن شيئاً لم يقع، كأننا لسنا هنا، مسجونين! مؤكّد أنّ القطار يواصل سيره. كم يمكن أن تكون الساعة؟

الصوت الثاني:

لعلها تقريبا..

الصوت الثالث:

تكلّموا، واصلوا الكلام، لا تسكتوا، بحق كل ما تحبون في هذا العالم، لأن الصمت يخيفني، إني خائف، أحسّ أن يدا تمتدّ في الظلام لتمسكني من رقبتي وتخنقني!

أضاف الصوت برعب:

لا أريد أن أقول لكم، ولكني أخاف أن يضرب.. نا..

لست بحاجة كي تقول ذلك! أكيد أن ضرب السّياط مؤلم جدّا!

الصوت الثاني:

سيشعر الذين تعرّضوا للضرب بالسياط، الإهانة إلى الجيل الثالث.

الصوت الأول:

أنت لا تحسن غير التجديف، من الأحسن أن تسكت!

الصوت الثاني:

كل كلام تجديف، بالنسبة لخدام الكنيسة..

الصوت الأول:

أحقا! لقد حشوا دماغك.

الصوت الثاني:

قلت إن كل كلام هو خطيئة، عند خدام الكنيسة، بالنسبة للآخرين!

الصوت الثالث:

تكلمّوا، واصلوا الكلام، لا تسكتوا، بحق كل ما تحبّون في هذا العالم! لأن الصمت يخيفني، إني خائف، أحسّ أن يدا تمتدّ في الظلام لتمسكني من رقبتي وتخنقني!

في الزنزانة التي قضّى بها المتسوّلون ليلة، بقي خادم الكنيسة والطالب، ومعهم الآن المحامي أبال كارجفال.

لقد وقع إيقافي في ظروف سيئة جدًا، قال كارجفال، عادت الخادمة التي ذهبت صباحاً لشراء الخبز، وقالت إن المنزل محاصر بالجنود. قالت ذلك لزوجتي، وأعادت زوجتي لي الخبر، لكني لم ألق بالا لذلك، معتقدا أنهم جاؤوا لإيقاف بعض مهرّبي الخمور، أنهيت حلاقتي واستحمامي، وإفطاري، وارتديت ملابسي، لأذهب لتهنئة السيد الرئيس. كنت في أبهى ملابسي «أهلا، يا زميلي، يا لها من معجزة!» قلت لرئيس المحكمة الخاصّة، الذي وجدته في زيّه الرسمي أمام عتبة الباب. «لقد مررت لأخذك، أسرع الوقت متأخّر!» أجابني. مشيت معه بعض خطوات، ثم سألني إن كنت أعلم لماذا يحاصر الجنود المنزل، فأجبته بأني لا أعلم. «إذن سأخبرك، أنهم هنا لإيقافك». قال لي. رأيت على وجهه أنه لا يسخر مني. مسكني ضابط من ذراعي، وأخذوني تحت حراسة مشدّدة. وألقوا جسدي، كخردة، في هذه الزنزانة، وأنا في أبهى حلّتي.

ثم أضاف بعد وقفة صغيرة:

هيّا تكلموا، الصمت يخيفني، إني خائف!..

هوه! ها! ها! ما هذا؟ صاح الطالب، رأس خادم الكنيسة باردة كحجر الرحى.

لماذا تقول هذا الكلام؟

لأني ألمسه، وهو لا يحسّ شيئا، لا شيء. انظر.

أنا؟ أبدا! اختر كلامك!

نعم، أنت، أستاذ! من غيرك؟

لا..

إذن، هناك.. ميّت بيننا؟

لا، ليس ميّتا، أنه.. أنا..

من أنت؟.. سأل الطالب. أنت متجمّد من البرد!

أحدكما. قال صوت ضعيف جدّا.

الأصوات الثلاثة الأولى:

آ آ آ آه!

روى خادم الكنيسة مأساته للمحامي كارجفال:

كنت خارجاً من الكنيسة ـ رأى نفسه خارجاً من الكنيسة، بلباسه الأنيق يعبق برائحة المباخر المطفأة، الخشب العتيق، ذهب الزينة، شعر الموتى ـ كنت أعبر الكنيسة ـ رأى نفسه عابرا الكنيسة، متأثرا بحضور القربان المقدّس، بثبات قناديل الليل، وبحركة الذباب ـ كلّفت بأمر من عضو الأخويّة، بنزع إعلان تساعية عذراء الأومن الباب لأن التساعية انتهت. لكن المأساة، بما أني لا أحسن القراءة، عوض أن أنزع ذلك الإعلان، نزعت ورقة يوبيل أمّ السيد الرئيس، التي من أجلها وضع السرّ المقدس.. أوقفوني ووضعوني في هذه الزنزانة كأحد الثوار!

الطالب فقط لم يفصح عن سبب إيقافه. الحديث عن آلام رئتيه أهون عليه من أن يقول شيئاً سيّئا عن وطنه. كان يتلذّذ بآلامه

العضوية حتى ينسى أنه رأى النور في خيبة أمل، أنه ولد بين جثث، أنه فتح عينيه في مدرسة دون نوافذ، حيث أطفؤوا، حال وصوله، نور الإيمان الخافت داخله، دون أن يعوّضوه بأي شيء، ظلمة، فوضى، اختلال، كآبة مخصيّ مبهمة. وشيئا فشيئا يمضغ قصيدة الأجيال المضحّى بها:

نزور موانئ اللاوجود

دون نور في أذرعنا اليانعة

جلودنا المالحة تبللها الدموع

كما يعود البحارة من البحر.

أحبّ فمك في وجهك ـ قبلة! ـ

ويدي في يدك ـ.. بالأمس فقط.. ـ

آه! تمرّ الأيام سدى

بجدول قلبنا البارد!

تمزّق الجراب وتشتّت الخليّة

ففرّت النحلات كالنيازك

في الفضاء.. ليس بعد.. ـ

وردة الرياح دون أي تُوَيْجَة..

يمشي القلب، قافزا من القبر.

آه! ترن، ترن، ترن، العربة التي تسير وتسير!..

تسير الخيول في ليلة دون قمر

تغمرها الورود حتى الحوافر

كأنها تعود من النجوم

لكنها تعود من المقبرة.

آه! ترن، ترن، ترن، العربة التي تسير وتسير،

مرافي من الدموع،! ترن، ترن، ترن،

بين حواجب من الريش، ترن، ترن، ترن!

ألغاز الفجر بين النجوم،

خفايا الوهم في الهزيمة

جِدٌّ بعيد عن العالم، جِدٌّ مبكّر..

للوصول إلى شواطئ الأهداب

تغامر أمواج الدموع في أعلى البحار.

تكلموا، واصلوا الكلام، قال كارجفال ـ إثر صمت ثقيل ـ واصلوا الكلام!

فلنتحدث عن الحرية، همس الطالب.

يا لها من فكرة! تدخل خادم الكنيسة، الحديث عن الحرية في السجن!

هل تعتقد أن المرضى لا يتحدّثون عن المرض في المستشفى؟

تدخّل الصوت الرابع فجأة:

.. ليس هناك أمل في الحرية، يا أصدقاء، نحن محكومون بتحمّل هذا إلى ما شاء الله. المواطنون الذين يتطلعون لسعادة الوطن بعيدون جداً: بعضهم يستجدون الصدقة في أرض غريبة، والآخرون يتعفّنون في مدافن جماعيّة. يوماً ما ستنغلق الشوارع من الرعب. ولن تعطي

الأشجار ثمارا كالسّابق، الذّرة لن تغذّينا، والماء لن يروينا، سيصبح الهواء خانقا، ولن نعرف الراحة أبداً، ستلاحق الجروح الأوبئة، والأوبئة الجروح، وقريبا يأتي زلزال ليسحق كل شيء. فليأت، لأننا شعب ملعون. تصرخ فينا أصوات السماء مع الرعود: «أخسّاء! نجسون! شركاء الجور!» على جدران السجون، ترك مئات الرجال آثار أدمغتهم التي فجّرتها رصاصات المجرمين، مازال رخام القصور مبلّلا بدماء الأبرياء. أين نولّي وجوهنا لنرى الحرية؟

خادم الكنيسة:

نحو الله القدير!

الطالب:

ما الفائدة! أنه لا يجيب..

خادم الكنيسة:

لأنها إرادته المقدّسة..

الطالب:

يا للخسارة!

الصوت الثالث::

تكلّموا، واصلوا الكلام، لا تصمتوا! بحق كل الأشياء التي تحبونها في هذا العالم، لأن الصمت يخيفني، إني خائف، أحسّ أنّ يدا تمتدّ في الظلام، لتمسكني من رقبتي وتخنقني!

من الأحسن أن نصلّي..

ملأ صوت خادم الكنيسة فضاء الزنزانة بالخضوع المسيحي. همس كارجفال، المعروف في حيّه بكونه ليبرالي و«آكل رهبان»:

فلنصلّ..

لن ينفعنا شيء، عارض الطالب، فلنحاول، عوض أن نصلّي، كسر هذا الباب، والذهاب نحو الثورة.

احتضنته يدان، لا يراهما، بشدّة، وأحسّ على وجنته لحية صغيرة تبللها الدموع:

يا معلّم مدرسة القديس يوسف، يمكنك أن تموت مطمئنًا، أيها العجوز. لا شيء يمكن أن يضيع إلى الأبد في بلد يتحدث فيه الشباب هكذا.

الصوت الثالث:

تكلموا، واصلوا الكلام، واصلوا الكلام!

(٢٩)

المجلس الحربي

يتضخم ملفّ محاكمة كناليس وكارجفال، بتهمة التمرّد، والعصيان والخيانة، مع كل ظروف التشديد، بحيث لا يمكن قراءة كل الأوراق التي يحويها في مرّة واحدة. أربعة عشر شاهدا أجمعوا، تحت القسم أنهم كانوا موجودين في مكانهم الاعتيادي، ليلة ٢١ ابريل، بباب الرحمان، حيث ينامون كل ليلة لأنهم فقراء، أقسموا أنهم رأوا الجنرال أوزيبيو كناليس والمحامي أبال كارجفال ينقضّان على عسكري، عرفوا بعد التثبت أنه العقيد باراليس سوريانتي، وخنقاه، رغم المقاومة الشديدة التي أبداها هذا الأخير، الذي قاوم كأسد، دون أن يتمكن من استعمال سلاحه، لأنه هوجم، فجأة، بقوّة أكبر منه. وقد صرّحوا، أيضاً، أن المحامي كارجفال قال، بعد انتهاء الجريمة، متوجها للجنرال كناليس: «الآن، بعد تخلّصنا من *الرجل ذي البغلة الصغيرة*، لن يرى القادة العسكريون أي مانع من تسليم أسلحتهم والاعتراف بك قائدا أعلى للقوات المسلّحة. فلنسرع، لأن النهار سيطلع، ولنحمل البشرى للمجتمعين في منزلي، حتى نبدأ بإيقاف رئيس الجمهورية، ثم تكوين حكومة جديدة».

لا يمكن لكارجفال أن يعيد القراءة لأن كل صفحة في الملف تخفي له مفاجأة جديدة. بل تعطيه الرغبة في الضحك. لكن التهم كانت أخطر من أن تتيح له فرصة الضحك. ويواصل القراءة. كان

يقرأ على ضوء نافذة تفتح على ساحة ضيقة، في غرفة صغيرة ليس فيها أي أثاث، خاصة بالمحكومين بالإعدام. الليلة يجتمع مجلس الحرب للضباط الجنرالات الذين سيحكمون في القضية. ، وقد ترك هنا بمفرده مع أوراق الاتهام كي يحضّر دفاعه. لكنهم انتظروا اللحظة الأخيرة. كان يرتعش. كان يقرأ دون أن يفهم أو يتوقّف. يعذّبه الظل الذي ينهش المخطوط، رماد مبلّل يتفتت ببطء بين يديه. لم يتمكن من قراءة الشيء الكثير. الشمس بدأت بالغروب وأصبح الضوء غائما، وأفقده رعب نجم يتفجر القدرة على القراءة. السطر الأخير، كلمتان، قاعدة، تاريخ، الصفحة.. يحاول رؤية رقم الصفحة سدى. انتشر الليل على الأوراق كلطخات الحبر، وارتمى، منهكا على الملف، كأنه عوض أن يقرأه، علقوه بعنقه قبل أن يلقوا به في هوّة سحيقة. سلاسل سجناء الحق العام ترنّ على طول الساحات الضائعة بينما، على البعد، تسمع الأصوات المخنوقة للسيارات في شوارع المدينة.

إلهي، إنّ لحمي المتجمّد أكثر حاجة للدفء، وعيني أكثر حاجة للنور من كل الناس المجتمعين في نصف الأرض الذي ستضيئه الشمس بعد حين. لو يعلمون بمصيبتي، لكانوا أكرم منك، إلهي، وأرجعوا لي الشمس حتى أنهي القراءة..

يعدّ الأوراق التي لم يقرأها، باللمس، ويعيد العدّ. واحد وتسعون. ويمرّر طرف أصابعه، ويكرّر تمريرها على وجه الأوراق، بحباتها الكبيرة، محاولا، في قمة يأسه، أن يقرأ مثل العميان.

تم نقله البارحة إلى القسم الثاني للشرطة إلى السجن المركزي، مع انتشار كبير للقوات، داخل سيارة مغلقة، أثناء الليل، رغم ذلك كان سعيدا جدّا أن يرى نفسه في الشارع، أن يسمع نفسه في

الشارع، لدرجة أنه شعر للحظة أنهم يرجعونه إلى منزله: تذوب الكلمات في فمه مرّة بين الدغدغة والدموع.

وجده العساكر ووثيقة الاتهام بيده تراب الشوارع الندية بين شفتيه. نزعوا منه الأوراق، ودون أن يوجهوا له كلمة واحدة، دفعوه نحو القاعة حيث يجتمع المجلس الحربي.

ولكن، سيدي الرئيس، كيف يمكنني أن أدافع عن نفسي، إذا لم أُعْطَ حتى الوقت، لقراءة عريضة الاتهام؟

ليس لنا أي خيار، أجاب الآخر، الآجال القانونية قصيرة، والساعات تمرّ، والقضية مستعجلة، لقد وقع جمعنا لنقوم «بالوشم».

كل ما وقع بعد ذلك كان بالنسبة لكارجفال حلما. نصف طقوس، نصف تهريج. كان الممثل الرئيسي، وينظر إليهم جميعاً من أعلى أرجوحة الموت متأثرا بالفراغ الرهيب الذي يحيط به. لكنه لم يكن خائفا، لا يحس بشيء، يمّحي خوفه تحت جلده المتيبّس. سيحسبونه شجاعا. طاولة المحكمة مغطاة بعلم، كما يوجبه القانون. الأزياء العسكرية. قراءة وثائق. قَسَم. القانون العسكري مثل حجر على الطاولة. يحتل المتسولون أماكن الشهود. الأعرج، بوجه المخمور المبتهج، متيبّس، مسرّح الشعر، دون أسنان، لا يضيع أية كلمة مما يقال، أو حركة من حركات رئيس المحكمة. سلفادور النمر، يتابع المجلس بوقار غوريلا، وهو يحكّ منخاره الأفطس، أو أسنانه المهترئة داخل فمه الذي يصل إلى أذنيه. الأرملة، طويل بعظام بارزة، عابس، يعوّج وجهه للحصول على ابتسامة جثّة يهديها لأعضاء المحكمة. لو لو، سمين، متغضّن، قزم، بنوبات ضحك أو غضب، حنان أو حقد. كان يغلق عينيه وأذنيه حتى يعلم الآخرون، أنه لا يريد أن يسمع أو يرى شيئاً ممّا يقع دون جوان ذي السترة

القصيرة غارق في سترته الطويلة التي لا يمكنه الاستغناء عنها، رقيق، مشغول، عليه سمات العائلات البرجوازية في ملابس نصف عتيقة. ربطة الفراشة ملطخة بمرق الطماطم، حذاء لامع مهترئ، أكمام مزيّفة، أضحوكة متحرّكة، ومع كل هذه الأناقة الخليقة بسيّد عظيم، يرتدي قبعة التبن، وهو أصمّ كجدار، يحصي دون *جوان*، الذي لا يسمع شيئا، الجنود المصطفين حول القاعة، ملتصقين بالجدران. بقربه يجلس *ريتشارد الموسيقي*، الرأس ونصف الوجه مغطيان بمنديل بمربعات كبيرة وألوان فاقعة، الأنف أحمر، اللحية كالمكنسة، ملوثة بالأطعمة. ريتشارد الموسيقي يكلّم نفسه، وعيناه ثابتتان على بطن الصماء البكماء التي تحكّ إبطها الأيسر من آثار القمل ولعابها يسيل على الكراسي. بعد الصماء البكماء يأتي البيغاء، أسود بأذن واحدة كإناء اللبن. بعد البيغاء تأتي القردة الصغيرة، نحيلة جداً، عوراء، بشوارب برائحة الحشية القديمة.

بعد قراءة عريضة الاتهام، قام المدعي العام، عسكري حليق الشعر، برأس تخرج من ياقة زيّ عسكري كبيرة جدّا، وطالب برأس المذنب. نظر كارجفال من جديد إلى أعضاء المحكمة، ليتثبت من أنهم عقلاء. الأول الذي وقع عليه نظره لا يمكنه أن يكون أكثر سكْرا. ترتخي يداه على العلم، سمراء كيدي فلاح يرقص في احتفال شعبي. بجانبه ضابط داكن اللون، ثمل أيضاً. بينما الرئيس الذي يمكن أن يكون نموذجا للمدمنين، يكاد يسقط من شدّة السكْر.

لم يستطع الدفاع عن نفسه. حاول أن يقول بضع كلمات، لكن سريعا ما اعتراه الإحساس المؤلم بأن لا أحد يسمعه. بالفعل، لا أحد يسمعه. الكلمات تتحلل في فمه كالخبز المبلّل.

الحكم المكتوب سلفا، لديه أهمية كبرى لأعوان التنفيذ، للذين

سيوقّعونه، دمى ذهبيّة للجزارة، تغطس من أعلاها إلى أسفلها في الإسهال، في نظر المتسولين بعيون الضفادع، الذين تلطّخ ظلالهم الأفعوانية الأسمنت البرتقالي بدوائر سود، في نظر العساكر الذين يمتصّون أوداجهم، في نظر الأثاث، الصامت، مثل أثاث منزل ارتكبت فيه جريمة.

أستأنف الحكم! قال كارجفال وهو يدفن صوته في عمق حنجرته.

لا تخرّف! صاح الرئيس، هنا لا يوجد أنف ولا استئناف، لا تحاول التقهقر لتحسن القفز!

ساعده كأس ماء كبير تمكّن من مسكه لأن قوته في يديه، من ابتلاع ما يحاول سدى إخراجه من جسمه: فكرة الألم، من كل النواحي الآلية للموت، وقع الرصاصات على العظام، الدماء على اللحم الدافئ، العيون المتجمّدة، الملابس الفاترة، الأرض. أعاد الكأس بخوف وأبقى يده ممدودة، إلى أن وجد قرار الحركة. لم يرد تدخين السيجارة التي أعطيت له. يقرص عنقه بأصابعه المرتعشة، مديرا نحو جدران القاعة المبيّضة بالجير، نظرات دون مدى، منزوعا عن الشحوب الأسمنتي لوجهه.

حُمل نصف ميّت، عبر ممرّ ضيّق تتخلله التيارات الهوائية، الفم تملؤه المرارة، والساقان مرتخيتان، ودمعة كبيرة في كل عين.

هيّا، أستاذ، اشرب قليلا، قال له عقيد بعيني مالك الحزين.

حمل الزجاجة، التي بدت له ثقيلة جدّا، إلى شفتيه، وشرب.

أيها العقيد، قال صوت في الظل، استعدّ غدا للمحاكمة، فلدينا أوامر بعدم إظهار أيّ تسامح مع السجناء السياسيين.

حشر بعد بضع خطوات، في زنزانة طولها ثلاث خطوات

وعرضها خطوتان ونصف، حيث يوجد إثنى عشر محكوما بالموت، لا يستطيعون التحرك لضيق المساحة، متراصّين الواحد بجنب الآخر، مثل سردين في علبة، يقضون حاجاتهم واقفين، ومتخبطين، إثر ذلك، في فضلاتهم. كان كارجفال الثالث عشر. بعد انصراف الجنود ملأ التنفّس المختنق لهذه الكتلة من الرجال المحتضرين صمت الكهف، الذي تقطعه، على البعد، صرخات مسجون.

فاجأ كارجفال نفسه لمرتين أو ثلاث وهو يحصي صرخات ذلك المسكين، المحكوم بالموت عطشا: اثنتان وستون!.. ثلاثة وستون!.. أربعة وستون!..

تدوّخه رائحة النتانة المحرَّكة، ونقص الهواء، يمضي، بمفرده يحصي صرخات السجين على طول هوّة اليأس الجهنميّة.

يروح لوشيو فاشكاز ويجيء، غير بعيد من هناك، خارج الزنازين الوبائية، أصفر تماما، الأظافر والعينان بلون أوراق السنديان. يسنده، داخل مصائبه، أمل الانتقام يوماً ما من جيناروودس، الذي يعتبره المسؤول الوحيد عن مأساته. يغذّي وجوده هذا الأمل البعيد، الأمل الأسود وقليل الحلاوة كدبس قصب السكر. كان مستعدا للانتظار دهرا بشرط أن ينتقم ـ كم من الليالي السود عشّشت في صدره ديدان الظلام ـ فقط، فكرة السكين التي تمزق الأحشاء وتجعل من الجرح فما مفتوحا، تضفي بعض الضوء على أفكاره المشحونة مرارة. اليدان متيبّستان من البرد، متجمّدا كدودة الطين الأصفر، يتلذّذ فاسكاز بانتقامه ساعة إثر ساعة. أقتله! أقتله! وكأنه يمسك خصمه، يسرّب يده في الظلمة، يحسّ بمقبض السكين المتجمّد ويرتمي على رودس كشبح يكرّر حركاته.

تهزّه صرخة السّجين:

Per favori l'eau! l'eau! ما ! ماء، ماء ماء Per Dio, per favori..

..Dio, per favori! ماء، ماء! ماء! ما.. ما.. ما..

يرتمي السجين على الأبواب، على الأرضية، على جدران.

ماء tineti!، ماء. . . Tineti! ماء، ماء!

يمرّ صيني من قرن لآخر ليداوي المرضى، وجه يحمل آثار الجدري، يمرّ كآخر علامة حياة. هل يوجد حقا هذا الكائن الغريب، نصف إلهي، أو هو مجرّد خبالي جماعي؟ الفضلات المحرّكة وصياح السجين تدفعهم للإغماء، أو ربما هذا الملاك المحسن مجرّد رؤيا خارقة؟

ماء Tineti! ماء، Tineti ماء! Per Dio, per favori، ماء، ماء، ماء، ماء!..

يأتي الجنود ويروحون دون توقّف، وهم يضربون الأرضية بكعوب أحذيتهم، وبينهم من يضحك ويردّ على السجين مقهقها :

أيها اللبناني، لماذا أكلت الدجاجة الخضراء التي تتكلم كالبشر؟

ماء، per favori ماء، per Dio ماء، ماء! Signori ماء، الرحمة!

يلوك فاسكاز انتقامه، وصرخات الإيطالي التي تترك في الفضاء أثرا للعطش، حين قطعت زخّة رصاص تنفّسه. أنهم يقتلون. أنها الثالثة صباحا.

(٣٠)

زواج في آخر رمق

هناك مريضة في حالة خطرة في الجوار!

من كل منزل تخرج عانس.

هناك مريضة في حالة خطرة في الجوار!

بوجهها العسكري وبحركاتها الدبلوماسية، تلك التي تعمل في «المائتان»، اسمها بيترونيلا، كانت تفضل أن يكون اسمها بارث. صديقة أخرى من رائدات «المائتان» تدعى سيلفيا مرتدية موضة القرن الماضي، إحدى معارف سيلفيا، تدعى أنغارسيا. بصدارها ـ من الأحسن أن نقول بحصنها ـ الملتصق بجلدها، بحذائها الضاغط على جلديّاتها وبسلسلة ساعتها المعلقة بعنقها كحبل المشنقة. بوجهها على شكل قلب، مثل وجه أفعى، بصوتها الخشن، قصيرة وجسم مليان، «مسترجلة»! كأنها قريبة أنغارسيا، أي جزء من فخذها! كثيرة الاهتمام بكوارث التقويم الفلكي، تبشّر بالمذنّبات، وبالمسيح الدجّال، وبزمن، تقول عنه النبوءات، أن الرجال سيتسلّقون الأشجار هربا من النساء الفاتنات اللاتي يلاحقنهم.

مريضة في حالة خطرة في الجوار! يا للصدفة الرائعة! لا يفكّرن هكذا، بل يكدن ينطقن به، يفرحن بكل حدث يجعلهن يسنّنن مقصّاتهن، لأن حدثا كهذا يلزمه من القماش ما يمكّن كل واحدة منهنّ أن تقصّ حسب قياسها.

استقبلتهن الأفعى.

أخواتي جاهزات، أعلنت التي تعمل في «المائتان»، دون أن تصرّح لأيّ شيء هن جاهزات.

بالنسبة للقماش، لاحظت سيلفيا، إذا لم يكن عندكم ما يكفي فبإمكانكم التعويل عليّ.

لقد قرأت دعاء لأرواح المطهر، في آخر صلاة. قالت أنغارسيا، وهي بالكاد تخرج كلماتها بسبب الصدار الذي يخنقها، العزيزة أنغارسيا التي إذا لم تعبق برائحة النفط الخام، فهي تعبق برائحة مرق لحم العجول.

يتكلّمن بصوت خفيض، محشورات في الدكان الخلفي، حذرات من خدش الصمت، الذي يحيط، كدواء، بسرير المريضة، ومن إزعاج السيد الذي يسهر ليلا نهارا قرب السرير. رجل جيّد جدّا. جيّد جدّا. اقتربن على أطراف أصابعهن من السرير لرؤية وجه السيد أكثر منه للاطمئنان على كاميليا، شبح بأهداب طويلة، وعنق نحيل، وشعر مشوّش، وبما أنهن يعتقدن بوجود عقرب تحت الحجر ـ ألا توجد عقرب تحت كل حجر؟ ـ لم يكففن عن استنطاق صاحبة الحانة. أنه خطيبها، خطيبها! خطيبها! «هكذا إذن؟ أنه خطيبها!» كل واحدة منهنّ تعيد الكلمة، إلا سيلفيا، التي غادرت سرّا حين علمت أن كاميليا ابنة الجنرال كناليس ولم تعد. «من الأحسن عدم الاختلاط بأعداء الحكومة. لا أقول أنه ليس خطيبها، وصديق السيد الرئيس، ولكنّي، أخت أخي، وأخي عضو في مجلس النواب، وبإمكاني توريطه. فليحفظني الله من ذلك!»

حتى في الشارع ظلّت تكرّر: «فليحفظني الله»!

لم يعر وجه الملاك أي انتباها للعوانس اللاتي لم يكتفين في حركتهن الرحيمة بالاطمئنان على المريضة، بل اقتربن أكثر لمواساة الخطيب. شكرهن دون أن يسمع كلماتهن. كلمات.. كانت روحه معلّقة بالتأوهات الآلية لكاميليا المحتضرة، بحيث لم يردّ على فيض حنانهنّ. صريع الحزن يحس جسمه متجمّدا. إحساس بالمطر وبتيبّس في أطرافه، نزاع مع أشباح قريبة ولا مرئيّة في فضاء أوسع من الحياة، حيث لا يوجد غير الهواء، غير النور، غير الظلّ، غير الأشياء.

قطع الطبيب تهويم أفكاره.

ماذا هناك، دكتور؟..

فقط، معجزة!

ستعود، أليس كذلك؟

لا تتوقّف صاحبة الحانة للحظة، ومع ذلك يبدو لها الوقت قصيرا. كانت لديها رخصة لغسل ملابس الجيران، فتنقعها في الصباح الباكر، ثم تحمل فطور فاسكاز - الذي لا تعرف أخباره - إلى السجن، عند العودة تغسل الملابس وتعصرها وتنشرها، وفي انتظار أن يجفّ تسرع إلى منزلها، لترتّبه، وتتفرّغ لأعمالها الصغيرة: تغيير ملابس المريضة، إيقاد الشموع للقديسين، حثّ وجه الملاك على أكل بضع لقيمات، استقبال الطبيب، الذهاب إلى الصيدلية، تحمّل إبر خادمات الكنيسة، كما تدعو العوانس، والتحرّش بصاحبة متجر الحشايا. «حشايا للخنازير!» تصيح من أمام منزلها كأنها تطرد الذباب بخرقة! «حشايا للخنازير!»

فقط، معجزة!

يعيد وجه الملاك كلمات الدكتور. معجزة، التواصل العبثي لما

هو زائل، انتصار الجزء الإنساني على المطلق العقيم. يحسّ برغبة الصراخ باتجاه الله كي يقوم بالمعجزة، بينما ينزلق الوجود عبر ذراعه، فائضا عن الحاجة، عدائيًا، غامضا، دون أي مبرّر وجود.

والكل ينتظر الانفصال من لحظة لأخرى. كلب يعوي، دقّة ناقوس من كنيسة الرحمة تجعل الجيران يرسمون إشارة الصليب، ويتساءلون بين تنهيدتين: «ارتاحت أخيرا.. لقد حضرت ساعتها، مسكين ذلك الخطيب!.. ماذا سنفعل؟ لا يمكننا فعل أي شيء. أنها إرادة الله! إنّنا لا شيء أمام عظمته!

نقلت بيترولينا هذه الكلمات لرجل شاخ محافظا على وجه طفل، أستاذ إنجليزية، وشذوذ آخر، ينادونه بتحبّب تيشر. كانت تريد أن تعلم إن كان بالإمكان إنقاذ كاميليا بوسائل سحرية، وتيشر يمكنه أن يعرف ذلك، لأنه بالإضافة لتدريس الانجليزية، يكرّس أوقات فراغه في التيولوجيا، والتواصل مع الأرواح، والسحر وعلم الفلك، والتنويم المغناطيسي، والعلوم الخفيّة، وإضافة إلى كل هذا فهو مخترع طريقة أطلق عليها: *خزّان السحر لاستخراج الكنوز المدفونة في المنازل المسكونة*. لا يمكن لتيشر أن يفسر ولعه بالماورائيات. في صغره كان لديه ميل للكهنوت، لكن امرأة متزوّجة أكثر قوّة منه وعلما حالت بينه وبين أمور الدنيا، فألقى الثوب قرب الأعشاب المهملة، لكنه احتفظ بالعادات الكنسية. ترك المدرسة الدينية من أجل معهد التجارة حيث كان بإمكانه التخرّج بامتياز لو لا أنه فرّ من أستاذ المحاسبة الذي أغرم به حدّ الهوس. فتحت له الميكانيكا ذراعيها الأسودين بالفحم، ميكانيكا الحدادة، عمل في مصنع قريب من بيته في تعهّد المنفاخ، لكنّه سريعا ما ترك العمل لأنه لم يتعوّد على العمل المرهق.. أي سبب يدفعه للعمل؟ هو ابن أخت وحيد لخالة فاحشة الثراء ترغب في دخوله إلى الكهنوت، تدفعه دفعا

لذلك: «عد إلى المدرسة الدينية، تقول له، ولا تبق متكاسلا هكذا، عد إلى الكنيسة، ألا ترى أن العالم من حولك يصيبك بالقرف، وأنك تقارب الجنون، وضعيف كجدي صغير؟ لقد جرّبت كل شيء، ولا شيء لاءمك: عسكري، موسيقي، مصارع ثيران؟.. وإذا لم ترد أن تصبح كاهنا كرّس اهتمامك للتدريس، أعط دروسا انجليزية، مثلا. إذا لم يختركَ الإله فاختر أنت الأطفال، الانجليزية أسهل من اللاتينية وأكثر جدوى، أن تعطي دروسا في الانجليزية، يعني أن يعتقد الأطفال أن الأستاذ يحسن هذه اللغة، حتى إذا لم يفهموا، في النهاية، من الأحسن ألّا يفهموا».

تخفض بيترولينا صوتها مثل عادتها وهي تضع يدها على قلبها.

خطيب، يعشقها، يعبدها، تيشر، بالرغم أنه اختطفها، فهو يحترمها، وينتظر أن تبارك الكنيسة اتحادهما الأبدي، لا نرى مثل هذا كل يوم..

وخاصة في أيامنا هذه، يا صغيري، أضافت وهي تدلف للغرفة بباقة أزهار، الكبرى من فتيات «المائتان» التي تبدو دائما وكأنها منحنية من فوق جسمها العالي.

خطيب يعشقها، يعبدها، سيكون موتها خسارة كبرى!..

قلت أن دكاترة الكليات عبّروا عن عجزهم عن افتكاكها من النعش؟

نعم، سيدي، لقد صرّحوا بعجزهم ثلاث مرات.

وتقولين أن معجزة فقط كفيلة بإنقاذها.

تخيّل.. الخطيب في وضعية تفطر القلب..

إذن! أنا لديّ المفتاح، سنحقّق المعجزة. لا يمكن أن نقاوم

الموت إلا بالحب، فقواهما متساوية، كما يقول نشيد الأناشيد. وإذا كان هذا الخطيب يعشقها، كما تؤكدين، أقصد، يحبّها بعمق، أقصد بقلبه وعقله، أقصد بفكرة الزواج بها، يمكنه أن ينقذها. طبقا لنظريتي الخاصّة بالتطعيم، فقط «سرّ الزواج» يكون فاعلا في هذه الحالة.

كادت بيترولينا ان يغمى عليها بين ذراعي *التيشر* .أقامت الدار رأسا على عقب، ذهبت عند صديقاتها، حرّكت *الأفعى* التي كلّفتها باستدعاء الكاهن. في نفس اليوم، تزوج كاميليا ووجه الملاك على عتبة المجهول. داعبت اليد اليمنى المحمومة للمحظيّ يدا طويلة، رقيقة، وباردة كقاطعة أوراق من الرخام، أثناء تلاوة الراهب لكلمات لاتينية مقدّسة. حضرت «المائتان» الاحتفال، أنغارسيا و*التيشر* يرتديان الأسود، عند الانتهاء صاح *التيشر*: *Make the another self, for love of me...*

(٣١)

حراسة من جليـــد

تلمع عند مدخل السجن حراب الحرس جالسين صفّين جنديّ مقابل جنديّ، مثل سفر في قطار مظلم. بين عربات كثيرة تمرّ، تتوقّف فجأة عربة، جسم الحوذي مائل إلى الخلف حتى يسحب بكل قوّته اللجام، وهو يكرّر لعنة التصقت بلسانه، متمايلا في كل الأنحاء كدمية القش. كاد يسقط على ظهره. صرّت على طول الجدار الزّلق والعالي، للبناء المرعب، عجلات العربة لاحتكاك الفرامل، ونزل رجل سمين يلامس الأرض بصعوبة بقدميه القصيرتين. بقي الحوذي بمفرده عندما أحس العربة تخفّفت من حمل رئيس المحكمة، وظل يضغط على سيجارته المطفأة بشفتيه اليابستين. ـ بمفردي مع الخيول، يا لها من سعادة! ترك اللجام لينتظر هناك، قرب حديقة أكثر خرابا من روح يهوذا، حين ركعت امرأة عند قدمي القاضي ورجته أن يسمعها.

أنهضي سيدتي، لا يمكنني سماعك هكذا، لا، لا أنهضي، أرجوك، دون أن يكون لي شرف معرفتك..

أنا زوجة الأستاذ كارجفال..

أنهضي..

بحثت عنك، سيدي، ليلا ونهارا، قاطعته، في كل ساعة، في

منزلك، في منزل والدتك، في مكتبك، دون أن أتمكّن من لقائك. أنت الوحيد الذي تعلم ما صار إليه زوجي، أنت الوحيد الذي تعلم، أنت الوحيد الذي يمكنك أن تقول لي أين هو؟ ماذا حدث له؟ قل لي، سيّدي إن كان لا يزال على قيد الحياة! قل لي سيّدي، أنه لا يزال حيّا! نهضت، دون أن ترفع رأسها، عنقها يقصمه الحزن، دون أن تتوقّف عن البكاء، قل لي سيدي، إن كان لا يزال حيّا!

بالفعل سيّدتي، مجلس الحرب الذي سيقرّر مصير زميلي دعي للاجتماع الليلة، بطريقة استعجالية.

آآآآه!

دغدغة الجرح بين شفتيها اللتين لم تستطع ضمّهما من شدّة الفرح. حيّ! استعادت أملها: مازال حيّا!.. وبما أنه بريء، حرّ..

لكن رئيس المحكمة أضاف، دون أن يغيّر سحنته المحايدة:

الوضع السياسي للبلاد لا يسمح للحكومة بالتسامح مع أعدائها تحت أي ظرف، سيدتي، لن أقول أكثر. قابلي السيد الرئيس واطلبي منه حياة زوجك الذي يمكن أن يحكم عليه بالموت ويرمى بالرصاص، حسب القانون، خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة.

.. آه! آه، آه!

القانون أعلى من الرجال سيّدتي، وإذا لم يعف عنه السيد الرئيس..

آه، آه! آه!

لم تتمكّن من الكلام، أشدّ بياضا من المنديل الذي تمزّقه بين أسنانها، بقيت واقفة في مكانها، متجمّدة، غائبة، تومئ، تضيع يداها بين أصابعها.

دخل القاضي من الباب المحفوف بالحراب. عادت الطريق التي أحياها لفترة ذهاب العربات وعودتها من التجوال في المدينة، يركبها رجل ونساء في أتمّ أناقتهم، عادت من جديد ملولة ومقفرة. قطار صغير خرج من زقاق بين الشّرر وأصوات الصافرة، ثم غاب، يعرج على السكّة.

آه، آه! آه!

لم تتمكن من الكلام، كلّابتان من الجليد يستحيل فتحهما تضغطان على عنقها، وجسمها ينزلق شيئاً فشيئا من كتفيها نحو الأرض، لم تعد سوى فستان فارغ برأس، ويدين وقدمين، تركض في أذنيها عربة وجدتها على الطريق. أوقفتها. تضخّمت الجياد، وهي تكوّر جسمها ورأسها لتتوقف، مثل الدموع. أمرت الحوذي أن يأخذها إلى مقرّ إقامة الرئيس بأسرع وقت ممكن، لكن سرعتها كانت شديدة لدرجة أنها لم تتوقّف عن المطالبة بالمزيد من السرعة رغم أن الجياد كانت تركض بأقصى سرعتها.. أسرع.. اللجام مطلق.. كان عليها أن تكون هناك.. الخيول التي يلسعها السوط تركض بجنون.. يجب أن تنقذ زوجها.. نعم، نعم، نعم، نعم، نعم! انحلّ شعرها.. ستنقذه تمزّق فستانها.. ستنقذه.. لكن العربة لا تتحرّك.. العجلات تدور دون أن تتقدم في محورها النائم.. تحسّ أن العجلات الخلفية بقيت في الخلف.. تحسّ أن العربة استطالت كمنفاخ آلة تصوير.. وصغرت الجياد شيئاً فشيئا.. نزع الحوذي منها السوط، لا يمكنه أن يتركها تواصل هكذا.. بلا، بلا! بلا،.. ولكن بلا، بلا!.. كلّا! كلا، كلا، ، بلا، بلا، بلا! نزعت خواتمها، ومشبكها وأقراطها، وسوارها، ورمتها في جيب الحوذي ورجته ألّا يوقف العربة. عليها أن تنقذ زوجها. لكنها لم تصل، تصل، تصل، لكنها لا تصل.. تصل، ترجو وتنقذه.. لكنها لا تصل.. حجارة

أخاديد، غبار، طين متيبّس، أعشاب، لكنها لاتصل. بقوا في مكانهم ثابتين، مثل أعمدة التلغراف، بل يمشون إلى الخلف، مثل الحقول غير المزروعة، مثل الأشواك، مثل النور الذهبي للغروب، مثل منعرجات الطرق والثيران الواقفة.

أخيرا عرّجوا نحو الإقامة الرئاسية، بين شريط من الطرق تتعرّج بين الأشجار والجداول. يخنقها قلبها. تتعرّج الطريق بين منازل صغيرة لقرية نظيفة ومقفرة. بدأت تعترضهم عربات عائدة من المقرّ الرئاسي: عربات بأربع عجلات، عربات بعجلتين وحصان واحد، عربات مغطاة، يركبها أشخاص متماثلين في الملابس والوجوه. الأصوات تتقدّم، أصوات العجلات على المعبّد، أصوات حوافر الجياد.. لكنهم لم يصلوا، لكنهم لم يصلوا.. يختلط بالذين يعودون بالعربات ـ بيروقراطيون تحت الطلب، ضبّاط سمان مكوّرون، بلباس أنيق ـ المزارعون الذين أسرعوا لنداء الرئيس الملحّ. أشهر وأشهر.. القرويّون بنعال كأكياس الجلد، معلمات المدارس اللاتي يتوقفن كل لحظة لاسترجاع الأنفاس، ـ يعشي أبصارهن الغبار، الأحذية متسخة، والتنانير مرفوعة ـ وصفوف الهنود، رغم أنهم متمدّنون، يفرحون بعدم فهم أي شيء. أنقذه، نعم، نعم، نعم، لكنهم لا يصلون! أولاً، الوصول قبل نهاية الجلسة، الوصول، الرجاء، الإنقاذ.. لكنهم لا يصلون! رغم أننا كنا أبعد، عند مدخل القرية، كان يجب أن يكونوا هناك، لكن القرية لا تنتهي. من هذه الطريق، عبرت تماثيل المسيح وعذراء الآلام، ذات خميس مقدّس. تنبح الكلاب منزعجة من زعيق الأبواق عند مرور الموكب أمام الرئيس الواقف في الشرفة تحت سرادق من الزرابي وأزهار الجهنمية. مرّ المسيح مهزوما تحت وطأة الصليب، أمام سيزار، ونحو سيزار استدار الرجال والنساء بإعجاب. الألم لا يكفي. البكاء

ساعات وساعات لم يعد يكفي. وليس كافيا أن تهرم عائلات ومدن من الحسرة، لتعميق الإهانة يجب أن تمرّ، أمام السيد الرئيس، صورة المسيح المحتضر، ومرّت، العينان محجوبتان برداء من الذهب، وهو عمل شائن، بين صفّين من الدمى، ومصحوبا بموسيقى الكفرة.

توقّفت العربة عند باب المقرّ الجليل. ركضت زوجة كارجفال نحو الداخل، عبر شارع من الأشجار المتداخلة. خرج ضابط ليمنعها من المرور.

سيدتي، سيدتي..

جئت لمقابلة السيد الرئيس..

السيد الرئيس لا يستقبل أحدا، اذهبي..

بلىٰ، بلىٰ، بلىٰ أنه يستقبل، نعم سيستقبلني، أنا زوجة المحامي كارجفال.. وواصلت طريقها، فارّة من العسكري الذي يلاحقها مذكراً إياها بالنظام. تمكنت من الوصول حتى المنزل الصغير المضاء بنور خافت في حزن الغروب.

سيعدمون زوجي رميا بالرصاص، أيها الجنرال!..

رجل طويل، أشقر، مليء بوشم الأوسمة، يتجوّل، ويداه خلف ظهره، في ممرّ البيت الصغير الذي يبدو كلعبة، كانت تتوجّه نحوه بأمل:

سيعدمون زوجي رميا بالرصاص، أيها الجنرال!

بالرغم من تربيته العالية، أجابها الجنرال وهو يزن كلماته:

السيد الرئيس لا يستقبل أحدا، أرجو أن تغادري من فضلك..

خسارة! أيها الجنرال!.. خسارة! أيها الجنرال، ما سيكون مصيري دون زوجي، ماذا سأصبح دون زوجي؟ لا أيها الجنرال، سيستقبلني، سأذهب، سأذهب أخبره بقدومي، تخيّل أنهم سيعدمون زوجي!

دقات قلبها تسمع تحت الفستان. لم يتركوها تركع، طبلة أذنها تطفو، مثقوبة بالصمت الذي وحده أجابها.

تتكسّر الأوراق اليابسة عند الغروب، كأنها تخاف من الريح الذي يؤرجحها. ارتمت على مقعد. رجال من الجليد الأسود. شرايين كوكبية. ترنّ شهقاتها كسجف منشاة، تقريبا مثل سكاكين. يسيل اللعاب من ركني فمها بتأوّهات وأنين. ارتمت على مقعد بلّلته دموعها كأنه حجر للسّن. لقد طردت شرّ طردة من المكان الذي يحتمل أن يكون فيه الرئيس. سبّب مرور دوريّة بردا في جسمها. تشمّ رائحة المرقاز (النقانق) والدبس والصنوبر المحترق. اختفى المقعد في الظل، كلوح في البحر. كانت تمضي من جهة لأخرى، في الظلمة، حتى لا تغرق مع المقعد، حتى تبقى على قيد الحياة. أوقفها الحراس المتمركزين بين الأشجار رفضوا أن يتركوها تمرّ مرتين أو ثلاث مرات، عديد المرات، هدّدوها، عندما لم تنصع، بأصوات فظّة ثم بأعقاب البنادق، حينما تعبت من الرجاء يسارا جرت يمينا، تعثّرت بالحجارة، تجرّحت قدماها بالأشواك. حرّاس آخرون من الجليد أغلقوا عليها الطريق. تترجّى، تقاوم، تمدّ يدها كمتسولة، وعندما لم يسمعها أحد أخذت في الركض في الاتجاه المعاكس..

كنست الأشجار ظلّا نحو عربة، ظلّ بالكاد وضع قدمه على درج العربة حتى عاد يترجّى للمرّة الأخيرة كمجنون. استفاق الحوذيّ،

وعندما أخرج يده من جيبه ليمسك اللجام، كاد يسقط التّحف التي يدفئها هناك. الانتظار لا ينتهي، يتلهّف لكسب رضا مينغا. خواتم، سوار.. لديه ما يرهنه. يحكّ قدما بأخرى، أنزل قبّعته على عينيه وبصق. من أين يمكن أن يخرج هذا الكم من الظلمة والضفادع؟.. عادت زوجة كارجفال إلى العربة كمنوّمة، جلست وأمرت الحوذي أن ينتظر قليلا، ربما فتحوا الباب؟.. نصف ساعة.. ساعة..

العربة تسير دون صوت، إمّا أنها صمّاء أو أنهم لا يزالوا واقفين.. تنزل الدرب في هوّة لتصعد بعد ذلك في مرتفع كصاروخ بحثا عن المدينة. الجدار المظلم الأول. الدار البيضاء الأولى. في حفرة جدار إعلان «أون وفروف».. *تحسّ أن كل شيء يلتحم بألمها.. الهواء.. كل شيء.. في كل دمعة مجموعة كواكب.. تسقط من السماء آلاف حشرات من الندى تخرج من القرميد لتنزل على الرصيف الضيّق.. توقّف دمها عن الدوران.. كيف حالكم؟ أنا في حالة سيئة!.. وغدا، كيف سيكون حالك؟ مثل اليوم.. مثل اليوم.. كانت تسأل وتجيب.. وأسوء، بعد غد..*

وزن الأموات يجعل الأرض تدور ليلا، وفي النهار وزن الأحياء.. عندما يفوق عدد الأموات الأحياء يصبح الليل أبديّا، لن تكون له نهاية، سينقص وزن الأحياء كي يعود الفجر.

توقفت العربة. الطريق يواصل طريقه، لكن ليس من أجلها، التي تقف أمام السجن، حيث، ستمشي خطوة خطوة، لتلتصق بالجدار. لم ترتدِ ثوب الحداد بعد، لكنها بدأت تحسّ لمسات الخفافيش.. خوف، برد، قرف، سيطرت على كل شيء للوصول إلى الجدار الذي ردّد صدى زخّة الرصاص.. في النهاية، بما أنها وصلت هنا بدا لها إعدام زوجها مستحيلا، هكذا، هكذا بزخّة رصاص،

بأسلحة، رجال مثله، أناس مثله، بعينين، بفم، بيدين، بشعر فوق الرأس، بأظافر في الأصابع، بأسنان في الفم، بلسان، بغلصمة.. لا يمكن لرجال بهذا الوصف أن يطلقوا عليه النار، رجال لهم نفس لون البشرة، نفس اللهجة، نفس طريقة الرؤية والسمع، والنوم، والنهوض، والحبّ، وغسل الوجه، والأكل، والضحك، والمشي، لهم نفس المعتقدات ونفس الشكوك..

(٣٢)

السّيد الرّئيس

عندما دُعي على جناح السرعة، للمنزل الرئاسي، انحنى وجه الملاك، بعناية على كاميليا، مرونة النظرة القلقة، أنسنة المظهر البلوري للعين، ومثل زاحف خائف، انكمش حول عدم اليقين الذهاب أو عدمه، السيد الرئيس أو كاميليا؟ كاميليا أو السيد الرئيس؟

مازال يحسّ الدفع الحميم لصاحبة الحانة، ونبرة صوتها المترجّية. أنها فرصة للتدخل لصالح فاسكاز. «اذهب، وسأبقى هنا للعناية بالمريضة..» تنفّس في الطريق بعمق. ركب العربة واتجه إلى المنزل الرئاسي. اهتزاز الحوافر على الشارع المبلّط، التدفّق السائل للعجلات. القـ.. فل الأحـمر.. الخليـ. ية.. البر.. كان.. يتهجّى بعناية أسماء المغازات، القراءة ليلا أحسن منها نهارا. الغادي.. لات.. السك.. ـة الحديـد.. ية.. الدجـا ـ جة وفـر ـ اخها.. يتعثّر نظره، أحيانا، بأسماء صينيّة: لون ـ لي ـ لون، وشركاؤه.. كان سي شان.. ف وكان يان.. شون شان لو.. ساي يون ساي.. يواصل التفكير في الجنرال كناليس. لقد دعوه ليعلموه بالأمر.. مستحيل!.. لماذا مستحيل؟.. ألقي القبض عليه وقتل، أو.. لم يقتل، لكنهم أرجعوه مكبلا بالأغلال.. سحابة من الغبار ظهرت فجأة. تلعب الريح مع العربة لعبة صراع الثيران، فكل شيء ممكن! في الريف

تركض العربة أسرع، مثل جسم ينتقل من حالة الصلابة إلى حالة السيولة. وضع وجه الملاك يديه المتشنجتين على ركبتيه وتنهّد. يضيع صوت العربة بين آلاف أصوات الليل الذي يتقدّم بطيئا، هادئا، قديما، تراثيّا. اعتقد أنه سمع طيران عصفور. كانوا يتجاوزون عددا من البيوت. كلاب شبه ميّتة تنبح.

كان مساعد سكرتير الحرب في انتظاره على باب مكتبه، ودون أن يعلم بوصوله ـ فقط الوقت اللازم لمصافحته، وأن يضع على حافة العمود سيجار هافانا الذي كان يدخّنه ـ وقاده إلى مسكن السيد الرئيس.

ألا تعلم، أيها الجنرال ـ أمسك وجه الملاك مساعد السكرتير من ذراعه ـ لماذا يريدني السّيد؟..

لا، دون ميجاليتو، لا أعلم.

الآن، يعلم السّبب. قهقهة قصيرة تكرّرت مرّتين أو ثلاث أكّدت له ما أوحى به جواب المساعد المبهم، رأى من عتبة الباب غابة من القوارير على طاولة مستديرة، وصحونا من اللحم البارد، ومرقا وتوابلَ. الكراسي غير مرتّبة، بعضها على الأرض، تكمل اللوحة. النوافذ ببلورها الأبيض المعتم، بتيجان حمراء، تلعب بنقر الضوء الذي يصلها من مصابيح الحدائق. الضبّاط والجنود يحرسون على أتمّ الاستعداد، ضابط عند كل باب، وجندي عند كل شجرة. يتقدّم السيد الرئيس من عمق الغرفة، والأرض تسير تحت قدميه والمنزل فوق قبّعته.

سيدي الرئيس! حيّا المحظيّ وتقدّم ليكون في خدمته، عندما قاطعه.

ني.. ني.. مار.. رف.. ني.. ني.. مار.. رف!..

السيد الرئيس، يتكلّم عن الإلهة!

اقترب السيد الرئيس من الطاولة متقافزا دون أن يعير اهتماما بالمديح الذي ألقاه المحظيّ بخصوص مينارف، وصاح:

هل تعلم، يا ميجال، أن الذي اكتشف الكحول، كان يبحث عن إكسير الحياة الأبدية؟

لا ، سيدي الرئيس، لم أكن أعلم ذلك. أسرع المحظيّ بالإجابة.

غريب، لأن ذلك في «سويت ماردن»..

غريب، أعتقد ذلك، لأن رجلاً بثقافة موسوعية مثل السيد الرئيس الذي يعتبر، بصدق، واحد من أهمّ رجال السياسة في العالم في الوقت الراهن، ولكن بالنسبة لي أنا..

غطى السيد الرئيس عينيه تحت جفنيه حتى يفرّ من الرؤية المقلوبة للأشياء التي تقدّمها له الكحول في تلك اللحظة.

آه. أعرف الكثير، أنا!

قال ذلك وهو يسقط يده في الغابة السوداء لقوارير الويسكي، وملأ كأسا لوجه الملاك.

اشرب، ميجال..

قطعت غصّة كلماته، شيء ما معقود في حلقه، يضرب صدره بقبضته، كي تمرّ الأزمة، تشنج عضلات عنقه النحيل، وانتفخت العروق، وبمساعدة المحظيّ الذي سقاه ماء غازيّا، استعاد القدرة على الكلام يقطعه التجشؤ.

آه! آه! آه! آه! انفجر الآخر في قهقهة، وهو يشير إلى وجه

الملاك، آه! آه! آه! آه! حكم الإعدام.. وقهقهة بعد أخرى، حكم الإعدام، آه! آه! آه! آه!..

شحب المحظيّ، يرتعش في يده كأس الويسكي التي رفع بها نخبا.

سيّدي..

السيد الرئيس يعرف كل شيء، قاطعه سعادته. آه! آه! آه! آه! حكم الإعدام، وبنصيحة من معتوه، مثل كلّ العرّافين.. آه! آه! آه! آه!

ضغط وجه الملاك على الكأس كأنها فرامل، حتى لا يصرخ، حتى يشرب الويسكي، احمرّت الدنيا في عينيه، كاد يهجم على السيد ويحشر له قهقهته التعيسة في حلقه، نار دم مليء بالكحول. لو مرّ فوقه قطار لآلمه أقل من ذلك. قرف من نفسه. يبقى الكلب المدرَّب، الذكيّ، راض بحصّته من القذارة، بطبيعته التي تحفظ حياته. ابتسم حتى يخفي امتعاضه، في عينيه المخمليّتين يرتسم الموت، مثل مسموم ينتفخ وجهه شيئاً فشيئا.

يلاحق سيادته ذبابة.

ميجال، هل تعرف لعبة الذبابة؟

لا سيدي الرئيس..

آه! صحيح أنك.. آه! آه! آه!.. حكم الإعدام!.. أوه! أوه! أوه! أوه!.. هيه! هيه! هيه! هيه! هيه!.. أوه! أوه! أوه! أوه! أوه!.. أووه! أووه! أووه!

مواصلا قهقهاته، يتابع الذبابة التي تروح وتجيء في كل اتجاه، وأهداب قميصه خارجة، سرواله مفتوح، خيوط الحذاء منحلّة، لعابه سائل، وعيناه مخطّطة بلون صفار البيض.

ميجال، قال وقد توقّف لاهثا، دون أن يتمكّن من إمساكها، ليس هناك أكثر تسلية من لعبة الذبابة وتعلّمها سهل: الشيء الوحيد الذي نحتاجه هو الصبر. في قريتي حيث ولدت، كنت أتسلّى عندما كنت صغيراً بالمقامرة في لعبة الذبابة.

قوّس حاجبيه وقطّب جبينه، وهو يتحدّث عن مسقط رأسه، استدار نحو خريطة الجمهورية، التي كانت وراءه، وضرب بقبضته اسم قريته.

نظرة مرتدّة نحو الطرق التي ركض عبرها، صغيرا، فقيرا، مظلوماً، التي عبرها مراهقا، مكرها على كسب قوته، في حين يقضي أبناء العائلات وقتهم من قصف المجون. رأى نفسه في الدرك الأسفل بين أقرانه، معزولا عن الجميع، على ضوء الشمعة التي تمكّنه من الدراسة بينما تنام أمّه على فراش حقير وريح برائحة التيوس وبأبواق التيارات الهوائيّة تجول في الشوارع المقفرة، ثم رأى نفسه، بعد ذلك في مكتب المحامي الحقير، بين الجزارين والمقامرين، والكرّاشين، ولصوص المواشي، محتقَرا من زملائه الذين يشرفون على قضايا مهمّة.

يفرغ الكؤوس واحداً تلو الآخر، وفي وجهه البرونزي، تلمع عيناه بانتفاخ، وعلى أطراف أصابعه تنم وأظافره في أنصاف أهلّة سود.

جحودون!

يسنده المحظيّ من ذراعه. يُجيل سيادته نظره المليء بالجثث، في القاعة التي تسودها الفوضى وكرّر:

جحودون! وأضاف بصوت مهموس، أحبّ، وسأحبّ دائماً باراليس سوريانتي. كنت سأجعله جنرالا، لأنه داس على مواطنيّ،

لأنه أخضعهم وأذلّهم، ولولا وجود أمي، لأفناهم ليثأر لي عن كل ما الومهم عليه والذي لا أحد يعرفه غيري.. جحودون!.. ولن أقبل أبداً أن يقتل، في الوقت الذي يتآمرون ضدّي، وينخلّى عني أصدقائي، ويتكاثر أعدائي و.. لا! لا! لن يبقَ من ذلك الباب حجر..

تنزلق الكلمات على شفتيه مثل سيّارات على طريق زلقة. يستند على كتف المحظيّ، ويده متشنجة على معدته وصدغه ضاجّ، عيناه وسختان، تنفّسه بارد، ولم يلبث أن تقيّأ سائلا برتقاليا. أسرع مساعد السكرتير وأحضر وعاء مرصّعا بأسلحة الجمهورية، ومعاً جرجراه نحو السرير، بعد الرشّة التي تلقاها المحظيّ على جسمه.

كان يبكي ويكرّر:

جحودون! جحودون!..

أهنّئك، دون ميجاليتو، أهنّئك، همس المساعد، وهما يخرجان. أمر السيد الرئيس أن ينشر خبر زواجك في الصحف، وجعل نفسه على قائمة الشهود، وعندما عبرا الممرّ رفع المساعد صوته مواصلا: ورغم ذلك لم يكن سعيدا في البدء. قال لي، صديق باراليس سوريانتي لا يحق له أن يفعل ما فعله ميجال، كان عليه في كل حال أن يستشيرني قبل الزواج بابنة أحد أعدائي، كانوا يطالبون برأسك، دون ميجاليتو، كانوا يريدون رأسك.. بالطبع، حاولت أن أفهمه أن الحبّ دنيء، ماكر وكذّاب.

شكرا جزيلا، أيها الجنرال.

يا لك من داهية! واصل الجنرال ببهجة، وواصل بين ضحكتين، وهو يدفع ميجال نحو مكتبه بألفة: تعال، تعال وانظر الصحيفة! لقد طلبنا صورة زوجتك من عمّها خوان. جيّد جداً يا صديقي، جيّد جدّا!

غرز المحظيّ أظافره في الصحيفة الرديئة. إضافة إلى الشاهد الرئيسي يوجد المهندس دون خوان كناليس وأخوه خوزي أنطونيو.

«زواج في العالم الراقي: تمّ مساء أمس زواج الرائعة كاميليا كناليس والسيّد ميجال وجه الملاك. العروسان..» من هناك نزلت عيناه لقائمة الشهود. «تمّ الزواج القانوني بشهادة سم والسّيد الرئيس الدستوري للجمهورية، الذي وقع الاحتفال في منزله، وشهادة السادة وزراء الدولة، والجنرالات (تجاوز القائمة) وأعمام الخطيبة، المهندس دون خوان كناليس والدون خوزي أنطوني وحامل نفس اللقب.»

«*الوطنيّة*» كتب في الخلاصة، تزيّن أعمدتها اليوم بصورة الآنسة كناليس، وتتقدّم للعروسين بأحر التهاني وتمنيات السعادة.

لم يعد وجه الملاك يدري أين يضع عينيه.

«تتواصل معركة فاردون. نتوقّع خلال الليل هجوما يائسا للقوات الألمانية..» كفّ عن النظر لصفحة التلغراف، وعاد لقراءة المقال الذي نشر صورة كاميليا. الكائن الوحيد العزيز يدخل، أيضاً، إلى حلقة التهريج حيث الجميع يرقصون.

نزع مساعد السكرتير منه الجريدة.

لا تصدّق عينيك، أليس كذلك، يا للرجل المحظوظ..

ابتسم وجه الملاك.

ولكن، إنك في حاجة لتغيير ملابسك، خذ عربتي، يا صديقي..

شكرًا جزيلا أيها الجنرال..

أنها هناك، قل للحوذي أن يوصلك بسرعة، ويعود إليّ. تصبح

على خير، وتهاني الحارّة. آه! خذ الجريدة، كي تراها زوجتك، وبلّغ لها تهاني خادمها المتواضع!

أنا شاكر لجميلك، في كل شيء. تصبح على خير.

انطلقت العربة التي ركبها المحظيّ دون ضجيج، كظلّ مسحوب بجوادين من دخان. غناء الصراصير يغطّي وحدة الريف الذي يعبق برائحة الخزامى، الوحدة الدافئة لحقول بواكير الذرة، والمزارع المبلّلة بالندى الورديّ، صفوف حدائق الياسمين الفخمة.

نعم، لو واصل السخرية منه، سيخنقه، بأفكاره، مخفيا وجهه بكرسي العربة خوفا من أن يتكهّن الحوذيّ بما تراه عيناه: كتلة من اللحم المتجمّد تحمل الشال الرئاسي على الصدر، الوجه بأنف أعقف يابس، اليدان تغطيهما ياقة القميص، لا ترى إلا أطراف الأصابع، والحذاء المغطى بالدماء.

لا تتلاءم أفكاره الشرسة مع فخامة العربة. أراد أن يكون جامدا، جمود القاتل الذي يجلس في الزنزانة ليعيد تكوين جريمته، جمودا ظاهريا، خارجيّا، تعويضا ضروريا للعاصفة الداخلية. يحسّ وخز دمائه تحت جلده. مدّ وجهه نحو الليل الرطب، وهو يمسح فيء السيّد بمنديل مبلّل بالعرق والدموع.

«آه! ـ كان يبكي ويلعن من شدّة الحنق ـ لو أستطيع أن أتطهّر من قهقهاته التي تقيّأها على روحي!»

تجاوزت عربة يركبها ضابط، عربته وهي تحتكّ بها. تغمز السماء بعينيها فوق لعبة الشطرنج الأبدية. تركض الجياد الطليقة نحو المدينة، مغلّفة بسحابة من الغبار. «كش الملكة!» قال وجه الملاك في نفسه وهو يتابع اختفاء براق الضابط الذاهب لجلب إحدى عشيقات السيد الرئيس، كأنه رسول من الآلهة.

برنّ، في المحطّة الرئيسية، أصوات إفراغ البضائع، بين عطاس القاطرات، المدخّنة. تمتلئ الطريق بوجود زنجيّ متكئ على عمود أخضر لمنزل ذي طوابق، بالخطى غير الثابتة للسكارى، وأرغن صغير يعلّقه الرجل بحبل في عنقه، كقطعة سلاح بعد الهزيمة.

(٣٣)

النقاط على الحروف

تهيم أرملة كارجفال من منزل لمنزل، ولكن يقع استقبالها، في جميعها، ببرود، دون أن يجرؤوا في بعضها أن يعبّروا عن الألم الذي سببه موت زوجها، خشية أن يتهموا بملاطفة عدوّة للدولة، دون ذكر البيوت التي تطل الخادمات من النوافذ صارخة: «من تريدين؟ آه! السيد والسيدة خرجا..»

الجليد الذي تُستقبل به تذيبه في منزلها. تعود لتبكي، منهوكة القوى، أمام صور زوجها، دون أية صحبة أخرى غير طفل صغير وخادمة صمّاء لا تكفّ عن القول للطفل: «حب الأب أمر لا يعوّض»، وببغاء يكرّر دون انقطاع: «ببغاء ملكي من البرتغال، يرتدي الأخضر، دون نصف ريال، مدّ ساقك، أيها الببغاء! صباح الخير، أيها المجاز! ببغاء، ساقك! الغربان في غرفة الغسيل. رائحة الخرق المحروقة. مباركة القديسة، سرّ القداس المبارك، الملكة الملائكة الطاهرة، العذراء المخلوقة دون لطخة الخطيئة الأصلية.. خسارة!.. خسارة!.. «خرجت لتجمع تواقيع لعريضة التماس للسيد الرئيس كي يعطوها جثة زوجها، لكنها لم تجرؤ على الكلام في أي مكان: يستقبلونها بغير لطف، تحت ضغوط عديدة، بين السعال المصطنع والصمت الثقيل، لترجع إلى بيتها وهي تخفي تحت شالها الأسود، الورقة العذراء إلا من توقيعها.

يديرون رؤوسهم كي لا يحيّونها، يستقبلونها على عتبات البيوت، دون الصيغة العادية: «ادخلي، أرجوك»، يجعلونها تحسّ أنها مصابة بمرض لا مرئيّ، أسوء من الفقر، أسوء من الكوليرا، أسوء من الحمى الصفراء، ورغم ذلك تمطر «المجهولات»، كما تقول الخادمة الصماء كلما وجدت رسالة تحت الباب الصغير للمطبخ الذي يفتح على درب مظلمة، غير مطروقة، بخط مضطرب، وضعت تحت غطاء الليل، وخلالها تنعت بالقديسة، الشهيدة، الضحيّة، مع تمجيد زوجها، مع وصف رهيب ودقيق لجرائم العقيد باراليس سوريانتي.

ظهرت ذات صباح، رسالتان دون توقيع. حملتهما الخادمة وهي تمسكهما بحافة فوطتها لأن يديها مبللتان. تقول الأولى:

سيدتي، ليست الطريقة المثلى لأظهر لك ولعائلتك التعيسة، عميق تعاطفي، والاحترام الذي أكنّه لزوجك، المواطن المحترم الأستاذ الدّون أبال كارجفال، لكن اسمحي لي أن يكون الأمر هكذا من باب الحرص لأن هناك أشياء لا يمكن أن نكتبها. يوماً ما سأعرّفك باسمي الحقيقي. كان أبي أحد ضحايا العقيد باراليس سوريانتي، الرجل الذي تنتظره ظلمات جهنّم، جندي مرتزق حقيقي، ستنتقل أعماله السيّئة إلى خَلَفه. لو قرّر أحدهم كتابة خطاياه لغمس ريشته في سمّ ثعبان. منذ سنوات عديدة، اغتال ذلك الوغد أبي في طريق معزول. لم نكتشف شيئا، وكان يمكن ألّا نعرف بالأمر لولا شخص لا نعرفه، أخبرنا بالتفاصيل عبر رسالة. أجهل إن كان زوجك، الرجل المثالي الذي يملك، تمثالا في قلوب المواطنين، هو من ثأر لضحايا سوريانتي (لأن هذا الموضوع تدور حوله أحاديث عديدة)، لكنني أحسست أن من واجبي أن أبرهن لك عن تعاطفي وأؤكد لك أننا نبكي جميعاً، معك، فقدان رجل خلّص

الوطن من أحد قطّاع الطرق الموسّمين الكثيرين، الذين بدعم من ذهب شمال أمريكا، جرّحوا هذا الوطن، وجرجروه في الوحل.

أقبّل يديك.

فارس كلاترافا».

جوفاء، مأتميّة، بكسل داخلي يشلّها في سريرها ساعات طوال، ممدّدة كجثّة، أحيانا أقل حراكا من جثة، لا تتجاوز حركتها الصوان، المغطى بالأشياء الضرورية جدّا حتى تتلافى النهوض، وبعض الأزمات العصبية التي تنتابها عند فتح الباب، أو الكنس إصدار أصوات بقربها. الظلمة، الصمت، والأوساخ تعطي شكلا لاستسلامها، لرغبتها في الإحساس أنها وحيدة، مع ألمها، لذلك الجزء الذي مات فيها مع موت زوجها، والذي يتملّكها جسما وروحا.

«سيدتي الغالية، بدأت تقرأ لنفسها بصوت مرتفع الرسالة المجهولة الثانية، علمت من بعض الأصدقاء أنك ألصقت أذنك لجدار السجن ليلة إعدام زوجك. لو أنك سمعت وعددت الزّخات، تسع رشّات، فإنك لن تعلمي أيّ منها اختطفت روح المحامي كارجفال من دنيا الأحياء. فليرحمه الله. باسم مستعار، لأن وقتنا الحاضر لا يدفعنا للثقة في الأوراق، وليس دون تردّد، لأني أعرف الألم الذي سأسبّبه لك، قرّرت أن أعلمك بكل ما أعرف عن هذا الموضوع، لأني كنت شاهدا على هذه المجزرة. أمام زوجك يسير رجل نحيل، نحاسي، يكاد شعره الأبيض يخفي جبهته. لم أستطع أن أعرف ولن أعرف اسمه. عيناه تغوران عميقا، ويحتفظان رغم الألم الذي تفضحه دموعه بطيبة كبيرة، ونقرأ من حدقتيه أنه كان رجلاً ذا روح نبيلة وكريمة. يتبعه المحامي متعثّرا، دون أن يرفع

عينيه عن الأرض، التي، ربما لم يكن ينظر إليها، الجبين مغطى بالعرق واليد على الصدر، كأنه يريد منع القلب من الانفجار. عند الوصول إلى الساحة ووجوده محاطا بالجنود، مسح عينيه بظهر يده، حتى يعي حقا بما يدور حوله. كان يرتدي كسوة صغيرة جدّا، يصل الكمّان إلى المرفقين والسروال إلى الركبتين. لباس قذر، قديم ممزّق، مثل كل التي يرتديها المحكومون، لأنهم يتركون ملابسهم لأصدقائهم الذين تركوهم في قبور الزنازين، أو يبادلونها بخدمات الحراس، عظم يستعمله كزرّ لقفل قميصه المهترئ. كان دون ياقة أو حذاء. وجود رفاق المحنة أعاد له شجاعته، عندما أنهوا تلاوة عريضة حكم الإعدام، رفع رأسه وأجال نظرته الموجعة على الحراب وقال كلمات لم تُسمع. حاول العجوز الذي بجانبه أن يتكلم لكن الضباط تقدموا وهدّدوه بسيوفهم، التي كانت في ضوء الفجر وفي الأيادي المرتجفة، تشبه الشعلات المزرقّة للكحول، بينما يصطدم بالجدران صوت يردّده الصدى: «من أجل الوطن!..» واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس، ستّ، سبع، ثمان، تسع رشّات تلاحقت. دون أن أدري كيف أحصيتها على أصابعي، ومنذ ذلك الحين ينتابني الإحساس الغريب أن لديّ إصبعا زائدا. يرتعد الضحايا ويغمضون أعينهم، كأنهم يهربون من الموت خبط عشواء. حجاب من الغبار يفصلنا عن تلك الكتلة من الرجال، الذين يحاولون، عند السقوط التشبث الواحد بالآخر، حتى لا يسقطون فرادى في الفراغ.. طلقات الرحمة تصفق مثل انفجار الرصاص المبلّل: متأخرة وسيّئة. زوجك كان له الحظ السعيد بالموت منذ الطلقات الأولى. في الأعلى نرى السماء الزرقاء، العصيّة، مختلطة بأصداء بالكاد تسمع لنواقيس وعصافير وجداول. علمت أن رئيس المحكمة قرّر أن يعطي قبورا للجثث..».

بلهفة، قلبت الصّفحة.. جثّ.. لكن الكلمة بقيت مبتورة، لم تكن هنا، ولا في بقية الصفحات، الرسالة توقفت هنا، تنقصها النهاية. أعادت قراء الرسالة سدى: فتشت المغلّف، بحثت في الفراش، رفعت المخدات، بحثت على الأرض، تحت الطاولة، تفتّش قالبة كل شيء، تنهشها رغبة معرفة مدفن زوجها.

في الساحة يثرثر الببغاء:

«ببغاء ملكي، من البرتغال، يرتدي الأخضر، دون نصف ريال، ها هو الأستاذ يضل! ياهوه! ببغاء ملكي، قالها لي الكذاب، لا أبكي، ولكني أتذكر!»

أبقت خادمة رئيس المحكمة أرملة كارجفال على الباب، كي تهتم بالمرأتين اللتين تتكلمان صياحًا في المدخل.

اسمعي، اسمعي، قالت إحداهما، قولي له أني لم أنتظره، صه! لست الهندية الخادمة كي تتجمّد مؤخرتي على هذا المقعد الحجري الذي يشبه وجهه! قولي له أني جئت لأعلم إن كان قرّر أن يعيد إلي العشرة آلاف بيزوس عن طيب خاطر، تلك التي أخذها مني من أجل امرأة من البيت الجديد التي لم تنفعني بشيء، لأنها يوم أخذتها أصابها إغماء. قولي له أني أقلقه للمرة الأخيرة وبأني سأشكو للرئيس.

هيّا بنا، دونا شون، لا تغضبي، نترك عجوز النحس هذه بوجه الخراف.

آنستـ. حاولت أن تقول العجوز، لكن الآنسة قاطعتها:

اخرسي!

أعيدي عليه ما قلت، كي لا يقول بعد ذلك أني لم أنذره في

الوقت المناسب. قولي له أن الدون شونا جاءت بصحبة فتاة، وانتظرتا، لكنه لم يأت، فأوصتا..

غارقة في تأملاتها، لم تنتبه أرملة كارجفال لما يدور حولها. شبيهة بميت في صندوق بغطاء بلوري، لباس الحداد لا يظهر إلا وجهها. لمست الخادمة كتفها.. كأن في أطراف أصابعها عنكبوت.. طلبت منها أن تدخل. دخلتا. تتكلم الأرملة بكلمات لا تنطق بأصوات واضحة، بل بهمسات قارئ مجهد.

نعم، سيدتي، اتركي لي الرسالة، وعندما يصل وهو لن يتأخر عن الوصول، يجدر به أن يكون هنا الآن، سأعطيه الرسالة وسأكلمه ليجد حلّا لما تطلبين.

نعم، أتوسّل إليك!

دخل لحظة خروج أرملة كارجفال، شخص يرتدي لباسا بنّيا، يتبعه جنديّ يحرسه، برشاش على كتفه، وخنجر في حزامه، جعبة الخراطيش مملوءة على خاصرته.

المعذرة، هل الأستاذ موجود؟ سأل الخادمة.

لا، ليس بعد.

وأين يمكنني انتظاره!

اجلس هناك، والجنديّ أيضا.

احتل السجين وحارسه المقعد الحجري الذي أشارت إليه الخادمة بامتعاض، في صمت.

تعبق الباحة برائحة النباتات العطرية البرّية. قطّ يتجول على السطح، زرزور سجين في قفص من القصب، يحاول الطيران. على البعد تسمع نافورة المياه، باهتة من فرط السقوط، منهكة.

حرّك رئيس المحكمة المفاتيح بعد إغلاق الباب وهو يعيدها إلى جيبه، اقترب من الجندي والسجين فنهض كلاهما.

جيناروردوس؟ سأل وهو يتشمّم الهواء، لأنه يحسّ دائماً عند عودته لمنزله أن هناك رائحة قذارة قط.

نعم، سيدي، في خدمتك.

هل يفهم حارسك الإسبانية؟

ليس جيّدا، ثم ملتفتا إلى الآخر أضاف: هل تفهم الكستينية؟

نصف أفهم.

إذن من الأحسن أن يبقى هنا، قرّر رئيس المحكمة، أنا سأتحدّث مع هذا السيد، ابق هنا، سيعود، سيتكلم معي.

توقّف رودس عند باب المكتب. أمره رئيس المحكمة بالدخول، وعلى طاولة مليئة بالكتب والأوراق بدأ يضع الأسلحة التي يحملها: مسدس، خنجر، قبضة حديدية، ودَبّوس.

أكيد أنهم أعلموك بالحكم.

نعم، سيدي، بالفعل..

ست سنوات، وثمانية أشهر، إذا لم أخطئ.

ولكن سيدي، لم أكن شريك لوشيو فاسكاز، ما قام به فعله دون مساعدتي. عندما استوعبت الأمر كان الدمية منحدرا على درجات الباب، تقريبا ميّتا. ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ لا شيء كان بإمكاني فعله. كان أمرا. حسب ما قال لي، كان أمرا.

في هذه الساعة، الله هو من يحاكمه..

نظر رودس من جديد إلى رئيس المحكمة، كأنه يتشكّك ممّا يؤكد له الوجه الكالح.

لم يكن رجلاً سيّئا.. همس رودس مرقّقا صوته حتى يكفّن ذكرى صديقه. تلقى قلبه الخبر بين دقتين، والآن يحّسه في دمائه.. ماذا يمكننا أن نفعل؟ لا شيء!.. فليغلّف بالحرير، لأنه كان عاريا حقا، وأن العمليات معه كانت تسير كأنها على الحرير.

عريضة الاتهام، تدينكما، هو كفاعل، وأنت كشريك.

في رأيي، هذا قابل للنقاش.

إن الدفاع، الذي يعرف رأي السيّد الرئيس، طالب بعقوبة الإعدام لفاسكاز والعقوبة القصوى لك.

المسكين! أنا على الأقل، بقي لي العينان لأبكي.

يمكنك أن تنجو تماما، لأن السيد الرئيس بحاجة لشخص مثلك، كان، نوعا ما، سجينا سياسيّا. المسألة تتعلق بمراقبة أحد أصدقائه، الذي يشكّ الرئيس لسبب ما أنه يخونه.

أنا تحت أمركم..

هل تعرف الدون ميجالو وجه الملاك؟

لم أره، سمعت به. أنه من اختطف ابنة الجنرال كناليس، حسب ما أعتقد..

هو بالذات ستعرفه، لأنه جميل جدّا؛ رجل طويل، بجسم متناسق، وعينين خضراوين، ووجه شاحب وشعر مسترسل، وبحركات أنيقة. وحش. الحكومة بحاجة لأن تعرف ما يفعل، أي أشخاص يخالط، أي أشخاص يحيّي في الشارع، والأماكن التي

يرتادها صباحاً ومساء وليلا، وكذلك زوجته: لأجل كل هذا سأعطيك توجيهات وأموالا.

تابع العينان الغبيّتان للسجين حركات الرئيس الذي سحب وهو يتكلم، ريشة من الطاولة وغمسها في محبرة كبيرة، أين تتربّع بين محبرتين، الإلهة تيميس. مدّ له الريشة مضيفا:

وقّع هنا، غدا سأمنحك حريتك، يمكنك من الآن تحضير أغراضك.

وقّع رودس. الفرح يرقص داخل جسمه كثور الكرنفال المحشو بالبارود.

لا تعلم مدى عرفاني بجميلك، سيدي، قال وهو يخرج. اقترب من الجندي وهو يكاد يقبّله، عاد إلى السجن وكأنه سيطير إلى السماء.

لكن الرئيس كان أكثر فرحا وهو ينظر إلى الورقة التي وقّعها رودس ونصّها المختصر يقول التالي: «أعترف، أنا الموقّع أدناه، أني استلمت من الدونا كونسبسيون كاموشين والمدعوّة «السنّ الذهبية»، مالكة مبغى «السّحر العذب»، مبلغ عشرة آلاف بيزوس من العملة الوطنية، لتعوّض جزءا مما سبّبته لي من ضرر نتيجة دفع زوجتي فدينا رودس للانحراف، حيث أنها استغلّت طيبتها واستغفلت السلطات لاستخدامها في بيت الدعارة دون أي ترخيص. جيناروورودس».

سمع خلف الباب صوت الخادمة:

هل يمكنني الدخول؟

نعم، ادخلي..

جئت لأرى إن كنت في حاجة لشيء ما، سأخرج للدكان، ولكن أخبرك أن امرأتين من الفاسدات جاءتا وأبلغتني إحداهما أنها ستشكو للرئيس إذا لم ترجع لها العشرة آلاف بيزوس.

وماذا أيضاً، قال القاضي متبرّما، وهو ينحني ليلتقط طابعا بريديا.

جاءت أيضاً امرأة ترتدي الحداد، أظن أنها أرملة ذلك الذي أعدم..

أيّهم؟

السيد كارجفال..

وماذا تريد؟..

المسكينة تركت هذه الرسالة، أظنّ أنها تريد أن تعرف أين دفن زوجها.

بينما يقرأ القاضي الرسالة المؤطرة بالأسود، بقرف، واصلت الخادمة:

أردت أن أقول لك أني وعدتها أن ألحّ عليك، والمسكينة ذهبت وكلها أمل.

قلت لك ألف مرّة أني لا أريدك أن تثرثري مع أيّ كان. يجب ألا نعطي الأمل، متى ستفهمين ذلك؟ في هذا المنزل، يجب أن يفهم الجميع، حتى القطة، يجب علينا ألّا نعطي الأمل، في أيّة حالة، لأي كان. لا نحافظ على وظيفة كالتي أحتلّها، إلا بالتطبيق الحرفي للأوامر، وقاعدة السلوك التي أملاها السيد الرئيس هي عدم إعطاء أمل لأي كان، يجب رفسهم جميعاً وسحقهم، لأن الأمر كذلك. عندما تعود تلك المرأة، ترجعين لها ورقتها مطوية وتقولين لها أنها ليست بحاجة لمعرفة مدفن زوجها.

لا تغضب، ستمرض. سأقول لها ذلك، فليحفظك الله، وييسّر أعمالك.

وخرجت حاملة الورقة وهي تجرجر ساقيها، وحفيف فستانها يتردّد خلفها.

عندما وصلت إلى المطبخ كمّشت الورقة وألقتها في النار. تلوت الورقة ككائن حيّ، وكوّنت شعلة خبت في لحظة وتحوّلت فوق الرماد إلى آلاف الديدان من الخيوط الذهبية. تتقدّم فوق الخزانة المليئة بقوارير البهار قطة كأنها تعبر قنطرة، قفزت فوق الموقد الحجري قرب العجوز، وبدأت تحتكّ ببطنها العاقر، وغرست عينيها الذهبيتين في قلب النار، التي أنهت التهام الورقة، بفضول شيطانيّ.

(٣٤)

نور من أجل العميان

تقف كاميليا وسط الغرفة، معتمدة من جهة على يد زوجها، وفي الأخرى على عكاز. الباب الرئيسي يفتح على بهو برائحة القطط والخشخاش، والنافذة تفتح على المدينة من حيث جاؤوا بها للنقاهة على كرسيّ محمول، والباب الصغير يفتح على غرفة أخرى صغيرة. رغم الشمس التي تحرق عينيها الخضراوين والهواء الثقيل الذي يملأ رئتيها كسلاسل، تتساءل كاميليا إن كانت هي التي تمشي. كانت قدماها كبيرتين، وساقاها طويلتين كعكاز البهلوان. تمشي، غائبة، خارج العالم، العينان مفتوحتان، بالكاد ولدت للتوّ، دون حضور. تغطي خيوط العنكبوت خطوات الأشباح. كانت ميّتة دون أن تكفّ عن الوجود، كأنها داخل حلم، تخلط بين ما كانت عليه في الواقع وما تعيشه الآن في الحلم. أبوها، البيت، مسقط رأسها، مربيتها شابيلا، ينتمون إلى وجودها الأوّل. زوجها، البيت الذي يقيمان فيه إلى الوجود الحالي. كانت هي، ولم تكن هي التي تمشي. إحساس من يعود إلى الحياة، في حياة جديدة. تتحدث عن نفسها مثل شخص يتكئ على عكاز الأسلاف، كانت متواطئة مع الأشياء اللامرئية، ولو تُركت بمفردها لضاعت في أخرى، غائبة، شعرها مصفّف، يداها على تنورتها الطويلة كعروس جديدة، والأذنان، يملؤهما الضجيج.

لم تتأخر في المشي، لكنها لم تكن أقلّ مرضا، ليست مريضة، بل منشغلة بتقييم ما يثقل عليها منذ أن وضع زوجها شفتيه على خدّها. كل شيء يثقل عليها. تتمسّك به إلى جانبها كشيء وحيد ينتمي إليها في عالم غريب. نتمتّع بالقمر على الأرض وعلى القمر، أمام براكين السحب المؤجلة، تحت النجوم، دودة ذهبيّة في أيكة فارغة.

أحسّ وجه الملاك أن زوجته ترتجف تحت الملابس القطنية البيض: ليس من البرد، ولا من أجل سبب يرتعش منه الناس، ولكن مثلما ترجف الملائكة.. أعادها إلى غرفتها، بخطى وئيدة. القناع الساخر المحفور في النافورة.. أرجوحة النوم الجامدة.. الماء الجامد مثل الأرجوحة.. أصص الزهور النديّة.. زهور الشمع.. الممرّات الموشّاة بضوء القمر..

ناما وهما يتحدّثان من غرفتين منفصلتين، وباب صغير يصل بين الغرفتين. جراح تغفو، البراعم تخرج محدثة صوت ورود تقطف، تسقط الأحذية كصوت مرساة، تنزع الجوارب عن اللحم كما الدخان من المدخنة.

يتحدّث وجه الملاك عن أدوات الحلاقة الخاصة به المرتّبة على طاولة صغيرة، قرب حاملة المناشف، حتى يخلق جوّا عائليا، غبيّا وحميما، في هذا المنزل الكبير الذي يبدو مهجورا، وحتى يبعد أفكاره عن الباب الصغير، الصغير كباب السماء الذي يفتح على الغرفة الأخرى.

ثم، ترك نفسه يسقط على الفراش محمولا بثقل جسمه، بقي مدة طويلة دون حراك، وسط الأمواج المتواصلة والغريبة، لما يربط بينهما ويتفكّك بقدريّة. يختطفها ليجعلها ملكه بالقوة، ثم ينتصر

الحبّ على الغريزة العمياء. يتخلى على مخططاته، ويحاول أخذها إلى أعمامها، ويرفض هؤلاء استقبالها. يبقيها من جديد تحت رحمته، وبما أن الناس تعرّضوا لهما بالسوء وفقدت بالتالي سمعتها، أمكنه عندها أن يجعلها ملكه. هي التي تريد أن تذهب، كما يعلم. المرض يمنعها. استفحلت حالتها خلال ساعات. بدأت تحتضر. الموت سيحلّ العقدة. يعلم ذلك وأحياناً يستسلم، لكنه غالبا ما يثور على القوى العمياء. في هذه الأثناء، الموت موجود هنا، حيث ينادي اليأس، وانتظر القدر اللحظة الأخيرة ليجمعهما.

طفلة، في البداية، عندما لم تتعلم المشي من جديد، ثم مراهقة، عندما بدأت تقف وتمشي خطواتها الأولى، من الصباح إلى المساء وشفتاها بلون الدم، تمتلئ سلال صدرها بالثمار، وتضطرب وتغدو نديّة، حالما يقترب الذي لم تفكّر به أبداً كزوج.

قفز وجه الملاك من سريره. يحسّ أنه منفصل عن كاميليا بسبب خطأ لم يرتكبه أيّ منهما، بسبب زواج لم بوافق عليه أيّ منهما. أغلقت كاميليا عينيها. ابتعدت الخطى نحو نافذة.

يدخل القمر ويخرج من مخابئ السحب العائمة. تتلوى الطريق كنهر من العظام البيض تحت القناطر الظليلة. أحيانا، يتلاشى كل شيء كرفات القديسين. أحيانا كل شيء يعود للظهور مرفوعا بخيط ذهبيّ. حدقة سوداء شديدة الضخامة تغطي لعبة الأحداق المنفصلة. الهدب الضخم ينفصل مرتفعا أعلى من البراكين، يمتدّ كشبكة عنكبوت على الهيكل العظمي للمدينة، ويرتدي الظلّ الحداد. تحرّك الكلاب آذانها كالمطارق، يعقبه تحليق سرب من الطيور الليلية، تأوهات وتأوهات من شجرة سرو لأخرى، مع حركة سريعة لحبال الساعات. يختفي القمر تماما خلف فوّهة بركان منتصب، وغمرت

غلالة عروس الضباب المنازل. أغلق وجه الملاك النافذة. يسمع في غرفة كاميليا، تنفسها البطيء المتعب، كأنها نامت ورأسها تحت الغطاء، أو كأنّ على صدرها يرزح شبح.

في تلك الفترة ذهبا للسباحة. كان ظل الأشجار يلطّخ القمصان البيض للباعة المحملين بالأباريق والمكانس، والزرازير في أقفاص القصب، والصنوبر والفحم وحزم الحطب، والذرة. يسافر هؤلاء في مجموعات، عابرين مسافات طويلة، على الأقدام. تسيل الشمس عرقا، معهم. يحركون أياديهم، لاهثين، ثم يختفون كالعصافير.

وقفت كاميليا في ظل ضيعة لتشاهد قطاف القهوة. ترتسم أيدي القاطفات أمام الأوراق المعدنية، بحركات حيوانات مفترسة، تصعد، تنزل، تتلاقى بجنون، كأنها تداعب الشجرة، كأنها تفتح أزرار قميصها.

أحاط وجه الملاك خصر كاميليا بذراعه وهو يقودها عبر ممرّ مثقل بنعاس الأشجار الدافئ، يشعران برأسيهما وجذعيهما، لكن البقية، الأرجل والأيادي، تطفو معهما، بين الأوركيد والزواحف اللامعة، في الظلال التي تتحول إلى عسل غامق اللون، بينما يغوصان في الغابات. نشمّ جسم كاميليا تحت الفستان الرقيق، كما نشم، تحت الأوراق الرقيقة للذرة، الحبّة الطرية، النديّة الحليبيّة. تتلاعب الريح بشعورهما. تنام الشمس في الماء. حضورات لامرئية تتراقص بين السرخس المحيط بهما. يخرج من منزل مغطى بالزنك حارس الحمامات، وفمه مليء بالمشمش. حيّاهما بحركة وهو يلقي في فمه حفنة انتفخت لها أوداجه، وقف ينظر لهما ليبدو محترما. طلبا منه كابينتين. أجاب أنه سيحضر لهما المفاتيح. عاد وفتح لهما كابينتين صغيرتين يفصلهما جدار. ذهب كل منهما إلى كابينته،

ولكن، قبل الانفصال عادا وتبادلا قبلة. أدار الحارس المصاب بشعيرة وجهه.

أحسّ كل واحد منهما بين همسات القصب، مفترقين أنه مضحك. تنظر مرآة مشققة إلى وجه الملاك وهو ينزع ملابسه في عجلة فتيّة. آه! أن تكون رجلاً عوض أن تكون شجرة، غيمة، يعسوبا، فقّاعة، دوّامة! أطلقت كاميليا صيحة وهي تحس الماء البارد على ساقيها، على الدرجة الأولى للحمّام، صيحة أخرى في الثانية، وأخرى أعلى في الثالثة، وأعلى في الرابعة و.. طاف!.. انتفخ قميصها مثل منطاد، مثل كرة، لكن الماء شربها بسرعة، وانطبع على القماش ذي الألوان الزاهية، الزرقاء والصفراء والخضراء، جسمها: النهدان والبطن الصلبة، الانحناءة الخفيفة للخصر، رقّة الظهر، الكتفان نحيلان بعض الشيء. بعد غطستها وظهورها على السطح ارتبكت كاميليا. كان صمت القصب السائل متواطئا مع شخص موجود هناك، روح غريبة تحوم هناك حول الحمّامات، ثعبان بألوان فراشة: سيغامونتا. *لكنها سمعت صوت زوجها ينادي من خلف الباب إذا كان بإمكانه الدخول، فأحسّت بالأمان.*

يقفز الماء معهما كحيوان فرح. نرى ظلالهما كنسيج عنكبوت ضخمة، تنعكس على الجدران بين الانعكاسات الضوئية. كان المناخ مشحونا بالروائح، بالحضور الغائب للبراكين، طراوة بطون الضفادع الغيرة، تنفّس الخراف التي ترضع المراعي التي تحوّلت إلى سائل أبيض، برودة الشلالات التي تولد ضاحكة، الطيران المضطرب للذباب الأخضر. حجاب غير ملموس لهاء غير منطوقة، الغناء المغرّد لعصفور، تحليق آخر.. كل هذه الروعة كانت تغلّفهما.

ظهر الحارس أمام الباب يسأل إن كانت الجياد التي أرسلت من «لاس كابراديتاس» من أجلهما. الوقت اللازم لارتداء الملابس. أحسّت كاميليا بشرنقة على المنشفة التي وضعتها على كتفها، كي تمشّط شعرها، حتى لا تبلّل فستانها بالماء المتقاطر من شعرها. الإحساس بها، الصياح، ركض وجه الملاك وقتل الحشرة لم تمثّل سوى حركة واحدة. لكن كاميليا فقدت كل اهتمام: الغابة بأسرها تخيفها، تنفّسها المطاطي، الخدر الباعث على الأرق، كانت كلها مثل الشرنقة.

تهشّ الجياد بذيلها الذباب، في ظل تينة. اقترب الخادم الذي جاء بهما ليحيّي وجه الملاك وقبعته بيده.

آه! أنت، صباح الخير، ماذا تفعل هنا؟

أعمل، منذ أن قدّمت لي ذلك المعروف بإخراجي من الثكنة. مضى الآن حوالي سنة وأنا هنا.

الوقت يمرّ بسرعة غريبة..

هذا ما يبدو، لكن في رأيي، سيّدي، أن الشمس قويّة أكثر من اللازم وأن الطيور المهاجرة لم تمرّ بعد.

طلب وجه الملاك من كاميليا إن كانت مستعدّة للرحيل، كان قد توقّف ليدفع للحارس أجرته.

حين تريد..

ولكن ألست جائعة؟ ألا تريدين أن تأكلي شيئا؟ يمكن للحارس أن يبيعنا أي شيء.

بيض؟ قال السّائس وهو يخرج من جيب سترة بها من الفتحات أكثر مما فيها أزرار، منديلا يلفّ داخله ثلاث بيضات.

شكرا جزيلا، قالت كاميليا تبدو طازجة.

شكرا لك، سيدتي، بالنسبة للبيض أنه طازج جدّا، لقد باضتها الدجاجات هذا الصباح، وقد قلت لزوجتي «اتركيها جانبا، أفكر أن آخذها للدون ميجال».

ودّعوا الحارس بأنفه السائل بسبب الشعيرة، وفمه المليء بالمشمش.

أقترح، قال السائس، أن على سيدتي أن تأكل البيض الآن لأن المسافة بعيدة ويمكن أن تجوع قبل الوصول.

لا، لا. لا أحبّذها نيّئة، ويمكن أن تسبب لي ألما. قالت كاميليا.

قلت ذلك لأني أرى السيّدة شاحبة بعض الشيء!

لأني، كما تراني الآن، بالكاد نهضت..

نعم، قال وجه الملاك، لقد كانت مريضة جدا.

لكنك الآن، ستشفين سريعا، لاحظ الآخر وهو يشدّ الحزام تحت بطن الجواد. النساء مثل الورود، يجب أن نداوم سقيها، ستصبحين جميلة مع الزواج.

أخفضت كاميليا أهدابها من شدة الحياء، واحمرّ وجهها، كنبتة فوجئت بوجود عيون تنبت لها عوض الأوراق، لكنها قبل ذلك نظرت لزوجها، وأحسّا عبر النظرات بالرغبة توحّدهما، وهكذا ختما الاتفاق الضمني الذي كان بينهما.

(٣٥)

نشيد الأنشـــاد

لو لم يجمعنا القدر! يحصل لهما أن يقولا. وقد يحسّان بالخوف الشديد عندما يكونان منفصلين، كان كل منهما يبحث عن الآخر، وإذا كانا قريبين يتبادلان القبل، وإذا كانا متعانقين، زاد ضمّ أحدهما الآخر، ويزيدان على ذلك تبادل مزيد من القبل، يتأملان بعضهما، يتأملان توحّدهما، أنهما واضحان سعيدان بأن يسقطا في شفافيّة فقدان الذاكرة، في انسجام تام مع الأشجار، المتنفخة حديثاً بماء الحياة، وبقطع اللحم الصغيرة التي يغلّفها الريش، التي تطير أخفّ من الصدى.

لكن الثعابين يدرسون الحالة: «إذا لم يجمعهما القدر هل سيكونان سعيدين؟..» في الظلمات، وقعت مزادات لتدمير هذا النعيم الممتع، غير الضروري، والظلال بالمرصاد، لقاح الخطيئة الرّطبة، بدأت تغرس جذورها في صوت الشكوك الغائم، والتقويم ينسج خيوط العنكبوت في تجاويف الزمن.

لا يستطيع أيّ منهما أن يعتذر عن الذهاب على الحفل التي يقيمها السيد الرئيس في إقامته الريفية.

أحسّا بنفسيهما في منزل غريب، لم يعرفا ماذا يصنعان، حزينين بأن يجدا نفسيهما بين مرآة وكراسي وأثاث آخر، خارج العالم الرائع

الذي قضّيا فيه الأشهر الأولى للزواج. كان كلاهما يشعر بالشفقة أحدهما على الآخر، الشفقة والخجل من أنهما، هما!

دقّت الساعات دقات في قاعة الطعام، ولكن بدا لهما أنهما هناك بعيدان، وأنه يلزمهما ركوب باخرة أو منطاد للوصول. وقد كانا هناك..

يأكلان دون كلام، يتابعان البندول الذي يقرّبهما من ساعة الحفل، بدقاته الصغيرة. نهض وجه الملاك ليرتدي لباسه الأسود الرسمي، وأحسّ بالبرد وهو يدخل يديه في الأكمام، مثل من يغطي نفسه بأوراق الموز. أرادت كاميليا أن تطوي المنديل لكن المنديل هو الذي طوى يديها، وبقيت هناك سجينة بين الكرسي والطاولة، دون قوّة تمكنها من القيام بالخطوة الأولى. سحبت قدمها، كانت هذه هي الخطوة الأولى. عاد وجه الملاك ليرى الساعة ثم عاد إلى الغرفة ليأخذ قفازيه. ترنّ خطواته على البعد كأنه في كهف. قال شيئا. كان صوته غائما. عاد بعد لحظات، على غرفة الطعام بمروحة زوجته. لم يعد يعلم لماذا ذهب إلى غرفته، وبدأ ينظر إلى كل الجهات. تذكر، لكنه كان يرتدي قفازيه، فعلا.

لا تتركن الأضواء منارة، أطفئنها، وأغلقن الأبواب جيداً ثم نمن باكرا، أوصت كاميليا الخادمات اللاتي ينظرن إليهما يمضيان.

تبتعد العربة على خبب الخيول القوية، في رنين نقود معدنية، تحثه عدّة الفرسين. كانت كاميليا منغمسة في كرسي العربة على وشك نوم مؤكد، وضوء الطرقات الميت في عينيها. من حين لآخر يهزها تأرجح العربة حتى تقفز من مكانها، قفزات صغيرة تقطع إيقاع جسمها الذي يتابع إيقاع العربة.

أعداء المحظيّ يتحدّثون أنه فقد حظوته، ملمّحين في دائرة

أصدقاء السيد الرئيس أنه عوض مناداته باسمه الحقيقي، يجب مناداته ميجال كناليس. يستمتع وجه الملاك مسبقا، وأرجحة العجلات تهدهده، باستغرابهم لحضوره الحفلة.

خرجت العربة من الطريق الحجري على مرتفع رملي رقيق كالهواء، بهدير بين العجلات. أحسّت كاميليا بالخوف: لا يمكنها رؤية أي شيء في ظلمة الريف، باستثناء النجوم، لا نسمع شيئاً تحت الندى المبلل، غير غناء الصراصير، تجمّدت كأنها تجرجر للموت في طريق أو شبه طريق، يحدّه من جهة هوّة دون قرار، ومن الأخرى جناح الشيطان، الممدّد كحجر في الظلمة.

ما بك؟ قال لها وجه الملاك، وهو يسحبها برقّة من كتفها، حتى يبعدها عن الباب.

خائفة!

اسكتي! اهدئي..

السائس سيقلبنا، قل له ألّا يسرع، قل له! لست مضحكا! كأنك لا تشعر بشيء! قل له عوض أن تبقى مثل الأخرس!..

في مثل هذه العربات.. بدأ بالكلام، لكن ضمّة من زوجته وضربة قويّة من النابض أسكتته. أحسّا أنهما يسقطان في هوّة.

انتهى.. انتهى، أنها العجلات مرّت بمستنقع.. قال برقّة.

الريح تنفخ في أعالي الصخور، مع أنّات العربة الممزّقة. أخرج وجه الملاك رأسه من النافذة ليصيح بالسائس أن ينتبه أكثر. التفت هذا الأخير بوجه أغبر عليه آثار الجدري، وبدأت العربة تمشي بخطوات جنائزية.

توقّفت العربة عند مخرج القرية، تقدّم نحوهم ضابط بمعطف

ومهمازه يرنّ، تعرّف عليهم وأمر السائس بالمواصلة. الريح تتنهّد بين أوراق الذرة اليابسة المتكسرة، والأشجار نائمة. نلمح خيال بقرة في بقعة مسوّرة. بعد مائتي متر اقترب ضابطان للتعرّف عليهم لكن العربة لم تتوقّف، وحينما كانا يستعدان للنزول في الإقامة الرئاسية، جاء ثلاثة ضباط برتبة عقيد كي يفتشوا العربة.

حيّا وجه الملاك ـ كان جميلا وشرّيرا كشيطان ـ الضباط. حنين دافئ كعشّ تحوم في الليل الغامض المنظور إليه من هذا المكان، ضوء في الأفق يدلّ أن برج مدفعية يسهر على حماية السيد الرئيس.

أخفضت كاميليا عينيها، أمام رجل بتعبيرات شيطانية، بظهر مقوّس، بعينين بشكل كلابة الجزار وساقين طويلتين ونحيلتين. لحظة مرورهما رفع الرجل ذراعه، بحركة بطيئة، فاتحا يده، كأنه عوض الكلام، سيطيّر حمامة.

بورتينوس دي بيتاني أُسر في حرب ميتريدات، وأخذ إلى روما هناك، علّمهم البحر الإسكندري: تعلمنا منه، بروبيروس وأوفيد وفرجيلو أنا..

سيّدتان تتحدّثان أمام عتبة صالون يستقبل فيه السيد الرئيس ضيوفه.

نعم، نعم! قالت إحداهما، وهي تمرّر أصابعها خلال شعرها المجعّد، قلت له أن يترشّح من جديد.

وبماذا أجابك؟ هذا يهمّني..

ابتسم فقط، ولكني أعرف أنه سيجدّد ترشحه من أجلنا نحن المرشّحات، أنه أفضل رئيس تحصّلنا عليه. لم ينفكّ زوجي، مونشو، منذ توليه السلطة، عن الحصول على عمل جيّد.

وراءهما، يتبختر التّيشر، بين عدد من الأصدقاء.

الذي نعطيها زوجا، أي المزوّجة، العروس، إذا نسخنا زواجها..

السيّد الرئيس يتحرّى عنك، يقول رئيس المحكمة الخاصة، عن اليمين والشمال. السيد الرئيس يتحرّى عنك، السيد الرئيس يتحرّى عنك..

شكرا جزيلا، قال التيشر.

شكرا جزيلا قال jockey ظنّ أنه المقصود،

أرادت كاميليا أن تمرّ دون أن يلحظها أحد. ولكن مستحيل. جمالها الغريب، بعينيها الخضراوين، دون روح، جسمها النحيل، المرسوم تحت الفستان من الحرير الأبيض، نهداها الرقيقان، حركاتها الرشيقة، وخاصة أصلها - ابنة الجنرال كناليس! - كل هذا يجعلها بارزة للعيان.

علّقت امرأة في مجموعة:

حقّا أنها لا تعني شيئا. امرأة لا ترتدي مشدّا.. يظهر عليها أنها بالكاد خرجت من الريف.

وأنها أعادت تفصيل فستان زواجها، لحضور الحفل. سخرت أخرى.

عندما لا نملك ما يجعل وجهنا جميلا. أضافت امرأة دون تفكير، قليلة الشعر.

كم نحن شرّيرات! لقد تحدّثت عن الفستان لأني أرى أنهما لا يملكان أموالا.

بالطبع لا يملكان، أخبارك صحيحة! قالت المرأة قليلة الشعر،

وأضافت بهمس: يبدو أن السيد الرئيس لم يعد يعطيه شيئاً منذ أن تزوج هذه.

رغم أن وجه الملاك شديد الإخلاص له..

كان شديد الإخلاص، أردت القول. يبدو ـ أنا أكرّر ما سمعت ليس إلّا ـ لم يختطف وجه الملاك هذا تلك التي أصبحت زوجته إلا لينثر الغبار على عيون رجال الشرطة كي يتمكن حموه، الجنرال كناليس من الفرار، وبهذه الطريقة تمكن من الهروب!

يواصل وجه الملاك وكاميليا تقدّمهما إلى عمق القاعة حيث يوجد السيد الرئيس. يتحدّث سموّه مع كاهن، *الدكتور غير قابل للنقض*، بين *مجموعة من النساء اللاتي يبتلعن كلامهن، حين يقتربن من السّيد، كالذي يبتلع شمعة مشتعلة، فلا يستطيع التنفّس ولا فتح فمه، وبين رجال البنوك الملاحقين قضائيا والمتمتعين بسراح شرطي، ومجموعة من الموظفين اليعاقبة، الذين لا يرفعون عيونهم عن السيد الرئيس دون أن يجرؤوا على تحيته، أو الذهاب حين يكفّ عن الاهتمام بهم، و«فلاسفة» القرية، بمشاعل أفكارهم السياسية المنطفئة، بذرّة إنسانية في كرامة رؤوسهم الصغيرة، رأس الأسد المصدوم بالتفطّن أنه مجرّد ذيل فأرة.*

اقترب وجه الملاك وكاميليا لتحية الرئيس؛ قدّم وجه الملاك زوجته، مدّ السيد يده اليمنى، صغيرة، باردة الملمس، وحين أعلن اسمه غرز نظره في عينيها كأنه يقول: «انظري جيّدا من أكون!» في هذه الأثناء حيّا القاضي الكهنوتي بأبيات جارسيلاس وظهور جمال له نفس اسم حبيبة *البانيو*وجمالها المتفرّد.

أرادت الطبيعة تحفة وحيدة

فأبدعت مثل هذه، ثمّ، كسّرت

القالب الذي صبّ فيه هذا الوجه.

قدّم الخدم شمبانيا، قطعا صغيرة من الحلوى، لوزا مملّحا، وسجائر. أشعلت الشمبانيا السهرة البروتوكولية، دون نار، بدا كأنه بمفعول السحر، واقعيا في المرايا الهادئة، حقيقيّا في الصالونات، مثل أصوات آلة موسيقية قديمة صنعت من القرع الطويل، وحين تطورت أصبحت تصنع من التوابيت.

جنرال! رنّ صوت الرئيس ـ أخرج الرجال، أريد أن أبقى بمفردي مع النساء.

من الأبواب التي فتحت على الليل المضاء، يخرج الرجال في مجموعات متلاصقة، دون أن ينطقوا كلمة، بعضهم يسرعون ليثبتوا أنهم يتعجّلون تنفيذ أوامر السّيد، والآخرون، كي يخفوا تبرّمهم، بسرعتهم. النساء يتبادلن النظرات دون أن يجرؤن على تحريك سيقانهن تحت الكراسي.

الشاعر يمكنه البقاء.. قال الرئيس.

أغلق الضباط الأبواب. لم يعرف الشاعر أين يقف، محرجا أمام هذا العدد من النساء.

أنشد، أيها الشاعر، أمر الرئيس، ولكن شيئاً جميلا: نشيد *الأناشيد*..

وبدأ الشاعر في إنشاد ما يتذكره من نصّ سليمان.

فليقبّلني قبلات من فمه!

....

أنا سوداء، لكني جميلة، يا بنات القدس،

مثل خيمات كيدار مثل سرادق سليمان.

لا تنتبهن للوني الأسود:

لقد أحرقتني الشمس.

....

حبيبي، في عيني، باقة مسك

يرتاح بين نهديّ

....

رغبت في الجلوس في ظلّه

وكانت ثمرته عذبة داخل قصري

أدخلني إلى بيت الخمر

ونشر عليّ شراع الحبّ.

....

كم أنت جميلة يا حبيبتي، كم أنت جميلة!

عيناك حمامتان وراء نقابك.

شعرك مثل قطيع من الماعز،

معلّقا بخاصرة جبل جلعاد

أسنانك مثل قطيع من الخرفان المجزوزة

التي تصعد من المورد،

كلها تحمل توءما

لا توجد بينها عاقر.

....

لدي ستون ملكة، ثمانون خليلة.

قام الرئيس مهلكا. ترنّ خطواته مثل ركض فهد يفرّ على حصى واد جاف، واختفى خلال باب، الستائر التي أبعدها ليمرّ ضربته على ظهره.

بقي الشاعر والمستمعات في ذهول، شديدي الحقارة، يملؤهم الفراغ، وخيّم حزن غريب كالذي يصاحب غروب الشمس. حان وقت العشاء، أعلن الخدم. فتحت الأبواب، وبينما يدخل الرجال الذين كانوا ينتظرون في الممرات مرتعشين، تقدم الشاعر نحو كاميليا ودعاها للعشاء. نهضت، لتأخذ ذراعه، حين أوقفتها يد. بالكاد كتمت صرخة. بقي وجه الملاك مختبئا وراء ستار أسود قرب زوجته، وقد رأوه كلهم يخرج من مخبئه.

حرّك ناي الماريمبا أعضاءه القصبية، المرتبطة بالتوابيت الصغيرة.

(٣٦)

الثورة

لا يمكن رؤية شيئاً من الأمام. من الخلف تتقدّم الزواحف صامتة، متطاولة، تنازع الدروب الوعرة التي تنشر تموّجات سائلة، ملساء، جامدة. يمكن إحصاء ضلوع الأرض في المستنقعات الجافّة، النحيلة، دون شتاء. تصعد الأشجار للتنفّس عند أعلى أوراقها، الكثيفة، اللبنيّة. نيران المعسكر تلمع في عيون الخيول المتعبة. جندي يبول، مديرا ظهره. ساقاه لا ترى. كان يجب أن يقع إفهامه، لكن لا أحد أفهمه. أصدقاؤه مشغولون بصقل بنادقهم بالشحم ويخرق فساتين لا تزال برائحة المرأة. يحملهم الموت تباعا، تجفّفهم في أسرّتهم، واحداً واحدا، دون مراعاة لأطفالهم، أو لأي أحد كان. من الأحسن التضحية بالحياة لمعرفة ما سينتج. الرصاصات تبقى دون رائحة حين تخترق جسد الرجل، تعتقد أن اللحم هواء رطب، رقيق، هواء دهني. وتبدأ بالزقزقة كعصافير لعينة. كان يجب إفهامه، ولكن لا أحد أفهمه، لأنهم كانوا مشغولين بسنّ سواطيرهم التي اشترتها الثورة من حدّاد وقع إضرام دكانه. شيئاً فشيئا، يصبح القاطع مثل ضحكة في فم زنجي. غنّوا يا أصدقاء، قال صوت، منذ زمن لم أسمعكم تغنّون!

لماذا إذن، أغويتني

أيها الجاحد، إذا كان لديك عشيقة،

كان من الأجدر أن تتركني

مثل شجرة لإيقاد الحطب.

«واصلوا، أيها الأصدقاء، واصلوا الأغنية!..»

في عيد البحيرة

لن تظهر، هذه السنة، القميرة

«غنّوا، أيها الأصدقاء!..»

في اليوم الذي ولدتِ فيه

كان ذلك يوم مولدي

ونظمت حفلة في السماء

شارك فيها الله بنفسه..

«غنّوا أيها الأصدقاء!..»

يتلون المشهد بعصارة القمر وترتعش أوراق الشجر. انتظروا أمر التقدّم سدى. نباح بعيد يعلن عن وجود قرية. يطلع النهار. المجموعة المجمّدة، المستعدّة لمهاجمة أول حامية منذ هذه الليلة، تحسّ أن قوة خفية تحت أرضية تسرق تحرّكها، وأن رجالها يتحجّرون، حوّل المطر الصباح غير المشمس إلى حساء. يسيل المطر على وجوه الجنود وظهورهم العارية. في نهاية النهايات ظهر كل شيء في النور، في البدايات كانت مجرّد أخبار متقطّعة متناقضة. أصوات صغيرة، خوفا من الحقيقة، لا تقول كل ما تعرف. شيء ما تيبّس في عمق قلوب الجنود: كرة حديدية، آثار عظم. كل المعسكر ينزف، كأنما من جرح واحد: مات الجنرال كناليس. تتحقّق الأخبار بالمقاطع وبالجمل. مقاطع كتاب الهجاء. كلمات إدارة الوفيّات.

سجائر وكحول ملونة بمسحوق اللعنات. يتحدّثون عن أشياء لا تصدّق لكنها حقيقية. العجائز يصمتون، مستعجلين لمعرفة الحقيقة، بعضهم واقفا وبعضهم الآخر ممددا، الآخرون يقرفصون. والآخرون يتفون قبعات القشّ. الشباب ذهبوا من هناك، متدحرجين في الوادي بطونهم تحتكّ بالأرض، باحثين عن أخبار. انعكاس أشعة الشمس تدوّخ. سحابة من الطيور تدور بعيدا. من حين لآخر يسمع انفجار، ثم جاء المساء. سماء قاتلة تحت خرق من غيوم. تنطفئ نيران المعسكرات شيئاً فشيئا، وأصبح كل شيء كتلة سوداء، إجماع دياجير منعزلة: سماء، أرض، حيوانات، أناس. قطع الصمت ركض جواد موقّع: فعلن، فعلن يضاعفها الصدى. يسمع من حراسة لحراسة، أكثر قربا في كل لحظة، لن يتأخر في الوصول، للاختلاط مع الذين يعتقدون أنهم يحلمون واقفين، وهم يستمعون لرواية الفارس. لقد مات الجنرال كناليس بعد الأكل بينما كان من المفترض أن يقود القوّات. والآن يقضي الأمر بالانتظار. «لقد أعطوه شيئا، جذور الشلبت، سمّ يقتل دون أن يترك أيّ أثر. غريب، أليس كذلك؟ أن يموت الآن!» قال صوت. «كان عليه أن يكون أكثر حذرا!» قال أحد وهو يتنهّد. «آه، آه!..» سكتوا كلهم، ذاهلين حتى أقدامهم العارية المغروسة في الأرض.. «ابنته؟»

بعد لحظة طويلة ككابوس أضاف آخر:

إذا أردتم يمكنني لعنها، لديّ وصفة علمني إياها ساحر يقطن هذه النواحي ذات مرّة حين قلّت الذرة ونزلت لشرائها! هل تريدون؟..

كما تريد، أجاب صوت آخر، أنا لن أقول لا، بما أنها قتلت أباها!..

من جديد عاد صوت ركض الجواد على الطريق، فعلن، فعلن.

يسمع من جديد صياح الحرس، ومن جديد ران الصمت. صعد عواء ذئاب كسلالم حتى وصل إلى القمر الذي ظهر متأخرا محاطا بهالة كبيرة. بعد قليل سمع قصف.

ومع كل واحد من الذين يروون الحكاية، ينهض الجنرال كناليس من قبره ليعيد ميتته: جلس ليأكل على طاولة دون غطاء، على ضوء سراج، يسمع صوت الملاعق والصحون، وخطوات الجندي الذي في خدمته. يسمع صوت الماء يسكب في الكأس، طيّ الصحيفة، ثمّ.. لا شيء، حتى مجرّد تنهيدة. وُجد ميّتا على الطاولة، وجنته مسحوقة على «*الوطني*» العينان مفتوحتان، بلوريتان، مستغرقتان في رؤيا بعيدة.

عاد الرجال إلى أعمالهم اليومية بأسى، لم يعودوا راغبين في أن يعاملوا كحيوانات أهليّة، وقد ذهبوا ليقوموا بالثورة مع الانقلابي، كما يسمّون بحنان، الجنرال كناليس، حتى يغيّروا حياتهم، لأن الجنرال وعدهم أن يعيد لهم الأرض التي افتكّت منهم ظلما، بدعوى إقامة التعاونيّات، وأن يعدل في توزيع السقي، وإلغاء عمود التشهير، وبإقرار الجندية الإلزامية لمدّة سنتين، وبتكوين تعاضديات لاستيراد الآلات الفلاحية، والبذور الممتازة، والسلالات الحيوانية الجيّدة، والأسمدة، والتقنيين، وبتحسين وسائل النقل، وتخفيض أسعارها لتشجيع التصدير وبيع الإنتاج الفلاحي، وبوضع الصحافة تحت تصرّف أشخاص ينتخبهم الشعب ويحاسبهم الشعب مباشرة، وبإلغاء المدارس الخاصة، وبضرائب تتناسب مع الدّخل، وبأدوية أرخص، وتوظيف أطباء ورجال قانون، وبحريّة المعتقد، أي السماح للهنود بعبادة آلهتهم وبناء معابدهم دون خوف.

علمت كاميليا بموت أبيها بعد أيام. بلّغها صوت مجهول بالخبر:

لقد مات أبوك وهو يقرأ في الصحيفة أنّ رئيس الجمهورية كان شاهد زواجك..

غير صحيح! صاحت.

ما هو الغير صحيح؟ سأل ساخرا.

غير صحيح، لم يكن شاهدا.. آلو! آلو! ـ ولكن المكالمة قطعت، بوضع السماعة ببطء، كمن يحاول الاختفاء. ـ آلو!.. آلو!..

تركت نفسها تسقط على كرسي السّعف. لم تحسّ أيّ شيء. بعد حين بدأت تحصي مكوّنات الغرفة كما هي الآن، وليس كما كانت قبل حين. قبل حين كان لها لون، مناخ. «مات! مات! مات!» عقدت كاميليا يديها لتفجّر شيئاً وانفجرت بضحكة، وشدقاها متيبسان، والدموع محبوسة في عيونها الخضراء.

مرّت عربة تحمل الماء، الحنفيّة تبكي بينما تضحك الأواني النحاسية.

(٣٧)

رقصة التوهيل

وهؤلاء السّادة، سيشربون؟..

بيرة.

أنا لا أريد بيرة، أريد ويسكي.

وأنا كونياك.

إذا، الجملة..

بيرة واحدة..

ويسكي، وكونياك..

وبعض المقبّلات!

إذن، بيرة، ويسكي وكونياك وبعض المقبلات..

أمّا أنا فأذهب إلى الجحيم!.. سمع صوت وجه الملاك الذي يعود مزرّرا سرواله على عجل.

ماذا تشرب؟

أيّ شيء، هات لي ديابولو ..

إذن، بيرة واحدة، ويسكي، كونياك، وديابولو.

سحب وجه الملاك كرسيا وجلس قرب رجل طوله متران، هيأته

توحي أنه زنجي رغم أنه أبيض، ظهره شبيه بسكة حديدية، له سندان مكان كل يد، وآثار جرح غائر بين الحاجبين الأشقرين.

اترك لي مكانا، سيد جنكيس، لأني سأضع كرسيا قربك.

بكل سرور، سيدي..

سأشرب بسرعة وأمضي، لأن السيد ينتظرني.

آه! واصل السيد جنكيس، عليك أن تكفّ عن الغباء، يجب أن تقول له أن الكلام الذي يقال عنك، غير صحيح، غير صحيح بالمرّة.

أمر طبيعي، لاحظ الرابع، الذي طلب كونياك.

وهل تقول هذا الكلام لي؟ قال وجه الملاك وتوجها إلى السيد جنكيس

ولكل الناس! صاح الأمريكي وهو يضرب الطاولة الرخامية بيده المفتوحة، بالطبع! لأني كنت هنا الليلة وسمعت بأذني رئيس المحكمة الخاصة يعلن أنك ضدّ إعادة الانتخاب ومناصر للثورة والمرحوم الجنرال كناليس.

أخفى وجه الملاك قلقه بصعوبة. الذهاب لرؤية الرئيس في هذه الظروف مخاطرة.

اقترب النادل ليوزع الكؤوس، كان مرتديا سترة بيضاء نقش عليها «قمبرينوس».

ويسكي.. بيرة..

ابتلع السيد جنكيس الويسكي دون أن يرفّ له جفن، ببرود كأنه يتناول مسهّلا. ثم أخرج غليونه وحشاه تبغا.

نعم يا صديقي، في الوقت غير المتوقع، وهذه الأشياء التي تصل لأن السيد الرئيس ليس في صالحك بالمرة. الآن هو الوقت المناسب لتبين له الصواب من الخطأ. هذه فرصتك.

شكرا على النصيحة، سيد جنكيس، وإلى اللقاء. سأبحث عن عربة لأصل بسرعة، شكرًا جزيلا، وإلى اللقاء جميعا.

أشعل السيد جنكيس غليونه.

كم شربت من كاس ويسكي، سيد جنكيس؟ قال أحد الجالسين حول الطاولة.

ثماني عشرة كأسا، أجاب الأمريكي، وغليونه في فمه، وعين نصف مغلقة والأخرى زرقاء، زرقاء مفتوحة على الشعلة الصغيرة الصفراء.

كم أنت على صواب! الويسكي أمر مهم جدا!

الله يعلم، أنا لا أعرف شيء، اسأل من يشرب ليس مثلي، السبب اليأس فقط..

لا تقل هذا سيد جنكيس!

كيف لا أقول، إن كنت هكذا أفكر؟ في بلدي كل شخص يقول ما يفكر، كله.

أنها ميزة كبيرة..

آه لا! أنا سعيد أكثر، هنا بينكم تقول ما لا تفكر بشرط أن يكون جميلا!

إذا، عندكم لا توجد حكايات ممتعة؟

لا، كل الحكايات موجودة في الإنجيل، ربّانيا!

كأسا أخرى، سيد جنكيس؟

بعد حين، اشربه الويسكي الآخر!

رائع، هذا يعجبني، أنت من الذين يموتون من أجل أفكارهم..

كيف؟

صديقي يقول أنك من الذين يموتون..

أفهم، الذين يموتون حسب أفكارهم، لا. أنا أحيا حسب أفكاري، أنا أحسن حياً، ليس مهماً كيف تموت، ومن الأحسن حين يريد الله.

السيد جنكيس هذا يريد ان تمطر ويسكي!

لا. لا، ماذا نفعل به؟.. لن نبيع المطريات من أجل المطر بل كقِمع. ـ وأضاف بعد صمت ملأه دخان غليونه وتنفّسه المتهافت، بينما يضحك الآخرون ـ ولد جيّد هذا الوجه الملاك، ولكن إذا لم يفعل مثلما قلت له، لن يغفر له أبداً، وسيرى الشيطان كثيرا!

فجأة، دخلت مجموعة صامتة من الرجال إلى البار، كانوا كثيرين والباب لا يتسع لهم في نفس الوقت. أغلبهم بقي واقفا عند المدخل، بين الطاولات القريبة من المبسط. كانوا مجرّد عابرين، لا فائدة من الجلوس. «هدوء!» صاح رجل نصف قصير، نصف عجوز، نصف أصلع، نصف عاقل، نصف مجنون، نصف أبحّ، نصف وسخ، وهو يفتح معلّقة كبيرة مطبوعة، ساعده اثنان في إلصاقها على مرآة في البار.

أيها المواطنون

النطق باسم السيد رئيس الجمهورية، يعني أن تنير بمشاعل

السلام مصالح الأمة المقدّسة، التي عرفت تحت حكومته الرشيدة، ولا تزال تعرف، ميزات التطور في كل مجالات النظام في كل التطورات!!! وكمواطنين أحرار، واعين بواجب معرفة السبيل الذي نسير عبرها، التي هي مسيرة الوطن، وكرجال خيّرين، أعداء الفوضى، نطالب!!! أن سلام الوطن يكمن في إعادة انتخاب زعيمنا المفدّى، ولا شيء غير إعادة انتخابه! لماذا نغامر بسفينة الوطن نحو المجهول بينما لدينا من خلاله رجل الدولة الأكثر كمالا في عصرنا، الذي سوف يذكره التاريخ، كعظيم بين العظماء، كحكيم بين الحكماء، كمفكّر لبرالي، ديمقراطي؟ تخيّلوا، فقط، آخر غيره، في هذا المنصب العالي، سيكون اعتداء على مصير الوطن الذي هو مصيرنا، والذي يجرؤ على أمر كهذا - ولن يوجد من يجرؤ - يجب أن يحجز لأنه مجنون خطير، وإذا لم يكن مجنونا، يجب أن يحاكم كخائن للوطن، طبقا لقوانيننا!!! أيها المواطنون!!! من أجل!!! مرشحنا!!! الذي!!! سيعاد!!! انتخابه!!! من قبل!!! الشعب!!!

أحيت قراءة المعلقة حماس كل الموجودين في البار: كان هناك تصفيق وهتاف وصيحات، وتحت إلحاح الجميع تكلّم رجل مختلّ الهندام بشعر أسود وعينين غائمتين:

«أيها الوطنيون! إن فكري فكر شاعر ولساني لسان وطنيّ! كلمة الشاعر تعني الذي اخترع السماء، سأحدّثكم إذن كمخترع هذا الشيء الجميل عديم الفائدة الذي ندعوه سماء. اسمعوا ارتجالي المتسرّع!.. عندما تكلم ذلك الألماني الذي لم يفهمه الألمان، لا غوتة، ولا كانط، ولا شوبنهاور، عن الإنسان الأرقى، أكيد أنه أحسّ أن من الأب الكون، ومن الأم الطبيعة، سيولد، في قلب أمريكا، الرجل الأرقى الأول، الذي لم يوجد أبداً. أتكلم سادتي، عن الذي يحني ميزان الفجر، الذي استحقّ من الوطن أن يسمّيه

رئيس الحزب وحامي الشباب المجتهد. أتكلم سادتي، مثلما تعلمون، عن السيد الرئيس الدستوري للجمهورية. أنه إنسان «نيتشه» الأرقى، الأروع الأوحد.. أقولها وأكررها، من أعلى هذا المنبـ..! ـ قال هذه الكلمات وهو يضرب بكفّ يده المبسط ـ إذن، أيها المواطنون، دون أن أكون من الذين يعيشون من السياسة، أو من الذين يدعون أنهم اخترعوا خيط قطع الزبد، لأنهم حفظوا عن ظهر قلب مآثر شيلبريك، آمنوا برأي نزيه، مستقيم، شريف: طالما لم يوجد بيننا إنسان أرقى أروع أوحد آخر، مواطن خارق، يجب أن نكون مجنونين أو عميانا، عميانا أو مجنونين أو كليهما، إذا قبلنا أن نحول لجام الحكومة من أيادي السائق الأمهر الأوحد الذي يقود الآن وإلى الأبد مركبة وطننا المفدّى، إلى أيدي مواطن آخر مواطن عادي، الذي وإن كان يملك كل امتيازات العالم، لن يكون أكثر من رجل. الديمقراطية انتهت مع الأباطرة، و«ملوك» أوروبا العجوز المتعبة، ولكن يجب الإقرار، ونحن نقرّ، بأنها حين أعيد زرعها في أمريكا وقع تطعيمها شبه الإلهي بالإنسان الأرقى وأنتجت ولادة شكل جديد من الحكومات: السّوبر ديمقراطية! وفي هذا الصدد يسعدني أن أنشد لكم..

أنشد، أيها الشاعر، ولكن ليس نشيدًا..

ليليتّي، على مقام الدو الكبير، إلى الرّائع الأوحد!»

تتابع بعد الشاعر في الاستعمال الجيد للكلام متحمسون آخرون ضدّ العصابة الضالّة، كتّاب هجاء التعاويذ والتحاميل اللاهوتية الأخرى. سال الدم من أنف أحد الحاضرين، الذي يطلب بين صيحتين أن يأتوه بقرميدة جديدة مبللة بالماء ليستنشقها، حتى يوقف النزيف.

في هذه الساعة، يبد وأن وجه الملاك بلا أي دفاع أمام السيد

الرئيس. آه! كم يعجبني كلام هذا الشاعر، ولكن أظنه أمرا محزنا أن يكون المرء شاعرا، ولكن أكثر أمر محزن في العالم أن يكون المرء رجل قانون! وسأشرب كأسا آخر من الويسكي! ويسكي آخر ـ صاح ـ من أجل هذا السوبر رائع الممتاز، الحسن جداً الشبه خارق للعادة!

تقابل، وجه الملاك، وهو يخرج من «القامبيرنوس» مع وزير الحرب.

إلى أين تمضي أيها الجنرال؟

إلى السيّد..

نذهب سويّا إذن..

أنت ذاهب أيضا؟ فلننتظر عربتي، لن تتأخّر. كي لا أخفي عليك شيئا، أخرج للتو من عند أرملة..

أعرف أنك تحب الأرامل الفرحات، أيها الجنرال..

تارا لا لا!

لا أقصد الموسيقى، بل كليكو!

ليس أكثر من كليك وإلا كوكوليكو! نهاية أخيرة، شحما ولحما! شيطان!

تسير العربة دون أي ضجيج، كأنها على عجلات من الورق النشاف. في تقاطعات الطرق تسمع الحرس يتنادون من موقع لآخر لمرور وزير الحرب: «وزير الحرب سيمرّ، وزير..»

يذرع الرئيس مكتبه طولا وعرضا، بخطوات صغيرة، قبعته في

قمة رأسه، ياقة سترته مرفوعة والشال يحيط برقبته، وأزرار قميصه مفتوحة. بذلة سوداء، قبعة، سوداء وحذاء أسود.

كيف حال الطقس، أيها الجنرال؟

بارد، سيدي الرئيس..

وميجال دون معطف..

سيدي الرئيس..

اسكت! أنت واقف ترتعش، وستقول لي أنك لا تحس البرد. أنت مخطئ لأنك لا تسمع النصائح. جنرال، أرسل شخصاً إلى منزل ميجال ليحضر له معطفا حالا.

خرج وزير الحرب وهو يتخبّط في التحية ـ كاد يسقط سيفه ـ بينما يجلس الرئيس على أريكة من السعف داعياً وجه الملاك للجلوس على أقرب كرسي.

هنا، ميجال، أو عليّ أن أفعل كل شيء بنفسي، أن أسهر على كل شيء، لأن القدر أراد أن أحكم مجموعة من «سأفعل» ـ قال وهو يجلس ـ يجب أن أستعمل أصدقائي في الشؤون التي لا يمكن أن أقوم بها بنفسي. أقصد بمجموعة «سوف» الأشخاص الذين لهم النية الأكثر صفاء في العالم للحلّ والربط، لكنهم لنقص في الإرادة لا يحلون ولا يربطون أي شيء، أناس دون رائحة لا طيبة ولا كريهة، مثل فضلات الببغاء! وهكذا يقضّي أرباب الصناعة عندنا حياتهم في تكرار: سوف أبني مصنعا، سوف أصنع آلة جديدة، سوف أصنع هذا وتلك، وهذه والأخرى. السيد الفلاح يقول سوف أزرع نباتات جديدة، سوف أصدّر إنتاجي. رجل الأدب سوف أكتب كتابا، الأستاذ سوف أؤسس مدرسة، التاجر سوف أفتتح سوقا

جديدة، والصحفيون! هؤلاء الخنازير الذين يسمّون شحم الخنزير روحا، يصيحون: سوف نصلح البلاد! لكن مثلما قلت منذ البداية، لا أحد يفعل أي شيء، وبالطبع يجب أن أفعل أنا رئيس الجمهورية أن أفعل كل شيء، حتى وإن كان ذلك سدى. يمكنني القول أن لولاي حتى الثروة لن توجد، لأن عليّ أن أعوّض الإلهة العمياء في اليانصيب..

مسّد شاربه الرمادي بأطراف أصابعه الشفافة، الطريّة، بلون ساق السعادى، وواصل بنبرة جديدة:

كل هذا لأقول لك أني مضطر في مثل هذه الظروف أن ألجأ للذين أعزّهم، مثلك، أكثر مني قبل، خارج حدود الجمهورية، هناك، حيث تكاد ماكينة أعدائي وحيلهم، وأحاديثهم المسمومة أن تفشل إعادة انتخابي.. ـ ترك عينيه تسقطان مثل ناموستين أسكرتهما الدماء، دون أن يكفّ عن الكلام ـ لا أتحدث عن كناليس ولا عن المتعصّبين له: كان الموت وسيظل أقوى حلفائي! أتكلّم عن الذين يريدون التأثير عن الرأي الأمريكي الشمالي، آملين أن تسحب واشنطن ثقتها مني. هكذا يبدأ الوحش المسجون بفقدان ريشه، ولهذا لا يريد أن ننفخ عليه؟ حسنا! هكذا إذن، أنا عجوز خرف بقلب أقسى من الأبنوس؟ الألسن الخبيثة، ولكن هكذا جيّد. ولكن، أن ينتهز مواطنيّ، لأسباب سياسية، الأمور التي اعتمدتها، أنا، لإنقاذ البلاد من قرصنة أولاد العاهرات، فهذا لم أجد له اسما! إن إعادة انتخابي مشبوهة، ولهذا طلبتك. أنا في حاجة أن تذهب لواشنطن وأن تخبرني بالتفصيل عن الصحيح في ظلمات الكذب تلك، في تلك المدافن، حيث إذا أردت أن تحصل عن دور لائق عليك أن تكون الميّت.

سيّدي الرئيس، غمغم وجه الملاك، منشطرًا بين رأي السيد جنكيس الذي نصحه بإيضاح كل شيء، والخوف من إفساد سفر وجد فيه لأول وهلة لوح النجاة، السيد الرئيس يعلم أني في كل الظروف، كلي إخلاص ومطيع لأوامره دون أي قيد أو شرط. ولكن إذا سمح لي السيد الرئيس بقول كلمتين، لأني لا أطمح إلاّ أن أكون آخر خدمه، ولكن الأكثر إخلاصا، سأطلب منك، إذا لم تر مانعا، قبل أن يكلفني بهذه المهمة الدقيقة، أن يأمر بالتحقيق في الاتهامات المجانية التي يقذفني

بها بعض أعداء السيد الرئيس، وسأذكر رئيس المحكمة الخاصة كمثال.

ولكن من يستمع لهذا الهذيان؟

لا يمكن لسيدي الرئيس أن يشك في إخلاصي لشخصه ولحكومته، ولكني لا أريد أن يكلفني بمهمة دون أن يتثبّت من أقوال رئيس المحكمة غير المبرّرة.

ميجال، أنا لا أستشيرك فيما يجب عليّ أن أفعل! فلنتته من هذا. أعلم كل شيء وسأقول لك أكثر. في هذا الملف توجد الحجج التي جمعها ضدك رئيس المحكمة الخاصة ضدك عند فرار كناليس، وأكثر: يمكنني أن أؤكد لك أن الحقد الذي يكنّه لك رئيس المحكمة الخاصة ناتج عن ظرف لا شكّ تجهله. رئيس المحكمة الخاصة باتفاق مع البوليس كان يفكّر في اختطاف تلك التي أصبحت الآن زوجتك، وبيعها إلى صاحبة المبغى، والتي قبض منها، كما تعلم، عشرة آلاف بيزوس مسبقا، والتي دفعت الثمن مجرّد امرأة مسكينة، أصبحت الآن نصف مجنونة.

بقي وجه الملاك هادئ الأعصاب، سيّد حركاته. متمترسا وراء

سواد عينيه المخمليتين، اخترن أحاسيسه في قلبه، شاحبا، مصفرّا ككرسي السعف.

لو يسمح لي السيد الرئيس، فإني أفضل البقاء بجانبه، والدفاع عنه بدمي.

تريد القول أنك ترفض؟

ليس هذا ما أردت قوله، سيدي الرئيس..

إذًا يكفي من التعاليق، كل هذه الأفكار غير مجدية، ستنشر الصحف غدا خبر سفرك، وليس هناك أي إمكانية أن تخذلني. وزير الحرب تلقّى اليوم أمر منحك الأموال اللازمة للتحضير للسفر، سأرسل لك الأموال إلى المحطة من أجل مصاريف تنفيذ أوامري.

بدأ اختلاج جوفيّ لساعة غامضة يسجّل الساعات المميتة لوجه الملاك، رأى خلال نافذة مفتوحة بين حاجبيه الأسودين نارا عظيمة مشتعلة قرب شجرة سرو فحماً مخضرّاً وجدارا صغيراً من الدخان الأبيض، وسط ساحة، يمحوها الليل، وعصابة من العسس، وأنصاف نجوم. أربع ظلال كهنوتية تعلّم أركان الساحة، الأربعة يرتدون طحالب بحدس نهريّ، الأربعة بأياد من جلد الضفادع أقرب إلى الخضرة منها إلى الصفرة، الأربعة بعين نصف مغلقة من جهة، وأخرى مفتوحة، تنتهي بغصن ليمون في جهة الوجه التي تأكلها الظلمة. فجأة سمع صوت تام تام، تام تام، تام تام، تام تام، وعدد من الرجال مدهونين بزيت حيواني، يدخلون متقافزين على صفوف الذرة. تنزل على طول فروع التام تام الدامية المرتعشة، أعاصير قاتلة وتجري ديدان قبور النار. الرجال يرقصون حتى لا يبقون ملتصقين بالأرض بالهواء نتيجة أصوات التام تام، وهم يغذون النار بزيت جباههم. ظهر من ظلّ بلون الفحم، رجل بوجه العجوز قرسكيل،

لسانه من الوجنة إلى الأخرى وتنبت أشواك على جبهته، دون أذنين، في وسطه حزام مرصّع برؤوس محاربين، اقترب لينفخ على الجمر، ثم، بين فرحة الجرابيات العارمة، سرق النار بفمه، وهو يمضغه كالصمغ حتى لا يحترق. غرقت صرخة في الظلمة التي تتسلق الأشجار، ونسمع على القرب والبعد، الأصوات الشاكية للقبائل التي، تركت في الغابة، عمياء منذ الولادة، تتصارع مع أحشائها، حيوانات الجوع، مع حلوقها، عصافير العطش، ومع خوفها وغثيانها، وحاجاتها الجسدية، وتطالب *التوهيل*، *واهب النار*، بالمشعل الرقيق للنور. وصل *التوهيل* ممتطيا نهرا من حناجر الحمام، وينزلق مثل الحليب. تركض السناجب حتى لا يتوقّف الماء، سناجب بقرون أرق من خيوط المطر، وبأرجل صغيرة تنتهي بتيارات هوائية أوصت بها رمال تقنص الطيور. تركض الطيور حتى لا يتوقف الانعكاس السابح للماء. عصافير بعظام أرق من الريش. رام تام تام! رام تام تام!.. ترنّ تحت الأرض. يطالب *التوهيل* بأضاحي بشرية. أحضرت له القبائل أحسن الصيادين، أصحاب الرماح الممشوقة، أصحاب المقلاع المصنوع من خيوط الباهرة، الجاهزة دوما. «وهل يصطاد هؤلاء الرجال رجالا آخرين؟» سأل *التوهيل*. رام تام تام! رام تام تام!.. ترن تحت الأرض. «كما تأمر ـ أجابت القبائل ـ شرط أن تعطينا النار، أنت *واهب النار*، وحتى لا يبرد لحمنا، ولا طعامنا المقلي، ولا الهواء ولا حتى أظافرنا، وألسنتنا، وشعرنا. «لقد رضيت.» قال *التوهيل*. رام تام تام! رام تام تام! ترنّ تحت الأرض. «لقد رضيت! فوق رجال صيادي رجال يمكنني أن أركز حكومتي. لن تكون هناك حياة حقيقية أو موت حقيقي. فلترقصوا الطبول من أجل إسعادي!»

أخذ كل صياد محارب إناء معدنيا، ودون أن ينزعه من شفاهه،

التي يجمّد لهاثها وجههن وعلى إيقاع التام تام، وقرعها، وتام تام الأعاصير وتام تام القبور بدأت ترقص من أجل عيون *التوهيل*.

استأذن وجه الملاك من الرئيس للانصراف بعد هذه الرؤيا الغامضة. وأثناء خروجه ناداه وزير الحرب ليسلّمه رزمة من الأوراق المالية ومعطفه.

ألن تغادر أيها الجنرال؟ بصعوبة تمكن من نطق هذه الكلمات.

لو أستطيع! ربما ألحق بك، أو قد نلتقي في فرصة أخرى. يجب أن أبقى هنا، انظر.. وأدار رأسه نحو كتفه الأيمن ليكون قريباً من صوت السّيد.

(٣٨)

السّفر

هذا النهر الذي يسيل على السطوح، بينما تعدّ الحقائب، لا يصبّ هنا في المنزل، بل بعيداً جدّا، في الامتداد الذي يشرف على الجبال، ربما على البحر. فتحت قبضة الريح النافذة. دخل المطر كأن البلور مهشم، اضطربت الستائر والأبواب والأوراق المبعثرة، لكن كاميليا واصلت تنظيم الحقيبة، يعزلها خواء الحقائب التي تعدّها. ورغم أن العاصفة تغرس في شعرها إبرا من البرق، لا شيء يبدو ممتلئا أو مختلفا: كل شيء كان متساويا غير موجود، مهشّما، دون جسم، دون روح، مثلها تماما.

بين العيش هنا والعيش بعيداً عن الوحش!.. كرّر وجه الملاك وهو يغلق النافذة. ماذا قلت؟.. لا ينقص إلا هذا! هل هي محض صدفة أن أبتعد عنه هربا؟

ولكن ما رويته لي البارجة عن الهنود المتوحشين الذين يرقصون عنده..

يجب ألّا نبالغ!.. ـ غطى دويّ الرعد على صوته ـ. قولي لي، ماذا يمكني أن أخشى أنه هو من يرسلني إلى واشنطن، هو من يدفع تكاليف السفر.. هكذا! وحينما أبتعد أغيّر رأيي، ليس مستحيلا، ستلحقين بي بحجّة أنك أو أني مريض وبعد ذلك، يمكنه أن يبحث عنا في كومة التبن..

وإذا لم يسمح لي بالخروج؟

حينها أعود وأغلق فمي، كأني لم أر ولم أسمع، ألا تصدقين؟ من لا يجازف لا يحصل على شيء.

بالنسبة لك، كل شيء يبدو سهلا!..

يمكننا، بما نملك أن نعيش في أي مكان، ما أسميه نعيش، ألّا نجترّ في كل ساعة: أنا أفكر برأس السيد الرئيس إذن أنا موجود، أنا أفكر برأس السيد الرئيس إذن أنا موجود..

تنظر إليه كاميليا، وعيناها مبللتان، كأن فمها تسدّه كومة شعر، وكأن أذنيها تملؤها الأمطار.

ولكن لماذا تبكين؟. كفي عن البكاء..

وماذا تريدني أن أفعل!..

هكذا الحال دائماً مع النساء!

اتركني!

ستمرضين إذا واصلت البكاء بهذه الطريقة، توقفي بحق الله!

لا، اتركني!

كأني سأموت أو أدفن حيّا!

اتركني!

أخذها وجه الملاك بين ذراعيه. جرت على وجنتيه العصيتين على البكاء دمعتان مجنونتان حارقتان، مثل مسامير لا يمكن قلعها.

ستكتب لي، همست كاميليا.

طبعا..

أؤكد على ذلك! نحن لم نفترق قطّ، لا تتركني دون أخبار، لأن ذلك بالنسبة لي سيكون كألم الاحتضار، أن أبقى دون أي خبر عنك. وحافظ على نفسك، ولا تثق في أيّ شخص، هل تسمعني؟ أيّ شخص، خاصة أبناء بلدك، لأنه أسوء ما عرفت من مخلوقات. ولكن أكثر ما أوصيك به.. ـ تقطع قبلات زوجها كلماتها ـ ولكن.. أكثر.. ما.. أوصيك.. به.. هو أن.. تكتب.. لي!

أغلق وجه الملاك الحقائب دون أن يبعد عينيه عن عيني زوجته، بعطف وحنان. تمطر بغزارة. تجري المياة في الميازيب ثقيلة كأنها السلاسل. غرقا في أفكار الغد المحزنة، الغد القريب بصورة غير متوقعة، ودون أن يتبادلا أيّ كلمة ـ كل شيء أصبح جاهزا ـ نزعا ملابسهما للنوم، بين قرض الساعة التي تقطّع الساعات الأخيرة شرائح صغيرة ـ تاك قصّ تيك! تاك قصّ تيك! ـ وبين طنين الناموس الذي يمنعهما من النوم.

تذكّرت الآن أني نسيت غلق النوافذ حتى لا يدخل الناموس، يا إلهي يا لي من غبية!

كانت إجابة وجه الملاك أنه احتضنها بين ذراعيه، يحسّ أنها حمل صغير، ضعيف دون قوّة أو صوت.

لم يجرؤ على إطفاء الأضواء ولا على إغماض عينيه، ولا حتى نطق كلمة واحدة. كانا قريبين جداً في الضوء، الصوت يحفر مسافة بين المتكلمين، الأجفان تبعد كثيرا! دون أن نحسب أن في الظلمة كأننا منفصلين، دون أن نحسب أن من كثرة الكلام الذي يجب أن يقال في هذه الليلة، فأنهما حتى وإن قالا أكثر منه فسيحسان أنهما قالاه في أسلوب برقيّ.

يملأ الساحة ضجيج الخادمات اللاتي يلاحقن دجاجة. توقف

المطر وبدأ الماء في التقاطر من الميازيب مثل الساعة المائية. يجري الطير، يحوم يقفز، يخفق بجناحيه، حتى يفرّ من الموت.

حجرة الرحى الرقيقة، همس وجه الملاك في أذنها وهو يلامس بكفّه البطن الصغيرة الخاوية.

حبيبي! قالت وهي تلتصق به. ترسم ساقاها على اللحاف حركة مجاديف تستند على الماء المجد لنهر دون قرار.

لم تتوقف الخادمات عن الصراخ، والذهاب والإياب. تفرّ الدجاجة من أياديهن، تختلج وتخفق بشدّة، العينان جاحظتان، المنقار مفتوح، الجناحان يتخذان شكلا يشبه الصليب، وخيط التنفس خياطة بغرز كبيرة.

ملتصقين، يتبادلان اللمسات الرقيقة، عبر الدفق المرتعش للأصابع، في منتصف الطريق بين الموت والنوم، جوّيا دون مساحة ملموسة.

حبيبي! تقول له.

كنزي.. يهمس.

كنزي.. تجيبه.

تصدم الدجاجة الجدار أو الجدار هو الذي سقط عليها. قلبها يعرب عن الأمرين في نفس الوقت..

دقّوا عنقها.. كأنها لا تزال تطير، وهي ميّتة لا تزال تخفق بجناحيها. «لقد وسّخت نفسها اللعينة!» صاحت الطباخة وهي تنفض تطريز الزغب من فوطتها، ثم ذهبت تغسل يديها في إناء مليء بماء المطر.

أغمضت كاميليا عينيها.. ثقل زوجها.. خفقان الأجنحة.. اللطخة الدافئة.

والساعة التي أبطأت، تاك قصّ تيك، تاك قصّ تيك!..

بعجلة، بدأ وجه الملاك في تصفّح الأوراق التي أرسلها له الرئيس إلى الميناء. المدينة تنشب مخالب السطوح القذرة التي بقيت في الخلف، في وجه السماء. أعادت الأوراق له هدوءه. يا له من حظ سعيد أن نبتعد عن ذلك الرجل، في مقصورة من الدرجة الأولى، محاطا بالعناية، دون جواسيس يتعقبونه، والشيكات في جيبه! أغمض عينيه نصف إغماض حتى يحمي أفكاره. تحرّكت الحقول والأشجار بمرور القطار، وكذلك المنازل والجسور بدأت بالركض كالأطفال، الواحد بعد الآخر، الواحد بعد الآخر..

يا له من حظ سعيد أن تبتعد عن ذلك الرجل في عربة الدرجة الأولى..

.. الواحد بعد الآخر، الواحد بعد الآخر، الواحد بعد الآخر..

المنزل إثر الشجرة، المنزل إثر الحاجز، الحاجز إثر الجسر، الجسر إثر الطريق، الطريق إثر النهر، النهر إثر الجبل، الجبل إثر الغمامة، الغمامة إثر الحقل، الحقل إثر الفلّاح، الفلاح إثر الدابّة..

.. تحيط به العناية، دون جواسيس يتعقّبونه..

.. الدابّة إثر المنزل، المنزل إثر الشجرة، الشجرة إثر الحقل، الحقل إثر الجسر، الجسر إثر الطريق، الطريق إثر النهر، النهر إثر الجبل، الجبل إثر الغمامة..

.. قرية من الانعكاس الضوئي تركض على نهر بجلد شفاف، وبعمق أشدّ غموضا من عين البوم.

.. الغمامة إثر أخاديد المحراث، الأخاديد إثر الفلاح، الفلاح إثر الدابة، الدابة..

.. بكثير من الشيكات في جيبه..

.. مرّ جسر مثل كمان من فتحة نافذة، ظل وضوء، سلالم من الضوء والظلّ، سجف حديدية، أجنحة خطاف..

. الحقل إثر الجسر، الجسر إثر الطريق، الطريق إثر النهر، النهر إثر الجبل..

.. ترك وجه الملاك رأسه يسقط على مسند الكرسي الخشبي. يراقب الأرض الواطئة، المنبسطة، الدافئة، الثابتة على الساحل، بعيون يملؤها النعاس، والإحساس الغائم بوجوده في القطار، بعدم وجوده في القطار، بوضعه الجيّد، بتجاوز القطار له، بوضعه الجيّد جداً، بوضعه الوضيع، بوضعه الجيد جدّا، بوضعه الجيد جداً، بوضعه الوضيع، بوضاعته، بدفنه، بوضعه، بدفنه، بوضاعته، بدفنه..

فجأة يفتح عينيه ـ النوم غير المريح لمن يفرّ، اضطراب من يعلم أن الهواء الذي يتنفّسه يمكن أن يفرز مخاطر ـ وجد نفسه على الكرسي كمن التحق بالقطار عبر القفز من ثقب لا مرئيّ، تؤلمه رقبته، وجهه مليء بالعرق، وسحابة من الذباب فوق جبينه.

تتكدّس فوق النباتات سماوات جامدة، منتفخة، بمياة البحر، مخالب أشعتها مخفيّة في جرار من القطيفة الرمادية.

وصلت قرية، تسكعت هنا وهناك، قرية غير مأهولة، أو هكذا تبدو، قرية من قصب السكر، بين أوراق الذرة اليابسة، بين الكنيسة والمقبرة. فليكن الإيمان الذي عمّر تلك الكنيسة إيماني، الكنيسة والمقبرة، الإيمان والموتى فقط بقوا أحياء! لكن فرحة من يهرب

غرقت في عينيه. تلك الأرض ذات الربيع المجتهد كانت أرضه، حنانه، أمّه، ورغم أنه يذهب نحو البعث تاركا وراءه كل تلك الضيعات، سيكون دوما ميتا بين الأحياء، مستورًا بين رجال البلدان الأخرى بالحضور الخفي لأشجاره المصلوبة وبشواهد القبور.

المحطات إثر المحطات. يجري القطار دون توقف، يهتزّ على السكة غير المتوازية. هنا صافرة، وهناك صرير فرامل، إثر ذلك تاج من دخان وسخ فوق قمّة حادة. يحرّك المسافرون قبعاتهم جلبا للهواء، ومناديلهم وجرائدهم، معلقين في الهواء بآلاف قطرات العرق التي تبكي أجسادها، ساخطين من المقاعد غير المريحة، من الضجيج، من ملابسهم التي تلسعهم، كأن قماشها مصنوع من أرجل حشرات تركض على أجسادهم، برؤوسهم، التي تحكّهم كأنها شعرها يمشي، متعبين كمن تناولا مسهلا، حزانى كأنهم موتى.

وضع المساء قدمه على الأرض، تَعاقب ضوء يابس، تَعاقب ألم الأمطار المعبّرة، فانقلع بلاط الأفق، وفجأة بدأ على البعد، على البعد جداً لمعان علبة سردين مضيئة بزيت أزرق.

مرّ عامل السكك الحديدية لإضاءة مصابيح العربات. عدّل وجه الملاك ربطة عنقه وياقته، ونظر إلى ساعته: بقيت عشرون دقيقة للوصول إلى الميناء، قرن بالنسبة له، المتلهف ليكون على الباخرة، وانحنى على النافذة ليرى إن كان يميّز شيئاً في الظلمة. رائحة الأشجار الملحة حديثاً. يسمع مرور جدول. بعد ذلك ربما نفس الجدول..

أبطأ القطار سيره في طرقات قرية صغيرة، معلقة كأرجوحة النوم في الظلّ. توقف شيئاً فشيئا، نزل تقريبًا كل ركاب الدرجة الثانية، رجال مضطربون ضاجون، وواصل السير نحو المحطة ببطء. نتبيّن

صدى الصدمات القوية ووضوح بناءات الديوانة برائحة القطران، والتنفس الهادئ لملايين الكائنات الرقيقة المالحة.

حيّا وجه الملاك على البعد رئيس الميناء الذي ينتظره على السكة:

أيها العقيد فارفان! صاح سعيدا أن يلاقي في هذه الظروف صديقا مدينا له بحياته. عقيد فارفان!

صاح به العقيد فارفان من نافذة ألّا يهتمّ بمتاعه: سيحمله الجنود إلى الباخرة. عندما توقف القطار صعد العقيد ليصافحه باحترام كبير. نزل الركّاب الآخرون وهم يركضون.

ولكن كيف حالك؟ ما هي أخبارك؟

وأنت أيها العقيد؟ رغم أن النظر إلى وجهك يغني عن السؤال!

اتصل بي السيد الرئيس بالهاتف حتى أكون في خدمتك، حتى لا ينقصك أي شيء.

لطف منك سيدي العقيد!

أفرغت العربة بسرعة. أخرج العقيد رأسه من النافذة وصاح.

أيها الملازم! احرص على حمل المتاع إلى الباخرة. لماذا كل هذا البطء؟

على هذه الكلمات ظهرت مجموعة من الجنود المسلحين وأحاطوا بالأبواب.

فهم وجه الملاك المكيدة بعد فوات الأوان.

بأمر من السيد الرئيس، أنت رهن الإيقاف. قال له فارفان والمسدس بيده.

ولكن أيها العقيد.. إذا كان السيد الرئيس.. كيف يعقل، تعال.. تعال معي.. أرجوك.. تعال.. اسمح لي سأرسل تلغرافا!..

الأوامر واضحة، دون ميجال، من الأحسن أن تكون هادئا!

كما تريد، ولكن لا يمكنني أن أفوّت السفينة، سأرحل في مهمة، لا يمكنني..

اخرس! صاح فارفان وهو يهدّد بمسدسه، وأعطني كل ما بحوزتك..

أيها العقيد..

أعطني! قلت.

لا أيها العقيد. اسمعني!

لا تقاوم، اسمع لا تقاوم!

من الأحسن أن تسمعني، أيها العقيد!

انتهى النقاش!

لديّ أوامر سرية من السيد الرئيس، وستتحمل مسؤولية..

أيها الرقيب، فتش هذا السيد! سنرى من هو الأقوى!

انبثق من الظلّ شخص بوجه يلفّه شال: كان طويلا مثل وجه الملاك، نصف أشقر مثل وجه الملاك، أخذ كل ما وجده الرقيب عند وجه الملاك الحقيقي (جواز سفر، شيكات، دفتر عائلي، نزع وهو يسحبه بالبصاق الخاتم الذي يلبسه وجه الملاك، حيث نقش اسم زوجته، وأخذ مناديله، أزرار الزينة، وغيره) واختفى بسرعة.

بعد ذلك بكثيرة دوّت صافرة الباخرة. سدّ السجين أذنيه بيديه،

الدموع تعمي عينيه. أراد أن يكسر الأبواب، أن يهرب أن يركض، أن يطير، أن يعبر البحر، ألا يكون من يبقى - يا له من نهر من الأفكار التي تغلي تحت الجلد، يا لها من حكّة في كامل الجسد! - ولكن الآخر ابتعد باسمه ومتاعه في المقصورة رقم١٧ نحو نيويورك.

(٣٩)

الميناء

كلّ شيء يرتاح على الهدوء الذي يسبق تحوّل المدّ، باستثناء صرّار الليل النديّ بالملح حاملا شرارة نجم فوق غمده، انعكاسات المنارات، شبيهة بدبابيس الأمان الضائعة في الظلمة، والسجين الذي يروح ويجيء، كالخيل إثر المعركة، الشعر على الجبين، مشوش، الملابس غير مرتّبة، لا يستطيع الجلوس، يقوم بحركات مضطربة كمن يتحركون في نومهم، ناطقين بتنهيدات وبكلمات متقطعة، ضدّ يدي الله التي تأخذهم، التي تقودهم، لأننا في حاجة لهم من أجل الجراح، من أجل الموت الفجائي، من أجل القتل بدم بارد، كي نوقظهم مبقورين.

فارفان هو عزائي الوحيد، كرّر لنفسه. أنها فرصة أن يكون هو العقيد! على الأقل لتعلم زوجتي أنهم أطلقوا عليّ رصاصتين، ودفنوني، ولا شيء يستحق الذكر!

يُسمع طرق ينقب الأرض، مثل مطرقة برجلين، على طول العربات المسمّرة على السكة بأوتاد الحرس، أنه يتجول بعيداً جدّا في ذكريات القرى الصغيرة التي اجتازها، في طين ظلماتها، في غبارها المعميّ في النهارات المشمسة، يعضّه رعب الكنيسة والمقبرة، الكنيسة والمقبرة، الكنيسة والمقبرة. لم يبق حيّا سوى الإيمان والموتى!

دقت ساعة المقر العسكري دقة واحدة. ترتعش الثريات. النصف، لكن العقرب الكبيرة لا تزال تقطع الطريق الربع الأخير نحو منتصف الليل. أدخل العقيد فارفان يده اليمنى في كمّ سترته، ثم اليسرى، وبنفس البطء، أقفل أزراره بادئا من عانته، دون أن يرى ما يوجد أمام عينيه: خريطة تمثّل الجمهورية، على شكل تثاؤب، منديل حمّام بمخاط جاف وذباب نائم، سلحفاة، بندقية، وكيس.. زرّ بعد زرّ حتى الرقبة. حينما وصل إلى الرقبة رفع رأسه، اصطدم نظره بشيء لا يستطيع النظر إليه دون أن يقف في استعداد: صورة السيد الرئيس.

أنهى زرّ سترته، أطلق ضراطا، أشعل سيجارة من نار سراج وأخذ سوطه و.. إلى الخارج. لم يسمع الجنود مروره، كانوا ينامون على الأرض، ملفوفين بمعاطفهم، مثل مومياء، الحراسة قدمت له الأسلحة، وضابط الحراسة وقف محاولا بصق بقايا رماد ـ كل ما تبقى من سيجارته النائمة ـ بالكاد تمكن من إسقاطها من يده حتى يحيّيه عسكريا: «لا شيء يستحق الذكر، أيها العقيد!»

تدخل الأنهار في البحر مثل شوارب القط في إناء الحليب. الظل المائع للأشجار، أجسام التماسيح في حالة النزو، حرارة السّباخ البلورية، الدموع المسحوقة، كلها تؤدي إلى البحر.

تقدم رجل يحمل مصباحا نحو فارفان، حينما دخل إلى العربة. تبعه جنديان مبتسمان، يجدلان بأربعة أيادي الحبال التي ستقيّد السجين. قيّدا هذا الأخير بأمر من فارفان وحملاه نحو القرية، تتبعهم الحراسة التي تراقب العربة. لم يقم وجه الملاك بأية محاولة للمقاومة. في صوت الملازم وسلوكه، في الحرص الذي يوجبه هذا الأخير على الجنود، الذين يسيؤون معاملة الأسير دون حاجة

لتحريض، رأى في كل هذا حيلة من صديق يريد أن يكون خدوما فيما بعد، حين يصبحون في مقرّ الشرطة العسكرية. ولكنهم لم يأخذوه إلى مقر الشرطة العسكرية. حينما خرجوا من المحطة اتجهوا إلى المنطقة المعزولة من السكة الحديدية، وأمروا السجين بالصعود ـ وهم يضربونه ـ إلى مقطورة من الخشب مكسوّة بالرماد. الجنود يضربونه دون سبب جليّ، كأنهم ينفّذون أمرا تلقوه مسبقا.

التفت وجه الملاك وقال:

ولكن، لماذا يضربونني؟ كان يخاطب العقيد التي يتبع الرتل وهو يحادث حامل المصباح.

كان الجواب ضربة إضافية بعقب البندقية، ولكن عوض ضربه على الظهر، أصابوه على رأسه، فأدموا أذنه، وطرح أرضا على الرماد.

نفخ وجه الملاك كي يبصق الرماد، الدم ينزف قطرة قطرة، وأراد الاحتجاج.

اخرس! اخرس! صاح فارفان وهو يرفع سوطه.

أيها العقيد فارفان! صاح وجه الملاك دون خوف، في الهواء الذي بدأت رائحة الدم تسيطر عليه.

خاف فارفان مما سيقول وأطلق ضربته. رسم خط السوط على وجنة التعيس الذي يتخبط بركبته على الأرض أن يفكّ يديه وراء ظهره.

أفهم.. قال بصوت مرتعش، جارح، لا يكبت.. أفهم.. هذا النصر يساوي.. وساما جديدا..

اخرس، إذا أردت ألّا.. صاح فارفان وهو يرفع سوطه من جديد.

أوقف الرجل الذي يحمل المصباح يده.

اضرب، هيا، لا تخف، أنا رجل والسوط سلاح المخصيين!..

ضربتان، ثلاث، أربع، خمس ضربات من السوط جلدت في أقل من ثانية وجه السجين.

اهدأ، أيها العقيد، اهدأ، قال حامل المصباح.

لا، لا.. يجب أن أعيد الصواب لابن العاهرة هذا.. ما قاله بحق الجيش يستحق الانتقام.. أيها الصعلوك.. القذر!..

وليس بالسوط، الذي لم يعد صالحا للاستعمال، بل بعقب مسدسه، نزع شعرا ومزقا من اللحم من وجه ورأس السجين، وهو يكرّر مع كل ضربة: جيش.. مؤسسة.. صعلوك قذر.. لو..

ثمّ نقله، في الحالة التي أصبح عليها في مقطورة الرماد، إلى الجهة الأخرى من السكة الحديدية حتى أصبح قطار البضائع الذي سيعيده إلى العاصمة جاهزا للانطلاق.

جلس رجل المصباح في المقطورة، صحبه فارفان، لقد بقيا في مقرّ الشرطة العسكرية يشربان ويتحدثان إلى أن انطلق القطار.

أول مرّة أردت عندها الدخول إلى الشرطة السرية، قال رجل المصباح، كان لي صديق، اسمه لوشيو فاسكاز، الحرير..

يبدو لي أني سمعت عنه، قال العقيد.

ولكن ليس في تلك المرّة وقع قبولي. رغم أنه كان موهوبا في نصب الفخاخ، ويخرج منها كالشعرة من العجين، كالحرير ـ لذلك كنا ندعوه الحرير، لن أقول لك أكثر ـ ولكن ما حصدته هو الذهاب إلى السجن وخسارة المال الذي جمعته مع زوجتي ـ كنت متزوجا

عندها ـ من التجارة. وزوجتي المسكينة! أخذوها إلى «السحر العذب»..

استفاق فارفان عندما سمع عبارة «السحر العذب». لكن ذكرى الخنزيرة ذات الفرج برائحة المراحيض التي كانت تهيّجه، لم تحرّك سواكنه، بل ظل باردا يتخبّط كأنه يسبح تحت الماء، ضد صورة وجه الملاك الذي يكرّر: «وسام آخر!.. وسام آخر!..»

ما كان اسم زوجتك؟ لأني، كما تعلم، أعرف كل المقيمات في «السحر العذب».

آه! اسمها لن يضيف لك شيئا. بالكاد دخلت إلى هناك حتى خرجت. الصغير الذي أنجبته مات هناك.. هذا ما جعلها نصف مجنونة. كما ترى عندما لا يلائمك شيء، كل المحاولات ستكون فاشلة: لم تكن مخلوقة من أجل ذلك الأمر. الآن تعمل في المغسلة، مع الأخوات في المستشفى. لا يتلاءم معها أن تكون مومسا.

آه! ولكني عرفتها! حتى أني أنا الذي حصلت على رخصة للسهر على الجثة. لقد سهرنا عليها هناك، عند *الشون*.. ولكن لم أعرف أبداً أنه ابنك..

وأنا في ذلك الوقت كنت في السجن، دون مليم واحد.. الحقيقة حينما أتذكر ما حصل في الماضي تستبدّ بي رغبة في الفرار في أول قطار أجده..

وأنا، حينها كنت أنام على أذنيّ، بينما تشي بي قحبة لدى السيد الرئيس..

إذا، وجه الملاك هذا كان ضالعا مع الجنرال كناليس، كان

متورّطا مع ابنته ـ تلك التي أصبحت زوجته فيما بعد ـ ويقال أنه خالف أوامر السيد الرئيس. أعرف كل هذا لأن فاسكاز الذي ندعوه الحرير، قابله في حانة اسمها «التوتاب»، عندما فرّ الجنرال.

«التوتاب»؟ كرّر العقيد محاولا تذكر شيء ما.

أنها حانة في الزاوية.. نعم بالضبط في الزاوية. يا إلهي! كان هناك دميتان مرسومتان في الجدار، في كل جهة من الباب واحدة: رجل وامرأة. كانت ذراع المرأة معقوفة، وهي تقول لرجل ـ لا زلت أذكر الكتابة؛ «تعال نرقص التوتبيتو!» والآخر يمسك قارورة ويجيبها: «لا، لأني أرقص التوتيبون!»

يهتزّ القطار ببطء. تغطس قطعة من الفجر في زرقة البحر. من بين الظلال تنبثق منازل القرية المصنوعة من القش، الجبال البعيدة، المراكب البائسة للتجارة الساحلية، ومنشأة المقرّ العسكري، علبة ثقاب صغيرة مليئة بالصراصير مرتدية الزيّ العسكري.

(٤٠)

الغمّيضة

«دجاجة عمياء»

.. مرّت ساعات عديدة منذ سافر! يوم الرحيل، نبدأ بعدّ الساعات، حتى نجمع منها الكثير، ما يكفي لكي نقول: «لقد رحل منذ مدّة». ولكن بعد أسبوعين نضيّع عدّ الأيام فنقول: «مرّت أسابيع عديدة منذ رحل!» ثم نجمّع شهرا. ثم نضيّع عدّ الشهور. منذ عام. ثمّ نضيّع عدّ السنين.

تراقب كاميليا من خلف نافذة، مختفية وراء ستارة، حتى لا تُرى من الشارع، قدوم ساعي البريد. كانت حاملا وتخيط ملابس صغيرة للطفل.

يعلن ساعي البريد عن قدومه قبل الوصول، مثل مجنون يقوم بقرع جميع الأبواب. دقة صغيرة بعد أخرى، يقترب حتى يصل إلى النافذة. عندما تسمعه، وتراه قادما، تترك كاميليا الخياطة، يقفز قلبها فرحا في صدرها. أخيراً ها هي الرسالة التي أنتظرها! «معشوقتي كاميليا. نقطتان..»

لكن ساعي البريد لا يدق الجرس.. لأن.. ربما.. فيما بعد.. وتستعيد خياطتها، وهي تدندن لحنا حتى تنسى همّها.

يمرّ ساعي البريد من جديد عند الظهر. مستحيل أن تخيط إبرة

واحدة حينما يعبر من النافذة إلى الباب. متجمّدة، دون نفس، كلها آذان صاغية، تقف منتظرة الدقة الصغيرة، وحين تتأكد أن لا شيء عكّر هدوء المنزل، تغمض عينيها فزعة، تهزها شهقات البكاء، والقيء المفاجئ والتنهيد. لماذا لم تخرج أمام عتبة الباب؟ ربما.. نسي ساعي البريد ـ وأيّ شرف له هذا الساعي؟ ـ نعم له شرف المهنة، وسيحمله غدا، مثل زهرة.

في الغد كادت تقلع الباب وهي تفتحه على مصراعيه. جرت تنتظر ساعي البريد، ليس لكي لا ينساها، بل لكي تساعد الحظ. لكنه مرّ مثل الأيام السابقة، يتهرّب من أسئلتها، مرتديا بذلة خضراء فاتحة، ذلك الأخضر الذي يقال أنه لون الأمل، بعينين صغيرة كعيني ضفدع، وأسنان مكشوفة كجثة المشرحة.

شهر، شهران، ثلاثة، أربعة..

اختفت من الغرف التي تطلّ على الشارع، يسحقها حزنها الذي يدفعها في الغرف الداخلية للمنزل، لأنها بدأت تحس أنها رخيصة كآنية، من الخشب أو من الفحم، أشدّ بؤسا من الأوساخ.

«ليست رغبات، أنها حَكّة». تفسّر جارة تتشبّه بالقابلات للخادمات اللاتي طلبن نصيحتها، لمجرّد الثرثرة وليس لمداواتها ـ لأنها تعرف الدواء: شموع للقديسين، واختلاسات صغيرة لتخفيف المنزل من التحف الثمينة.

ولكن، ذات يوم، خرجت المريضة للشارع. الجثث تطفو. مختبئة في عربة، تدير عينيها عن الذين يعرفونها ـ زد على ذلك أنهم جميعاً يدبرون وجوههم كي لا يسلموا عليها ـ أرادت بكل قوتها أن تذهب إلى السيد الرئيس. فطور الصباح وغداؤها وعشاؤها لم يزيدوا عن منديل مبلل بالدموع. تكاد تأكله في المدخل. يا له من بؤس، إذا

حكمنا عبر الحشد الذي ينتظر! قرويون يجلسون على حواف الكراسي المذهّبة، مدنيّون، يجلون أكثر راحة. يتركون الأرائك للنساء بأصوات منخفضة. أحدهم يتحدّث من فتحة الباب. الرئيس! مجرّد التفكير به يبعث فيها القشعريرة. ابنها يضربها ضربات صغيرة في بطنها كأنه يقول لها: «هيّا بنا من هنا!» ضجيج من يغيرون جلساتهم. تثاؤب. وشوشات. خطوات ضباط أركان الحرب. حركات جندي ينظف بلور نافذة. الذباب. الضربات الصغيرة للكائن الذي تحمله في أحشائها. «آه! المشاغب! الغضب! سنتكلم مع الرئيس لنعرف مصير الرجل الذي لا يعلم حتى أنك موجود، والذي حين سيعود سيحبّك كثيرا! آه! أنت متلهّف لترى اليوم الذي تشارك فيه فيما يسمّى حياة.. لا، آه! ليس لأني أعترض، ولكنك بالداخل في مأمن!»

لم يستقبلها الرئيس. أقل لها أحدهم أن من الأفضل أن تكتب لطلب مقابلة. تلغرافات، رسائل، مطالب على ورق وزيري: كلّ ذلك دون فائدة، لم يرد منه أيّ جواب.

من المساء إلى الصباح تحرس السهد الساكن أهدابها التي تنزلها أحيانا على بحيرات من الدموع. بهو كبير. متمدّدة على أرجوحة النوم تلهو بحلوى ألف ليلة وليلة وبكرة من المطاط الأسود. الحلوى في فمها، الكرة الصغيرة في يدها. أرادت أن تمرّر الحلوى من وجنة لأخرى، فتركت الكرة التي تدحرجت على الأرض المبلطة، تحت الأرجوحة، ونطّت في البهو بعيدا، بينما تكبر الحلوى في فمها، في كل لحظة أبعد إلى أن اختفت، وهي تصغر. لم تكن نائمة. جسمها يرتعش بملمس الأغطية، أنه حلم بأنوار الحلم وبأنوار كهربائية. انزلق الصابون من يدها مرّتين أو ثلاث مرات، مثل الكرة الصغيرة، وخبز الفطور - تأكل فقط بدافع الضرورة - يكبر في فمها مثل الحلوى.

الشوارع، مقفرة، الناس في الصلاة، وهي في الوزارات تنتظر الوزراء، دون أن تعرف كيف تستحوذ على عطف الحجّاب، عجائز قصار القامة، لا يجيبونها حين تسألهم، وحين تلحّ يزجرونها، كعنقود من فضلات اللحم.

لكن زوجها ركض لالتقاط الكرة الصغيرة. الآن تذكر الجزء الآخر من حلمها. البهو الكبير. الكرة الصغيرة السوداء. زوجها الذي يصبح أصغر في كل مرّة، ويصبح أكثر بعدا، كأنها تنظر إليه من خلال عدسة مصغرة، حتى يختفي من البهو خلف الكرة الصغيرة، بينما في فمها، تكفّ عن التفكير في ابنها، تكبر الحلوى.

كتبت إلى القنصل في نيويورك، إلى الوزير في واشنطن، إلى صديقة صديقتها، إلى عديل صديق، لطلب أخبار، وكأنها ترمي الرسائل في سلة المهملات. علمت عبر تاجر يهودي أن المحترم سكرتير المفوضية الأمريكية، شرطي سريّ ودبلوماسي، له أنباء أكيدة عن وصول وجه الملاك إلى نيويورك. نعلم أنه نزل من السفينة ليس فقط من خلال سجلات الميناء، والشرطة والفنادق، بل من خلال الصحف والناس العائدين حديثاً من هناك. والآن يقع البحث عنه، قال لها اليهودي. حيّا أو ميّتا، يجب أن يجدوه، رغم أنه ركب في نيويورك باخرة إلى سنغافورة!

وأين تقع! سألت.

وأين تريدينها أن تكون؟ في الهند الصينية، أجاب اليهودي وهو يحرّك أسنانه الاصطناعية.

وكم تستغرق، تقريبا، رسالة لتصل من هناك؟ أصرّت.

لا أعلم، ولكن ليس أكثر من ثلاثة أشهر.

عدّت على أصابعها. لقد رحل وجه الملاك منذ أربعة أشهر.

في نيويورك أو في سنغافورة.. يا لها من راحة! يا له من عزاء أن يكون بعيدا، بأن تعلم أنهم لم يقتلوه في الميناء، مثلما يهمس البعض. بعيداً عنها، في نيويورك أو في سنغافورة، ولكن معها عبر الأفكار!

في مغازة اليهودي تمسكت بالطاولة، حتى لا تسقط. الفرحة سببت لها إغماء. تسير كأنها تحلّق في الهواء، دون أن تلمس اللحم الملفوف في الورق الفضي، القوارير في أغلفتها من القصب الإيطالي، علب المربى، الشكولاطة، التفاح، السمك المجفّف، الزيتون، الخمر الأبيض، تزور البلدان معلّقة بذراع زوجها. «يا لي من غبية، كنت أقلق دون سبب! الآن أفهم لماذا لم يكتب لي، ويجب أن أواصل التمثيل. دور امرأة أهملها زوجها، والتي ترحل يحرّكها جنون الغيرة، في البحث عمّن أهملها.. أو المرأة التي تريد أن تكون بجانب زوجها في لحظة الولادة العسيرة.»

حجزت المقصورة، وجهّزت حقائبها، كل شيء جاهز للرحيل، بأمر سام رفضوا إعطاءها جواز السفر. كتلة لحمية مشحّمة تحيط بحفرة بأسنان مصفرّة بالنيكوتين تحرّكت من الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى، ليقول لها أنهم لا يستطيعون إعطاءها جواز سفرها بأمر سام. حرّكت شفاهها من الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى في محاولة تكرار الكلمات كأنها لم تسمعها جيّدا.

وأنفقت ثروة في التلغرافات للرئيس، ولم يردّ عليها. الوزراء لا يستطيعون شيئًا. مساعد سكرتير وزير الحرب، رجل بشوش بطبعه مع النساء، رجاها ألّا تلحّ: لن يعطوها جواز سفرها ولو أنفقت كل

ثروتها لأن زوجها أراد أن يتلاعب مع السيد الرئيس وأن لا شيء سينفعها.

نصحوها أن توسّط راهبًا مشهورًا بعظمة صولجان دائم الانتصاب، أو إحدى خليلات الذي يركب الخيول الرئاسية، وبما أن في تلك الفترة راجت إشاعة مفادها أن وجه الملاك مات بالحمى الصفراء في بنما، لم يَعُزها وجود من يصاحبها إلى محضري الأرواح، لمعرفة ما عليها فعله.

هؤلاء لم ينتظروا حتى تلحّ عليهم. فقط امرأة واحدة وسيطة روحية بدت حرونة. «فلتسكني، روح شخص كان عدوا للسيد الرئيس، هذا لن يلائمني أبداً، قط.» وتحت ملابسها الجامدة كانت قدماها ترتعدان. ولكن الرجاء المصاحب بالنقود تليّن حتى الحجر، ومن كثرة ما أعطيت، لانت. انطفأ الضوء. خافت كاميليا حين سمعت النداء على روح وجه الملاك، وأخرجوها وهي تجرّ ساقيها تكاد تفقد وعيها. سمعت صوت زوجها، الميت، في أعالي البحار، والآن هو في منطقة لا يمكن فيها أن يصيبه أحد بمكروه، في أجمل سرير، حشيّة من الماء، بنابض من السمك، والغياب أرقّ الوسائد.

أصبحت نحيلة، بتجاعيد قطّة عجوز على وجهها، رغم أنها بلغت بالكاد العشرين، كل شيء في العينين، عيون خضراء بدارتين عظيمتين كأذنين شفافتين. وضعت طفلا، وبنصيحة طبيبها، ذهبت، مباشرة بعد احتفال القبول في الكنيسة، في رحلة للريف. فقر الدم المتزايد، السلّ، الجنون، الغباء، وهي تبحث، خبط عشواء، متماسكة على خيط دقيق، طفل فوق ذراعها، دون أي خبر عن زوجها، تبحث عنه في المرايا، المكان الوحيد الذي يمكن أن يعود منه الغرقى، أو في عيون ابنها، أو في عيونها هي، وحين تنام تحلم به في نيويورك أو في سنغافورة.

أشرق يوم بين الصنوبر ذي الظلال السوداء، والأشجار المثمرة في الحديقة أو في الحقول الأعلى من السّحب، في ظلمة لياليها: كان يوم عيد العنصرة يوم تلقى طفلها الملح والزيت والماء والرّيق الكنسي واسم ميجال. العصافير كانت تزقزق. أوقيّتان من الريش وزغاريد لانهائية. النعاج تلهو بلحس حملانها. يا له من إحساس جميل بالراحة يعطيه ذلك الذهاب والإياب للسان الأم على جسم الوليد، الذي يغمض عينيه نصف إغماض بتأثير المداعبة! المهر يمرح بابتهاج خلف الفرس ذات العيون المبلّلة. العجول الصغيرة تخور وفمها يسيل لعابا سعيدا تلامس الضرع المنتفخ. دون أن تدري لماذا، أحسّت كأن الحياة ولدت داخلها من جديد عندما دقت نواقيس العماد، وضمّت طفلها على قلبها.

كبر ميجال الصغير في الريف، وأصبح رجل زراعة، ولم تضع كاميليا قدميها في المدينة مرّة أخرى.

(٤١)

لا شيء يستحق الذكر

يصل الضوء إلى الدهليز كل اثنتين وعشرين ساعة، يرشّحه نسيج العناكب وعيوب البناء، وكل اثنتين وعشرين ساعة تنزل مع الضوء صفيحة صدئة يرسل فيها طعام سجناء الدهليز، في طرف حبل وسخ ومليء بالعقد.

أدار السجين ١٧ نظره عند رؤية العلبة المليئة بالمرق العفن تسبح فيه بقايا شحم وقطع من البيض: الموت أهون من بلع ولو لقمة واحدة. وخلال أيام وأيام تنزل الصفيحة وتصعد دون أن تلمس. لكن الجوع سريعا ما غلبه: أصبحت حدقته بلورية في صحراء الجوع القاحلة، اتسعت عيناه، أصبح يهذي بصوت مرتفع، وهو يجوب زنزانته، حيث لا يمكن أن تمشي أكثر من أربع خطوات، يحكّ أسنانه بأصابعه، يجذب أذنيه الباردتين، وحين نزلت الصفيحة من الغد، جرى إليها، كأن أحدا سيفتكّها منه، ودفن فيها فمه وأنفه، وشعره، اختنق لأنه أراد أن يمضغ ويبلع في نفس الوقت. لم يترك شيئا، وحين سحبوا الحبل، ظل ينظر إلى الصفيحة الفارغة برضا حيوان شبعان. لم يتوقف عن مصّ أصابعه ولحس شفتيه.. سعادة مؤقتة والطعام خارجاً مخلوطا بالكلام والأنين.. يلتصق المرق والبيض بمعدته دون نيّة في الخروج، لكن عند كل قذف لا يملك إلاّ أن يفتح فمه ويتكئ على الحائط كأنه يشرف على هوّة. أخيراً

يمكنه التنفّس، كل شيء يدور، مرّر يده على شعره المبلل، فانزلقت خلف أذنيه نحو لحيته المتسخة باللعاب. أذناه تطلق صفيرا. عرق بارد، لزج، حامض مثل ماء بطارية كهربائية يغرق وجهه. بدأ النور بالاختفاء، هذا النور الذي بدأ بالاختفاء بالكاد ظهر.

تمكّن بمجهود جبّار من الجلوس، متمسّكا ببقايا جسمه، كأنه يحارب ذاته، ومدّد ساقيه وأسند رأسه على الجدار، وسقط تحت وزن أهدابه كما تحت تأثير مخدّر قويّ، لكنه لم ينم هادئا؛ تنفّسه الضيّق الناتج عن نقص الأوكسجين، تتبعه الحركات المتشنّجة ليده على جسمه، والتيبّس الذي يصيب قدميه ويجبره على مدّ قدم ثم أخرى، والركض المتواصل لأصابعه على خوذات أظافره كي ينزع من حلقة الجمرات التي تحرقه في الداخل. نصف يقظ يفتح فمه ويغلقه، مثل سمكة دون ماء، يلحس الهواء المتجمّد بلسانه، والرغبة في الصراخ، ثم الصراخ، أصبح الآن يقظا، لكن الحرارة تدوّخه، لم يكن واقفا فحسب، بل منتصبا على أطراف أصابعه، وهو يحاول أن يمدّد جسمه، حتى يسمعوه بشكل جيّد. تردّد القباب صوته من صدى لصدى، يضرب بيديه على الجدران، يضرب بقدميه على الأرض، بصيحاته التي أصبحت صراخا: يطالب: «ماء، مرق، ملح، شحم، أي شيء، ماء، مرق..».

خيط من دم عقرب مهروس لامس يده.. عقارب عديدة، لأنه لم يكف عن السيلان.. من كل العقارب المهروسة في السماء لتصنع أمطارا.. أطفأ ضماه بلحسات عديدة بلسانه دون أن يدري لمن يدين بهذه المتعة التي أصبحت فيما بعد شغله الشاغل. بقي ساعات وساعات، مقرفصا على الصخرة التي يستعملها كوسادة حتى يحمي قدميه من برك الماء التي يكوّنها الخريف في زنزانته. ساعات وساعات، يقضيها في تصفية المياه، مبللا حتى قمة رأسه، مفاصله

باردة، بين التثاؤب والارتعاش، مهمهما لأن الصفيحة لم تأت بعد. يأكل مثل الهزيلين حتى يسمّن أحلامه، وبالكاد ينهي لقمته الأخيرة، ينام واقفا. فيما بعد ينزل السطل الذي يقضي فيه السجناء السريون حاجاتهم. حينما سمعه السجين١٧ لأول مرّة خاله طعام ثان، ولأنه في تلك الفترة لم يكن يأكل ولو لقمة واحدة، تركه يصعد، دون أن يتخيّل أنه سطل البراز لأنه لم يكن أشد نتانة من المرق. يمرّ السطل من زنزانة لأخرى، عندما وصل إلى ١٧ كان نصف ملآن. كان سماعه ينزل يبعث فيه الرعب، لأنه إذا كان في حاجة له فإن الرغبة تختفي، أحيانا يحدث ألا ينزل السطل لأنهم نسوه. فيكاد يفقد السمع من شدّة ضرب رأسه على الجدار: كمن يضرب الناقوس الصامت. أحيانا كي يطفح به الكيل، تختفي رغباته بمجرّد أن يفكر بالإناء. ويحدث أن ينقطع الحبل مما ينتج عنه حمّام عفن لبعض السجناء.

يرتفع قلبه من الاشمئزاز حين يتذكر الرائحة التي ينشرها الإناء المربّع، حرارة العفونة البشرية، حوافه الجارحة، متخيّلا الجهد اللازم، ثم، حين تختفي الحاجة والسطل، يبقى عذاب الدور الذي يليه، أن تنتظر اثنتين وعشرين ساعة وسط الأسهال والرعب، والبكاء، والمغص، والكلمات القذرة، وبلع ريق بطعم النحاس، لكن في النهاية، حينما لم يعد بإمكانه الاحتمال، يفرغ على الأرض، وتسيل بطنه العفنة، مثل كلب أو طفل، وحيدًا مع الموت.

ساعتان من الظلّ، اثنتان وعشرين ساعة من الظلمة المطلقة، علبة مرق، وعلبة براز، العطش في الصيف والطوفان في الشتاء: تلك حياة السجناء في الدهاليز.

.. كل يوم ينقص وزنك! يحدّث السجين ١٧ الذي لم يعد يعرف

صوته، نفسه، وحين يستطيع، سيحملك الريح إلى هناك حيث تنتظر كاميليا عودتك! مؤكد أن الانتظار أرهقها، وأنها تحوّلت إلى شيء هشّ، نحيل! لا يهمّ أن تنحل يديك ستسمنان عند ملمس نهديها!.. أنهما وسختان؟.. لا يهمّ ستنظفهما بدموعها.. عيناها خضراوان؟.. نعم، مثل حقول التيرول النمساوية التي رايتها في السوم.. آه! قصب البامبو، بانعكاساته المذهّبة واللمسات المحمرّة.. وطعم أسنانها وطعم.. وجسمها حين تمنحه لي، شبيه بثمانية ممدّدة، بخصرها النحيل مثل القيثارات الدخان التي ترسمها الشمعدانات يخب ونورها قبل الانطفاء. سرقتها من الموت في ليلة ألعاب نارية.. كانت الملائكة تمشي، والغيوم تمشي، والأسطح تمشي بخطى صغيرة كحراس الليل، المنازل، والأشجار كل شيء يمشي في الهواء معها ومعي..»

يحسّ كاميليا قريبة من جسمه، في الغبار الرقيق للّمس، في تنفّسه، في أذنيه، بين أصابعه، بين ضلوعه التي ترجّ مثل الأهداب الأحشاء العمياء..

واستمتع بها..

أتت الرعشة دون أدنى انقباض، بهدوء، برعشة خفيفة، على طول العمود الفقري، العمود الشوكي، تقلص سريع في فم الحنجرة وسقوط الذراع، كأنها بترت من الجسم..

الاشمئزاز الذي يحسّه عند قضاء حاجاته في الصفيحة، بالإضافة إلى الاستسلام لرغباته الجنسية بهذه الطريقة المرّة عبر صورة زوجته، يتركه دون قوّة للقيام بأي حركة.

بقطعة صغيرة من النحاس نزعها من خيوط حذائه، الوسيلة المعدنية الوحيدة المتوفرة لديه، حفر على الجدار اسمه واسم كاميليا

متلاصقين، ومستغلا النور الذي يصل كل اثنتين وعشرين ساعة، أضاف قلبًا، وخنجرًا وتاجًا من شوك ومرساة، وصليبًا وسفينة شراعية صغيرة ونجمة وثلاثة خطاطيف مثل حركات مدّ، وقطار بدخان لولبي..

جنّبه التعب القلق الذي تسبّبه الرغبات. يتذكر كاميليا، وهو مرهق، كمن يشمّ وردة أو يسمع قصيدة. تذكّره بالزهرة التي، تتفتح، في شهر ابريل وماي من كل سنة، في نافذة صالة الطعام، حيث كان يتناول الطعام وهو طفل مع أمّه. أذن وردة صغيرة غريبة. طواف بصباحات الطفولة يتركه دائخا. يرحل النور.. يرحل.. هذا النور الذي، بالكاد يصل، حتى يرحل. تبتلع الظلمات الجدران مثل الخبز الطريّ، وسريعا يصل سطل البراز. آه! لو أن تلك الوردة! الحبل الصدئ والسطل السعيد بين الجدران المعوية للقباب. ارتعش عند التفكير بأن تلك النتانة ترافق هذه الزيارة النبيلة. يحملون السطل وليس الرائحة النتنة. آه، لو أن تلك الزهرة البيضاء كحليب فطور الصباح!..

بمرور السنوات، شاخ السجين ١٧ كثيرا، بالإضافة إلى أن الهموم تُرهق أكثر من السنين. تجاعيد عميقة وعديدة حفرت وجهه، وفقد شعره الأبيض مثلما يفقد النمل أجنحته في الخريف. لم يبق لا هو ولا هيأته.. لا هو ولا جثّته.. دون هواء، دون شمس، دون حركة مصاب بالاسهال وداء المفاصل وألم الأعصاب، تقريبا أعمى، الأمر الوحيد الذي ينبض لديه هو الأمل في رؤية زوجته، الحب الذي يسند القلب بمسحوق الياقوت.

أرجع رئيس البوليس السري الكرسي الذي يجلس عليه إلى الخلف، ووضع قدميه فوقه، وارتكز على أطراف أصابعه، وأسند

مرفقيه على خشب الطاولة الأسود، وقرّب ريشته من الضوء، وبضغط من إصبعيه، سحب خيطًا صغيرًا كان يشوّه الخط، ويجبره على كتابة حروف شبيهة بسرطانات. ثم بدأ بالكتابة: «.. وحسب التعليمات ـ تكشط الريشة الورقة في كل أول كلمة ـ ربط المذكور أعلاه فيش بصداقة مع السجين ١٧، بعد أن سجن معه طيلة شهرين، ومثّل عليه، وهو يبكي دون توقّف، ويصرخ طول اليوم، ومهدّدا بالانتحار في كل لحظة، سأله السجين ١٧ عن الذنب الذي ارتكبه ضد السيد الرئيس كي يكون هنا، حيث يغيب أي أمل إنساني، لم يجب المذكور، مكتفيا بضرب رأسه على الجدار ومطلقا اللعنات. لكن الآخر أصرّ لدرجة أن فيش قال: «متعدّد اللغات، ولدت في بلد متعدّد اللغات، علمت بوجود دولة لا يوجد فيها متعدّدي اللغات. فسافرت ووصلت. بلد مثالي للغرباء. توصية من هنا وتوصية من هناك، صداقة، أموال، كل شيء.. فجأة، امرأة في الشارع، الخطوات الأولى خلفها، متردّدا، تقريبا دون إرادة.. متزوجة؟.. صبيّة؟.. أرملة؟.. لا يعلم إلا شيئاً واحدا: يجب أن يتبعها. لم يتمكن من منع نفسه. يا لها من عيون خضر! الفم كالزهرة! يا لها من مشية! واحة الفردوس!.. بدأ بمغازلتها، والتجول أمام منزلها، لكن حين حاول التحدّث معها، لم يعد يراها، وظهر رجل لم يره من قبل، ولم يعرفه، وبدأ بمراقبته أينما يذهب مثل ظله.. أصدقائي، ماذا هناك؟ الأصدقاء يديرون لي وجوههم.. حجارة الطريق، ماذا هناك؟ تهرب حجارة الطريق من خطواته. جدران المنزل ماذا هناك؟ ترتعش جدران المنزل عند سماع صوته. كل ما تمكن من فهمه، هو تهوّره: لقد أراد مغازلة حظيّة السيد الرئيس، علم قبل سجنه بتهمة الفوضوية أنها سيّدة، ابنة جنرال وهي تفعل ذلك للانتقام من زوجها الذي تركها..

أكّد المذكور أنه حين نطق هذه الكلمات، سمع فحيح ثعبان يزحف في الظلمة: اقترب منه السجين ورجاه بصوت أضعف من صوت زعانف السمكة، أن يقول له اسم تلك المرأة، الاسم الذي ذكره المذكور للمرّة الثانية..

منذ تلك اللحظة بدأ السجين بحكّ كل جسمه، كأنه مصاب بالأكال، خدش وجهه حين أراد أن يمسح الدموع حيث لا يوجد إلا جلد جافّ، وحمل يده إلى صدره دون أن يجده: نسيج عنكبوت مبلّل سقط على الأرض..

سلّمت، حسب التعليمات، شخصيا إلى المسمّى فيش بعد أن كتبت كل أقواله حرفيا، سبعة وثمانين دولارا، من أجل الوقت الذي قضاه سجينا، وبذلة للمناسبات وبطاقة سفر إلى فلاديفوستوك.

شهادة وفاة السجين ١٧ كتبت كالتالي: «إسهال متعفّن».

هذا كل ما يشرّفني نقله للسيد الرئيس..».

خاتمة

ظلّ الطالب متسمّرًا أمام الرصيف كأنه لم ير أبدًا رجلاً بجبّة، ولكن لم تكن الجبة التي سبّبت استغرابه، ولكن ما قاله خادم الكنيسة في أذنه وهو يقبّله فرحا بالحرية.

لقد لبست الجبة بأمر عليّ.

وكان يمكنه أن يبقى هناك وسط الطريق، لو لم يأت رتل من السجناء بين صفّين من الجنود.

يا لهؤلاء المساكين، همس خادم الكنيسة عندما أصبح الطالب على الرصيف، يا للجهد الذي بذلوه لهدم الباب! هناك أشياء نراها ولا نصدّقها!..

نراها! تساءل الطالب. نلمسها ولا نصدّقها. أردت الحديث عن البلدية..

ظننتك تتكلّم عن جبّتي..

لا يكفي دهن الباب بأموال الأتراك، حتى لا يترك الاحتجاج على قتل *الرجل ذي البغلة الصغيرة* أي شكّ، بل يجب هدم البناء..

لسانك مهذار، احذر، يمكن أن يسمعونا. اسكت بحق الله! غير صحيح..

أراد خادم الكنيسة مواصلة الكلام، لكن رجلاً قصيرا حاسر الرأس تقدّم ووقف بينهما وبدأ يغنّي بأعلى صوته:

أيها التمثال الصغير

من شكّلك؟

بوجه ممثّل صامت!

بنجامين!.. بنجامين!.. تصيح امرأة تركض خلفه بهيأة شخص على وشك البكاء.

بنجامين محرّك الدمى

لم يتخيّلك الذي جعلك

راهبا للصامتين!

بنجامين!.. بنجامين!.. تصيح المرأة على وشك البكاء. لا تهتمّوا له سادتي، لا تهتمّوا لأمره، أنه مجنون، لا يمكنه تخيّل أنه لا يستطيع أن يتخيّل عدم وجود باب الرحمان!

وبينما تعتذر امرأة محرّك الدمى، عوضا عنه، من خادم الكنيسة والطالب، ذهب الدون بنجامين يغنّي أنشودته لشرطيّ ذي مزاج سيّئ:

أيها التمثال الصغير

من شكّلك؟

بوجه ممثّل صامت!

بنجامين محرّك الدمى

لم يتخيّلك الذي جعلك

راهبا للصامتين!

لا، يا سيدي!.. لا تأخذه، ليس لديه نيّة سيّئة، ألا ترى أنه

مجنون، رجته المرأة، وهي تقف حائلا بينه وبين محرّك الدمى، أنت ترى أنه مجنون، لا تأخذه.. لا! لا تضربه.. ألا ترى أنه مجنون لدرجة القول أنه يرى المدينة كلها خرابا مثل الباب..

يواصل السجناء مرورهم.. أن يكونوا هم، وألّا يكونوا كالذين في طريقهم سعداء، في عمقهم بألّا يكونوا هم.. يتبع رتل النقالات اليدوية، صفّ الذين يحملون على أكتافهم، صليب الأدوات الثقيلة، وفي آخرهم هؤلاء الذين يجرّون صوت السلاسل كالأفعى ذات الأجراس.

فرّ بنجامين من يد الشرطيّ الذي أصبح يتحدّث مع زوجته بصوت مرتفع، وجرى يحيّي السجناء بكلمات من اختراعه:

آه! حينما رأيناك، وحين نراك، بانش وتاناشو، الرجل ذو السكين آكل اللحم، ذي النصل المتعطّش، في غرفة الفلّين!.. من رآك، ويراك، أتعس من متسوّل، لو لو كوشولو، صاحب الساطور كذيل الطاووس!.. من رآك على حصان ويراك على قدميك، ميكست وميلندر، ماء عذب للخنجر، خائن ولوطي!.. من رآك بمسدس، عندما كان اسمك دومينغو، ومن يراك الآن دون مسدس، حزينا مثل يوم الأحد! التي كانت تقتل الصبغة وتسحق لك القملة.. الأحشاء تحت الأسمال ليس لحم جنود!.. الذي لا يملك قفلا لإغلاق فمه فليضع الأغلال في يديه!..

بدأ الموظفون الخروج من المحلات. القطارات تمرّ مملوءة، تكاد تنفجر، أحيانا تمرّ عربة، سيارة، أو دراجة.. اضطراب فجائي للحياة، دام حتى مرور الطالب وخادم الكنيسة من فناء الكاتدرائية، ملجأ المتسولين ومزبلة الناس الذين لا ديانة لهم، وأن يتبادلا تحيّة الوداع أمام باب قصر المطرانية.

عبر الطالب أنقاض باب الرحمان على جسر من الأخشاب وضعت بعضها على بعض. هبّت ريح باردة فرفعت غمامة من الغبار، دخان دون نار من الأرض. ريح أخرى أمطرت قطعا من الأوراق الحكومية ـ غير مجدين ـ فوق ما كان صالون قصر البلدية. تحرّكت مزق من قماش الزرابي التي مازالت ملتصقة بالجدران المهدّمة، عند هبوب الريح، مثل الأعلام. فجأة، انبثق خيال محرّك الدمى ممتطيا مكنسة يخبّ في أفق لازوردي مرصّع بالنجوم، تحت أقدامه، خمسة براكين صغيرة من الحصى والحجارة.

وصل الطالب إلى منزله، آخر زقاق، وحين فتح الباب سمع صوت أمّه، تقطعه همهمات الخادمات التي تستعد للإجابة عن الدعوات، تتلو التسبيح:

«من أجل المحتضرين ومن أجل المسافرين.. من أجل أن يسود السلام بين أمراء المسيحية.. من أجل الذين يقاسون التعذيب باسم العدالة.. من أجل أعداء المذهب الكاثوليكي.. من أجل حاجيات الكنيسة المقدّسة ومن أجل حاجياتنا.. من أجل أرواح المطهر..

آمين..»

سيرة ذاتية

جمال الجلاصي: شاعر، روائي ومترجم تونسي.

ولد في مدينة قليبية في غرة جويلية ١٩٦٨

درس العلوم القانونية، متحصل على أستاذية التربية المدنية.

عضو مؤسس لنقابة كتاب تونس، مهرجان الشعراء الطلبة

عضو الهيئة المديرة لمهرجان الأدباء الشبان بقليبية.

عضو الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب

أصدر: الأوراق المالحة (رواية)

الإقامات (شعر) وزارة الثقافة الجزائرية

أعشاب اللغة (شعر) دار إنانا للنشر

حكايات عمي البحر (قصص أطفال)

إضراب الشحاذين (ترجمة)

الأعمال الشعرية الكاملة ليوبولد سيدار سنغور

تحت الطبع:

انطولوجيا قصيدة النثر الشبابية العربية باللغة الفرنسية

الإله الصغير عقراب (ترجمة)

باي العربان (رواية)

الصوت الخالق (مجموعة قصصية)

الفهرس

الجزء الأول

٢١، ٢٢، ٢٣ أفريل

الجزء الثاني

٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧ ابريل

الجزء الثالث

أسابيع، أشهر، سنوات..

هذا الكتاب

كان العميان، مقارنة بالآخرين، كأنهم يغنّون، والناموسة الذي ما زال يتحدث، لا أحد يسمعه. من يمكنه أن يأخذ ادعاءاته على محمل الجدّ؟: «أنا، من قضى طفولته في ثكنة للمدفعية، حيث جعلت مني ركلات البغال والقادة رجلاً - حصانا، ممّا مكّنني وأنا شاب من جرّ أرغني الضخم في كل الشوارع. أنا الذي فقدت عينيّ خلال معركة دون أن أدري كيف، ثم رجلي اليمنى في معركة ثانية دون أن أعرف متى، ثم اليسرى في معركة ثالثة، تحت عجلات سيارة دون أن أعرف أين»!.

ISBN 978-9933350925



